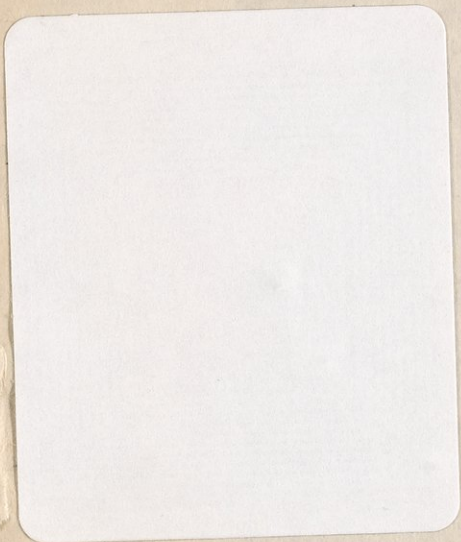


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



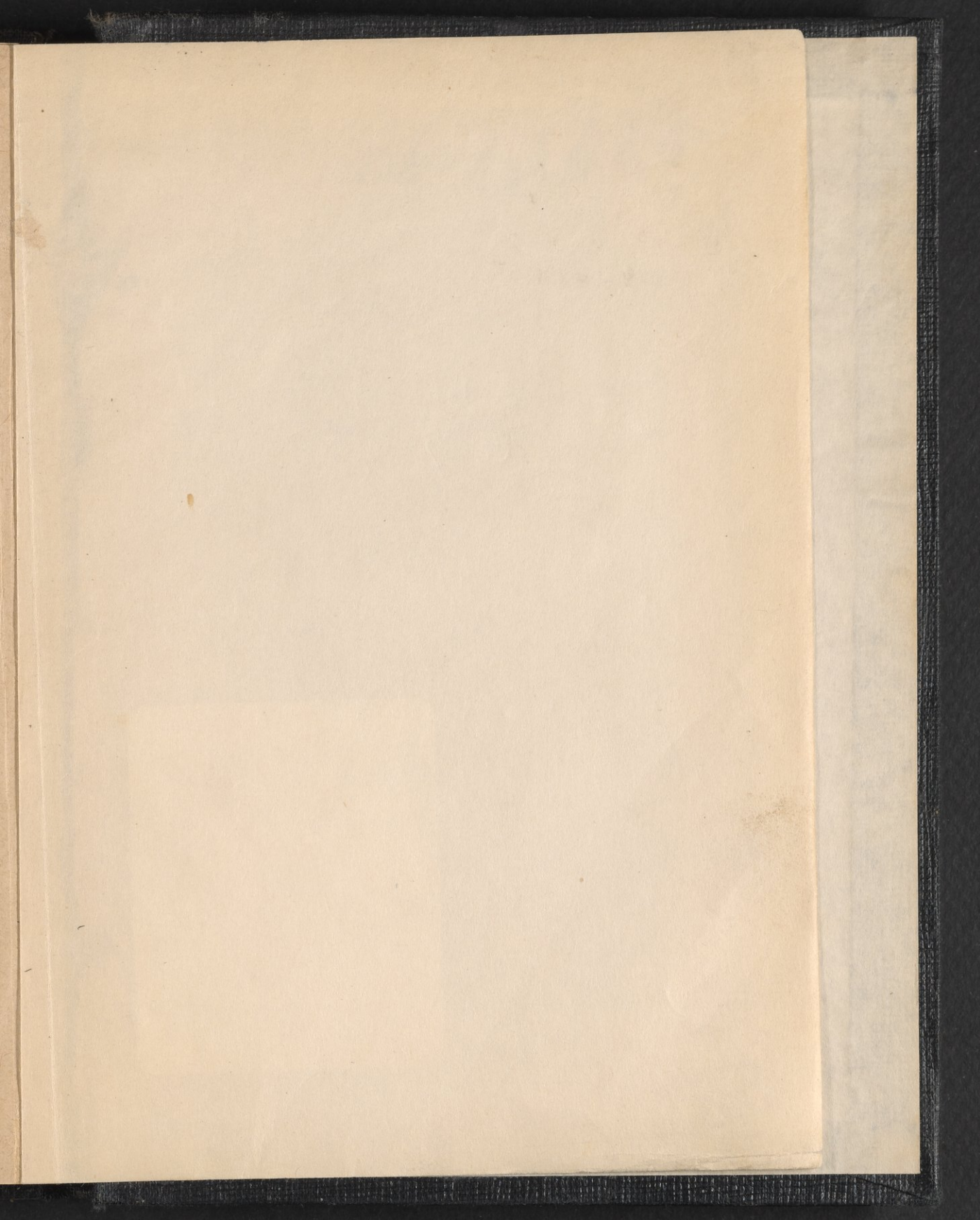
3 8534 01002 1149

06-B1625



خبرستان

مجله



الى المجلد الذي ترصدت منه
انتم هذا هذا العبد
من دكره

المجلد

منه

١٩٥٥

سحر لبستان

DS

80.2

٧٣

1955

تأليف

ميشيل سليم يمين

دار المعارف بمصر

910, 77
س. ق. 5

36684

تصديري

بقلم الشاعر الأستاذ حسن كامل الصيرفي

لُبنانُ والحُلْدُ اختراع الله لم يوسم بأحسن منهما ملكوتُهُ

رحم الله (شوقي) فقد صدق كل الصدق حين نطق بهذا البيت ،
ولا أعدو الحق إن قلت إنَّ (شوقي) على كثرة ما وصف جمال الطبيعة
في شتى البلاد لم يبلغ الذروة التي بلغها في شعره عن لبنان ، ذلك
أن لهذا القطر العربي الحبيب من السحر ما يوحى بأروع الشعر .

ولقد أحببت (لبنان) من خيال شعرائه ، وأحبيته بعد ذلك
من خلق أبنائه . وإن الله إذ أفاض على هذا الجبل الأشمَّ أروع صوره
لتقف الأجيال خاشعة أمام قدرته في روعة التصوير ، أفاض على ألسن
أبنائه أبدع فيكِّره ليتفننوا أبدع التفنن في التعبير .

لذلك سررتُ حين قرأ على الصديق الأديب الأستاذ ميشيل سليم يمين
كتابه « سحر لبنان » ، وكنت أستمع إليه وهو يحدثني عن رحلته
ويصعد بي فوق القمم الشواهد ويهبط بي إلى السفوح الخضراء مفتوناً بهذا
الحديث العذب مأخوذاً بذلك الجمال السليح .

والأستاذ «يمين» مؤلف هذا الكتاب محدث لبق اكتسب معارف عامة
جمة من ماضيه في الصحافة ؛ إذ التحق بعد تخرجه في مدرسة التجارة العليا

بالقاهرة سنة ١٩٣٣ بجريدة (المقطم) فكان يحرر فيها صحيفة «مجلة في صفحة» يضمها موضوعات طريفة وشذرات لطيفة مترجمة عن الفرنسية والإنجليزية. كما اكتسب أيضاً مقدرة قصصية مما كان ينشر من قصص يؤلفه تارة ويترجمه تارة أخرى. ثم عهدت إليه اللجنة الوطنية للفرنسيين الأحرار في الحرب الكبرى الأخيرة وضع كتاب عن حركة فرنسا الحرة باللغة العربية فقام بإخراج ذلك الكتاب الذي لقي من التقدير مما دعا إلى نقاد نسخه. فلما تهيأ لوضع كتابه «سحر لبنان» يسجل فيه رحلته إلى وطنه الأول بعد غيبة بلغت ربع قرن من الزمان كانت مطالعته وآثاره القصصية للبنان طيبة نهض عليها أساس كتابه الجديد.

فهو يتنقل في كل مكان بإلهام الشاعر والمصور، وبإحساس المغترب العائد في شوق وتلهف، وبعين المتفحص المدقق يقارن بين الماضي والحاضر ويطلعنا على آثار التقدم والنشاط، ولذلك كان لرحلته أثر جميل يحسه قارئ كتابه لأنه كتبه كما يكتب قصة، ودون فيه من المعلومات الطريفة ما يهم كل شوقي. ولذلك كان توفيقاً من الناشر أن ينشر بين الناس كتاباً كهذا مستهلاً به السنة السياحية التي تعتزم الحكومة اللبنانية إقامتها. لقد أحببت لبنان كما قلت وما زلت أمني النفس بالحج إلى ربوع هذه الجنة الأرضية لأقرأ على صفحاتها تلك القصيدة العلوية الساحرة. وإلى أن يتحقق لي هذا الحلم أعاود النظر في كتاب «سحر لبنان» فإن فيه من صوره ومفاتيحه الكثير.

القاهرة، في مارس سنة ١٩٥٥

حسن طمل الصبري

الإهداء

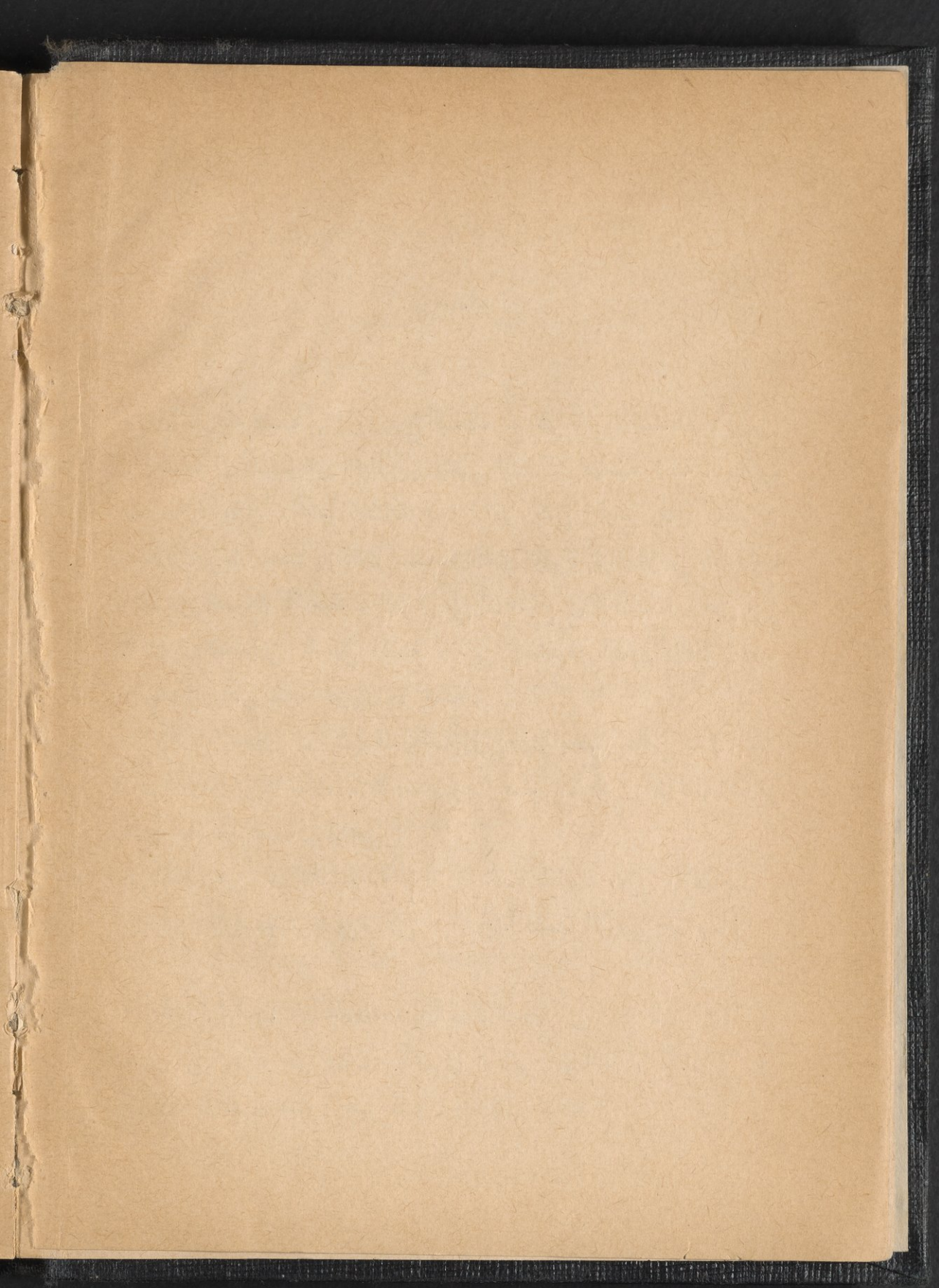
هذه رحلة قمت بها إلى ربوع لبنان، مع نفر من الأصدقاء ، يسرني أن أهديها إلى المغتربين اللبنانيين ومحبي لبنان ، بمناسبة السنة السياحية للمغتربين . وقبل أن أبدأ الكتابة عنها نزولاً على إلحاح رفاق السفر ، وإشفافاً على ما أتحدثنا به ذلك الصحافي الذي تكرم بمرافقتنا من معلومات شائقة من الضياع ، عقدت العزم على أن أنهج في الكتابة فيها على نهج الأسلوب القصصي السهل الممتع ، كي يستسيغه القارئ فلا يملّه ، ويعب من فيض ينبوعه فيرتوى ولا يمجّه .

والأمل يحدوني أن أكون قد وفقت إلى إظهار بعض محاسن ذلك الجبل الأشم ، الذي هو بلا شك بمنزلة وسام يزين صدر الأرض . كما قال الشاعر الكبير مصطفى صادق الرافعي :

لبنان فنٌّ في الطبيعة قائم	دقت محاسنه على الأفهام
جبل إذا وصفوا الرواسي لم يكن	أبدلاً لصدر الأرض غير وسام

* * *

وأخيراً لم أجده اسماً أجعله عنواناً لهذه الرحلة إلى بقاع لبنان الفاتنة ، أنسب من اسم « سحر لبنان » لأن في السحر ألواناً من الجمال ، ترقى بالإنسان فترهف حسه ، وتهز قلبه ، وتحرك مشاعره .



مقدمة

فى نادى لبنان بالقاهرة

كنا ثلاثة أشخاص ، لم تكن بيننا سابقة معرفة ، ولكن جمعت بيننا حفلة شائقة ، من تلك الحفلات اللبنانية التى يقيمها نادى لبنان فى القاهرة ، فى كثير من المناسبات ، يدعو إليها أصدقاء لبنان . ولما استقر بنا المقام ، أخذنا نظرق شتى الأحاديث ، حتى تم التعارف بيننا . فالآنسة طالبة فى كلية الآداب ، والشاب دكتور فى العلوم الطبيعية وعلم طبقات الأرض ، وكلا الاثنين ، سمعا عن لبنان ، ولكنهما لم يرياها مرأى العين . وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث ، لفت نظر الآنسة الطالبة ، صورة جميلة ، موضوعة فى إطار أنيق ، معلقة فى صدر البهو الذى كنا فيه ، فأخذت تحديق النظر فيها ، وتأملها بعين الفنان ، فلاحظت عليها ذلك وقلت لها :

— أظن الآنسة قد أعجبت بشجرة الأرز ؟

فأجابت : أبهذا الجمال والروعة شجر الأرز ؟

— قلت ، أجل يا آنسة ، وهو أشد روعة إذا رأيته فى موطنه .

رأيتَ الفرصة مواتية ، لأتحدث عن لبنان ، وجمال الطبيعة فى لبنان ، ومناظره الفاتنة ، التى لا تملها العين ، فى انتظار بدء الحفلة ،

فكان جميع الذين حولي ، ينصتون إلى حديثي ، وقد هزتهم نشوة من السرور ، لذكر لبنان الحبيب ، في بقعة لبنانية ، في دار غربة عزيزة على لبنان .

— قالت الآنسة : وماذا يوجد في لبنان غير الأرز ؟

— قلت هناك أشياء كثيرة جديرة بالمشاهدة . أذكر في هذه المناسبة ، أن خالتي لأمي — رحمهما الله — كانت تجمعني وإخوتي الصغار ، حول موقد النار ، في ليالي الشتاء الباردة ، في قرينتنا الهادئة الوادعة ، التي تشرف على الوادي ، وتقص علينا على قصص الرعد ، ولمع البرق ، وهطول الأمطار ، قصصاً شائعة عن لبنان وأرزه الخالد ، وجبيل وآثارها العجيبة ، وبعلبك وقلعتها الجبارة ، وبيت الدين وقصرها المنيف الذي شيده الأمير بشير الشهابي الكبير ، وقاديشا ومغارها الفاتنة ، وصوامع النساك المنقورة في الجبال ، والصخور المطلة على الوديان العميقة ، وفاريا وجسرهما الحجري الطبيعي المعلق ، ومغارة جمعيتا التي تمتد تحت الجبال ولا تعرف لها نهاية ، والغابات الكثيفة التي كانت تزين كل بقعة من بقاع لبنان ، وما كان يقترن بها من قصص البطولة والحوادث الجسام ، ونهر الكلب واسطورته الغريبة ، وأدونيس وخنزيره البري^(١) ، وسوى ذلك من القصص والأساطير الغريبة ، التي كانت تملك علينا مشاعرنا ، وتبعث فينا الشوق إلى المزيد منها ، وتنمو ذكرياتها في نفوسنا بنمو أجسامنا إلى أن فرغت جعبة الحالة من الحكايات عن لبنان ، فراحت تحدثنا عن خاتم

(١) أساطير فينيقية تحت الطبع للمؤلف .

سيدنا سليمان العجيب ، وبساط الريح الغريب ، وكيف كان الجن
يتنقل به من مكان إلى مكان ، بين طرفة عين وانتباهتها .

كانت مخيلتنا الساذجة تصور لنا إذ ذاك ، أن بساط الريح حلم من
الأحلام ، لن تحققه الأيام ، غير أن ما كان بالأمس حلمًا ، أصبح
اليوم حقيقة واقعة .

— قالت الآنسة : أفي لبنان كل هذا الجمال ، ونحن منه على قيد
ساعتين من الزمان ولا نراه ؟ فما رأيك ، لو شددنا الرحال في هذا الصيف
إلى ربوع لبنان الجميلة ، وأنت برفقتنا ؟

— قلت : الرأي ما ارتأيت يا آنسة ، ولكن هناك عقبات .

— قالت : نذلها .

— قلت : حسناً .

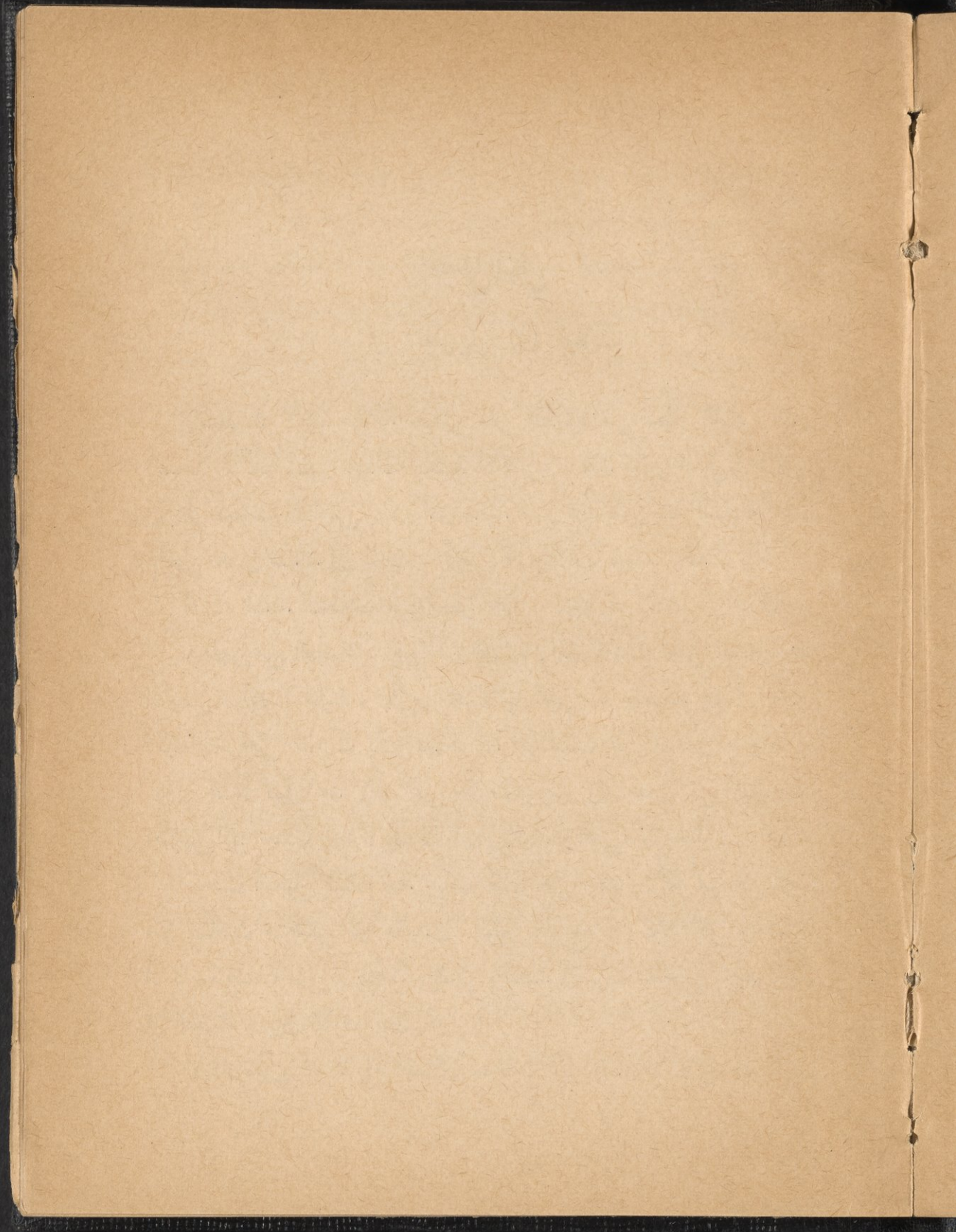
وفي اليوم التالي ، كنا نحن الثلاثة في قلم الجوازات ، وبعد أسبوع
اجتمعنا في مطار القاهرة الدولي ، الذي يعد من أكبر مطارات العالم
وافخمها ، بحسن تنسيقه ، وسعة ساحته ، وبديع نظامه ، ودقة العمل فيه
وظُرف موظفيه وحسن استقبالهم للمسافرين .

القاهرة في يناير سنة ١٩٥٥

ميسيل سليم عيسى



لبنان : هذا الاسم الحبيب محفور في قلب كل لبناني مغترب



الفصل الأول

في الطريق إلى لبنان

امتطيت لأول مرة في حياتي متن الطائرة من مطار القاهرة الدولي بصحبة الأنسة سلوى الطالبة بكلية الآداب ، والدكتور خليل ، دكتور في علم طبقات الأرض ، وولدي سعيد الذي لم تتجاوز سنه السابعة ، وفي داخلي حنين شديد إلى لبنان ، أرض الأحلام ، ومرتع الجمال والخيال . كنت شديد التخوف من السفر جواً ، تمشياً مع القائل إن الأرض أثبت ظهراً من الفضاء ، غير أن الطائرة . ما كادت تعلن انعتاقها عن الأرض الرابضة عليها ، بأزيز محركاتها القوية ، وتصعد بنا في أجواز الفضاء ، حتى شعرت بأن غمامة قد انكشفت عن صدري ، وكابوساً كان جاثماً فوقى قد زال عني ، فتحررت إلى حين من قيود هذه الأرض التي جئت إليها ، وأنا لا أرى لي في هذا الحجى ولا خيار .

رحت أتخيلُ لبنان بعد غياب طال حتى تجاوز ربع قرن من الزمان وأنا صامت منكمش في مقعدي الوثير المريح ، وكان كل واحد من الركاب صامتاً مثلي ، يتأمل ويفكر ويتعبد في برجه العاجي ، وهو معلق في الفضاء ، بين الأرض والسماء .

وكان بين المسافرين طفلان مرحان غير ولدي ، لا يتجاوز سن

أكبرهما عشرة أعوام ، قد أبى الثلاثة إلا أن يعاونوا مضييفة الطائرة في مهمتها التي تقوم على خدمة المسافرين ، وتوفير أسباب الراحة لهم .
 وكانت هذه المضييفة - وهي آية في الجمال واعتدال القدر ورشاقة القوام ، شأنها شأن جميع المضيفات الأخريات اللواتي أسعدني الحظ ووقع عليهن نظري - صبوحة الوجه ، طلقة الحيا ، يفتر ثغرها عن ابتسامة حلوة ، طبعها الأمل الباسم عليه ، كانت توجهها من حين إلى حين ، إلى كل واحد من المسافرين ، حتى قطعنا المرحلة بين القاهرة ولبنان ، في أقل من ساعتين ، ونحن في الفضاء معلقون ، لم نشعر بما يشعر به المسافرون ، لولا أزيز محركات الطائرة .

مطار بيروت الدولي

أشرفت الساعة على الحادية عشرة عند ما بدت لنا جبال لبنان ، يتوج الثلج قممها العالية ، فإذا هي أشبه شيء بخط أبيض ، قد رصعته خضرة أشجار الغابات الكثيفة ، يتدرج في الارتفاع ، حتى يخيل إلى الناظر أنه يتصل بزرقة السماء ، ثم ما لبثنا أن أطلت علينا مدينة بيروت الجميلة عروس لبنان ودرة الشرق ، وقد امتد لسانها في البحر يعب الماء منه عباً ، دون أن يرتوى طيلة هذه الدهور التي مرت به .
 أخذتنا لرؤية هذا المنظر الفاتن ، نشوة من السرور ملكت علينا مشاعرنا ، وهيمنت شدة جماله على جميع جوارحنا ، وما هي إلا دقائق

معدودات ، حتى أخذت الطائرة تهبط بنا في مطار خلده الشهير ، الذي تبلغ مساحته بجميع ملحقاته ما يقرب من ثلاثة ملايين متر مربع ، ويبعد عن بيروت بمقدار عشرة كيلو مترات ، وقد استبدلت الحكومة اللبنانية باسمه اسم « مطار بيروت الدولي » لأهميته العالمية ، وللدور الهام الذي يلعبه في محيط المواصلات الدولية .

وقد وصف هذا المطار كبار رجالات الطيران العالميين بقولهم عنه : إنه فخر مطارات الشرق العربي ، ومن أكبرها مساحة ، وأعظمها استعداداً ، يدير شؤونه نخبة من أصحاب العقول الجبارة ، الذين يضربون بسهم وافر في شؤون الطيران ، وهذا يزيد في مكانته العالمية ، ويشجع أكبر شركات الطيران على الإقبال عليه ، واتخاذها محطاً لمرور طائراتها فيه .

ولا شك في أن هذا المطار ، هو عامل من العوامل الهامة التي تدعو إلى تقدم لبنان من جميع النواحي الاقتصادية والمالية والسياسية والاجتماعية ، لوجوده في بقعة من الأرض في الشرق ، ما فتئت منذ أقدم العصور حلقة اتصال تربطها بأوروبا وبالشرقين الأوسط والأدنى ، فهو يستقبل في ساحاته الرحبة طائرة كل خمس دقائق تقريباً .

ويحتوى هذا المطار على مدرجين كبيرين ، وساحة رحبة واسعة ، تقرب مساحتها من ثلاثة وثلاثين ألف متر مربع .

وقد شرعت السلطات اللبنانية في بناء هذا المطار عقب الحرب الكبرى الثانية ، على سهل خصيب يمتد حتى شاطئ البحر ، كان يسقى في الماضي بواسطة السواقي والنواعير ، وقد افتتحت الحكومة رسمياً سنة ١٩٥٠ .

حنين مغترب إلى لبنان

كان معنا في الطائرة شيخ أحنت ظهره الأيام ، يبدو كأنه جاوز السبعين من عمره ، بيد أنه لم يبلغ الستين ، وقد لاحظت عليه طيلة الرحلة من القاهرة إلى لبنان ، أنه داعم العين ، قلق البال ، لا يستقر في جلسته على حال ، وكانت كل حركة من حركاته ، تدل على أنه يتعجل الوقت ويستبطن سرعة الطائرة ، وكانت تسابق الريح في اندفاعها في طبقات الجو العالية ، وما كادت تحط رحالها على أرض المطار ، حتى كان شيخنا أول من غادرها ، فوقف في مكانه وهو مأخوذ بجماله ، وسعته ونظام العمل فيه ، وسماعه لأول مرة بعد قرابة ثلاثين عاماً لهجة أبناء لبنان ، فجثا على الأرض على مرأى من الناس ، وبعد أن قبل ترابها ثلاثاً ، انتصب على قدميه برشاقة ولسان حاله يقول :

« أطلق يا رب عبدك ، فإن عينيّ قد اكتحلنا بمراى لبنان »

دفعني فضولى إلى التقرب من هذا الشيخ والتودد إليه ، وسؤاله عن أمره وما عساه أن يكون ، فانتحى بي ناحية وقال :

— تركت لبنان يا ولدى وأنا في مستهل شبابي ، وشدت رحالى إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع نفر من شبان ضيعتنا منذ ثلاثين سنة تقريباً بعد أن رهنـت كرم العنب ، وجلول التوت ، والبيت الذى بجوار العين ،

وهذا كل ما خلفه لى الآباء والأجداد ، لأجمع أجرة السفر .

ولما وطئت قدماى أرض الذهب ، انغمست فى التجارة ، فأصبْتُ منها بمرور الأيام ثروة طائلة . وأنت تعلم يا ولدى أن اللبنانيّ مهما يشط به المزار ، أو تنأ به الدار يظل دائماً الحنين إلى لبنان ، وإلى ينابيعه العذبة الباردة التى روته صغيراً ، ودروب قريته الوعرة التى دب وشب عليها ، وأشجار الغابة المحيطة بها . وكثيراً ما كان يتفياً ظلها

فأنا يا ولدى لم أشد عن هذا الميل ، فقد عاودنى الحنين إلى لبنان لرؤية من تبقى لى من الأهل والحلان ، والتمتع بجو ضيعتى التى نشأت فيها ، وكنت قبل مغادرتى لها ، وأنا فى فجر الشباب ، وربيع الحياة ، أشغل إسكافياً بعض الوقت من سحابة النهار ، كما كنت أعلم أطفال القرية مبادئ القراءة والكتابة تحت سنديانة الكنيسة الوارفة الظل ، وشجرة السرو التى تناطح السحاب فى علوها بعض الوقت الآخر .

وإنى اليوم قد اشتقت إلى لبنان فعدت إليه ، بعد أن مررت بالقاهرة حيث زرت بعض الأهل ، لأموت فيه وأكفن بثلجه الأبيض .

كان شيخنا وهو يحدثنى عن حنينه إلى لبنان ، ونحن فى عزلة عن الناس ، يترقق دمع الفرح فى عينيه ، لأن الله مدّ فى أجله ، حتى عاد إلى وطنه قرير العين ، مطمئن البال .

ألحّ على شيخنا الجليل فى النهاية أن أزوره فى قريته الواقعة فى جرود لبنان ، فوعده بذلك ، ثم ودعته ودعوت له بطول العمر ، وطيب الإقامة فى ربوع ضيعته الفاتنة .

في جمرک بیروت

دخلنا بعدئذ دائرة الجمرک ، فاستقبلنا موظفوه بوجوه باشّة ، وثغور مشرقة باسمّة ، وكانت معاملتهم لجميع المسافرين على ما رأينا وسمعنا ، غاية ما تكون من الأدب والظرف واللفظ ، تلك صفات متأصلة في نفوس اللبنانيين ، اكتسبوها من جمال بلادهم ، وسحر مناظر جبالهم ، فلا إجراءات صحیة معقدة ، ولا صعوبات جمرکیة مرهقة ، بل كان كل شيء يسير في جمرک بیروت في يسر وبساطة ، لاعتبار لبنان بلداً مفتوحة أبوابه لكل قادم .

مدخل بیروت من المطار

تركنا المطار وامتطينا سيارة أجرة دلفت بنا في مدخل بیروت الجنوبي ، وهو طريق متسع عرضه أربعون متراً ، وينقسم إلى قسمين ، أحدهما للذهاب ، والآخر للإياب ، يتخللهما في بعض المواضع مآوى منسقة تنسيقاً بديعاً ، غرست في وسطها الأشجار والأزهار ، إلى أن وصلنا إلى حرش الصنوبر القديم الذي يرجع عهده إلى ما قبل القرن الثالث عشر ،

وقد جدد الأمير فخر الدين المعنّى الشهير غرس بعض أشجاره منذ ثلاثمائة سنة تقريباً ، فاخترقته السيارة في وسطه ، وكانت شمس الصباح تغمره بفيض من النور لا يقوى على التسلل من بين أغصان أشجاره الكثيفة ، ولا تقتصر فائدة مدخل بيروت الجنوبي على وصلها بمطارها الحديث فحسب ، وإنما تتعداها إلى ما هو أبعد من ذلك ، إذ قد ساعد شق هذا الطريق على اتساع نطاق رقعة العمران ، وامتدادها إلى ضواحي بيروت المكتظة بالسكان ، كما شجع على إنشاء الحمامات البديعة على الشاطئ الجميل ، ليؤمها سكان بيروت في أيام الحر الشديد ، للترويح عن النفس لأن هذه الحمامات والمتنزهات التي في الضواحي ، هي المتنفس الوحيد لمدينة بيروت ، تستوعب عدداً من السكان يفوق طاقتها ، إذا قيس هذا بمساحتها .

الفصل الثاني

بيروت الفينيقية

وصلنا إلى مدينة بيروت القديمة قدم الإنسان ، وهى قائمة على بقعة صخرية تتدرج فى الارتفاع حتى تتصل بجبال لبنان ، لها لسان يمتد إلى ما يقرب من تسعة كيلو مترات فى البحر الأبيض المتوسط منذ آلاف السنين فتغسل مياهه أطرافه .

ويرجح العلماء أن بيروت بنيت بعد الطوفان ، وأخذت اسمها من غابات شجر السرو التى كانت تحيط بها فى الماضى وتكسو رباهها ، وترصع بلونها اللازوردى ذرى لبنان .

واسم هذه الأشجار باللغة الفينيقية « براتى » ، وكانت مكرسة للمعبودة عشتروت إلهة الجمال ، وما فتئ هذا الشجر الشامخ الارتفاع ، يشاهد حتى يومنا هذا فى بعض أنحاء مدينة بيروت أمام بعض المعابد والمدافن ، وهو دائم الاخضرار ، أغصانه ملتفة التفافاً مستديراً متلاصقاً ، ويعلو إلى أكثر من عشرين متراً ، ويرمز به إلى الخلود .

كانت بيروت فى عهد الفينيقيين مدينة زاهية زاهرة نامية ، وكان لها شأن عظيم فى العلوم والفنون والآداب والتجارة والصناعة بحكم موقعها الجغرافى . فكانت مراكزهم المصنوعة من خشب الأرز ، تجوب البحار

البعيدة ، وترتاد الأصقاع النائية ، فوصلوا بها إلى بلاد الهند المترامية الأطراف وأقاموا على شواطئها ، وتوغلوا في داخلها حتى اقتربوا من جبال هماليا فتسلقوها ، ونزلوا منها إلى بلاد الصين الواسعة الرقعة فاختلطوا بأهلها ولما أغراهم حب الكسب ، تاجروا بخيراتها الوفيرة ، ونقلوا على سفنهم محصولاتها ، لأن الفينيقيين كانوا بحارة حاذقين ، وتجاراً ماهرين بارعين ، وأصحاب عقول جبارة جعلتهم بحق أسياد البحار في العهد القديم .

بيروت في عهد اليونان والرومان

واكتسبت بيروت في عهد اليونان والرومان شهرة واسعة ، حتى إن جوليا ، ابنة يوليوس قيصر الإمبراطور الروماني العظيم ، لما فتنها جمال بيروت ، أطلقت اسمها عليها « جوليا السعيدة » كما أقامت على ساحلها الحافل بآيات الجمال ، الحمامات الرائعة ، والملاعب الرومانية الفاتنة ، وكانت مدرسة الفقه التي أسسها الإمبراطور إسكندر سيفير سنة ٢٢٢ ميلادية تفوق بأهميتها مدارس الحقوق في القسطنطينية والإسكندرية وأثينا ، كما كانت تضارع في مقدرة أساتذتها وبراعتهم في علم الفقه ، مدرسة روما العظيمة . ولما تربع الإمبراطور يوستنيان على عرش القسطنطينية ، رغب في تهذيب الشرائع والقوانين الرومانية وتنظيمها ، فاختر نخبة من فطاحل رجال القانون في ذلك العهد ، ليقوموا بهذا العمل الجليل الخطير الشأن ، وكان بين هؤلاء العلماء الأعلام ، ثلاثة من كبار أساتذة مدرسة الفقه في

بيروت وهم : اود كسيوس واناطوليس ودوروثاوس ، فأنجزوا في وقت وجيز تلك المهمة الشاقة التي أنيطت بهم ، وذلك العمل الجليل الهام الذي أسند إليهم ، وما فتئ هذا التهذيب في القوانين ينسب حتى يومنا هذا إلى هذا الإمبراطور العظيم .

شاعر يتغنى بجمال بيروت

وقد تغنى الشاعر الرومانى نونوس دى باتوباس بجمال بيروت ، وأشاد بعظمة معبدها الزاهر الذى طبق ذكره الآفاق ، وأطنب فى وصف أخراجها الجميلة التى كانت تحيط بها إحاطة السوار بمعصم الحساء ، وبساتينها الياقة التى كانت مياه لبنان الهابطة من أعالي الجبال ترويه فقال : هناك مدينة تشرف على البحر ، كالجزيرة الجميلة المتوجة بالحضرة ، اسمها بيرويه

هى منبع الحياة ، هى موطن الحب
تنشر أمام لبنان ، تحت مرتفعاته ذات الأحراج ، فتقيها الاحتراق
هناك تدرك المرء نسائم معطرة محمية ، بين أشجار السرو ، الذى يئن
فى مهب الرياح ، ويرتجف من هبوب العواصف
بيرويه هى نقطة ابتداء الحياة

هى الأم مغذية المدائن ، هى موضع اعتزاز الأمراء والنبلاء
هى بلد الحواضر ، أخت العصور ، قديمة قدم الكون



جانب من بيروت عاصمة لبنان

هي مهد آلهة العدل ، موطن الفقه ، مدينة الحكمة ، مرضعة الحياة
 بيروته هي مقام هرمس ، مرتع اللذات ، مسكن أفروديت
 كرومها تكسو رباها بثوب سندس ، وتعصر من ثمارها خمر الإله
 « باخوس »

بيرويه هي مركز السرو ، هي نجم لبنان .
 إن هذا الوصف البديع ، الذي نسج برده الشاعر الروماني في جمال
 بيروت ، وما خلع على البقاع الساحرة الفاتنة التي تحيط بها من صور
 الجمال المتعددة الأشكال والألوان ، يعطي فكرة رائعة عن بيروت

الخالدة ، التي كانت بجانب هذه العظمة الثقافية ، فحاً تتصيد فيه النفوس
البارة لكثرة ما أقيم فيها من هياكل للأصنام ، نحتمها يد الإنسان ، فكانت
ترتكب فيها جميع الموبقات ، لأن القائمين على خدمتها كانوا يقدسون
النزوات البهيمية ، ويحضون على السير وراء الشهوات والملاذة البشرية ،
ويؤطون جميع المنكرات ، ويوحون إلى عبادة المحرمات .

معبد بعل في بيت مري

وقد كان لمعبد بعل بجوار بيت مري المصيف الجميل ، الذي يبعد عن
بيروت بمقدار ١٧ كيلو متراً ، حيث يقوم على أنقاضه اليوم دير القلعة
لرهبان الموارنة ، شهرة واسعة ، فكان أهالي بيروت وما جاورها ، يحجون
إليه كل عام في فصل الصيف ، فيتخذون من موسم وأعياده سبيلاً للهوهم ،
ومجالاً لقضاء شهواتهم ، يرقصون ويطربون ، وينشدون الأناشيد الخليعة
في أحضان الطبيعة ، فوق الرابي والقنن ، وفي وسط الغابات الكثيفة ذات
السحر والبهجة والجمال

حرب بيروت

غير أن العناية الإلهية شاعت أن تنتقم من بيروت ومن فجور الساكنين
فيها ، وتفعل بها كما فعلت بصادوم وعامورة من قبل ، فأصابها بزلزالين

شديدين دكا مبانيها دكاً ، وقووضاً أركان هياكل آلهتها الكاذبة ، وقد كان الوثنيون يجاهرون فيها بعبادة عشتروت إلهة الجمال ، وباخوس إله الخمر ، وغيرهما ، فباتت قاعاً صفصفاً ينعق البوم فوق أطلالها الدارسة ، وقد قدر المؤرخون عدد الذين ذاقوا كأس المنون بسبب هذين الزلازين بعشرات الألوف ، كان بينهم نخبة من زهرة الشبان الذين وفدوا إليها من جميع الأقطار المجاورة ، لاغتراف العلم من منهل معبدها ، وقد كان تاجاً على مفرقتها ، تباهى به أعظم معاهد العلم في العهد القديم .

وما كادت بيروت تستيقظ من رقدتها ، وتفيق من سباتها العميق ، وتعود إلى صوابها من هول هاتين النكبتين المريعتين ، وتحاول أن تقف على قدميها الهزيلتين ، حتى رماها إله النار ، ورب الخراب والدمار بحريق مروع ، أحالها إلى كومة من الرماد ، كان فيه ختامها المؤلم .

بقيت بيروت تئن وتتوجع من هاتين الضربتتين ، حتى عهد الصليبيين الذين وفدوا إليها ، وضربوا بجيوشهم الحرارة نطاقهم حولها ما يقرب من ثلاثة أشهر ، إلى أن استولوا عليها ، وضموها إلى مملكة أورشليم التي أسسوها في فلسطين ، فاستعادت بعض مكانتها ، وعلا شأنها ، ولمع في أفق المجد نجمها ، ولا سيما في عهد الأمير فخر الدين المعنى الكبير ، الذي نهج في سياسته على منوال الصليبيين ، غير أنه بعد انهيار مملكة هؤلاء الأخيرين ، وزوال نفوذهم من الشرق ومن لبنان ، وأفول نجم الأمير فخر الدين ، وقعت بيروت وما يجاورها فريسة للحروب الأهلية الدامية ، والمنازعات الشخصية ، نتيجة الدسائس التي كان يحكيها الولاة الذين تعاقبوا على

حكم لبنان ، من عرب وترك ومماليك ، ولم ينقذها من ورطتها ، ويعيد
مقاليد الحكم فيها إلى أيدي أبنائها ، سوى الحرب الكبرى الأولى ١٩١٤ -
١٩١٨ على أثر انهيار الإمبراطورية العثمانية وأفول شمس مجدها ،
وبغروب شمس تلك الإمبراطورية الهزيلة ، أشرقت شمس لبنان الساطعة
وعادت بيروت مرة أخرى عاصمة لجمهوريتها الفتية .
تلك هي نبذة يسيرة عن تاريخ هذه المدينة الشهيرة ، التي لعبت دوراً
هاماً في تاريخ البشرية .

الفصل الثالث

بيروت اليوم

مكثنا في بيروت ثلاثة أيام ، تجولنا في شتى أنحائها ، فزرنا معالمها ، وكثيراً من منشآتها فرأينا أن كل شيء فيها قد تغير وتبدل .

عرفت بيروت من ربيع قرن من الزمان ضيقة الأزقة ، قدرة الشوارع ، مبانيها قديمة متداعية لا انسجام فيها ولا نظام ، وكانت القوضى في كل شيء ضاربة أطناها فيها ، غير أن يد التجميل قد امتدت اليوم إلى كثير من أحيائها ، بفضل شبكة الطرق الحديثة التي شقت فيها حتى شملتها كلها ، وتعدتها إلى سواها من المدن الكبرى وقرى الاصطياف الهامة ، فأصبحت حركة المواصلات فيها سهلة هينة بفضل وجود السيارات الفخمة المريحة ، إلى جانب الترام الذي يمد له طريقاً إلى جميع أحيائها ، كما أقيمت فيها العمارات الشاهقة على الطراز الحديث ، وأكثرها مؤلف من ستة أو سبعة أدوار ، تصلها بعضها ببعض مصاعد كهربائية .

أما الحداثات العامة التي تعتبر المتنفس الوحيد لمدينة بيروت مكتظة بالسكان ، فإنها تكاد تكون في حكم العدم ، ولذلك يكتفى الفقراء منهم بالذهاب إلى شاطئ البحر حيث الحمامات البحرية منتشرة ومجهزة بجميع

وسائل الراحة ، أو بالتنزه في شارع الكورنيش الذى يمتد على شاطئ البحر وقد تم إنشاؤه أخيراً ، وأقيمت فيه المقاهى والمطاعم ودور اللهو ، أو بالتنزه في طريق المطار حيث غابة الصنوبر الشهيرة . أما الأغنياء ، فينتقلون إلى ضواحي مدينتهم مثل عالية وبيت مرى وبرمانا وغيرها من المصايف القريبة لاستنشاق الهواء النقي ، والترويح عن النفس .

وينظم حركة المرور في شوارع بيروت ، شرطة هم مثال رائع في نظافة الهندام ، وأدب اللسان ، لا يتردد الواحد منهم عن إجابة السائل الغريب إلى كل ما يريد دون تأفف أو امتعاض .

ومع أن بيروت اليوم هى مدينة تجارية هامة ، تحمل البواخر والسفن الكبيرة إلى مرفئها الحديث آلاف الأطنان من البضائع المختلفة ، فهى حاضرة الجمهورية اللبنانية الفتية ، ومقر رئيس جمهوريتها ، ومركز حكومتها ، ويقع فيها أعضاء رجال السلك السياسى والقنصلى في دور فخمة ، تحيط بها الحدائق الغناء .

دار الآثار اللبنانية

كانت الآثار اللبنانية إلى ثلاثين سنة خلت نهياً لمن يجدها ، ولما أنشئت دار الآثار سنة ١٩٢٠ أولتها الحكومة عنايتها ، فنقلت إليها ما عثر عليه المنقبون من آثار في المناطق ذات الشهرة الأثرية .

قصدنا إلى هذه الدار ، وقد ارتسمت في مخيلتنا صور شتى عن عظمة

الفينيقيين ، وما تركوه من آثار خالدة ، هي ذخيرة مجد لقوم حملوا مشعل الحضارة خلال العصور الغابرة ، ونقلوها إلى بلدان العالم القديم ، بعد أن كانت سرّاً مكتوماً في طيات العصور ، وأول ما استرعى نظرنا في هذه الدار من الخارج ، واجهتها الفخمة بأعمدتها الجبارة ، التي يرجع تاريخها إلى العهد الروماني ، ففكرتنا رؤيتها بعظمة الهيكل الأثرية التي شاهدناها في مصر . وتضم هذه الدار التي تقع عند ملتقى شارع فؤاد الأول وطريق الشام بين أروقها ، جميع الآثار التي اكتشفت في جبيل ، وبعلبك ، وصور وصيدا والبترون ، وسواها من المدن ذات الأهمية التاريخية والشهرة الأثرية ، وقد رتبت فيها ترتيباً حسناً ، ونسقت تنسيقاً بديعاً ، يدل في الحقيقة على ذوق القائمين بأمر هذا المتحف الناشئ ، وسعة أفق درايتهم بالشؤون الأثرية على قرب عهدهم به . وبينما نحن نتجول في أروقة الطابق الأسفل من المتحف ، شاهدنا ناووس الملك حيرام ، الذي اكتشف قبره سنة ١٩٢٤ العالم الأثرى الفرنسي بيير مونتيه ، وقد نقش عليه أقدم كتابة أبجدية عرفها العالم ، ألا وهي الأبجدية الفينيقية ، التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، فمن هذه الأبجدية قد اشتقت جميع أبجديات العالم الحديثة ، وكان لفينيقياً قصب السبق في نشر الحروف الأبجدية في العالم منذ فجر تاريخ الثقافة البشرية . قال الكاتب الفرنسي جورج بيرو في هذا الصدد ما يأتي :

« إذا حق لشخص أن تقام له التماثيل من البرنز والمرمر ، فليس لجوتنبرج الألماني الذي ساعد على نشر العلوم باكتشافه الطباعة ، وإنما لذلك الفينيقي الأول ، الذي جمع الكتابة في حروف قلائل تعبر عن نبرات الصوت » .

انتقلنا بعدئذ إلى مكان آخر من المتحف ، فرأينا فيه تصميمًا مصغرًا لقلعة بعلبك من صنع الفنان الكبير المرحوم جان الدبس قائمة فيه بهياكلها الجبارة ، تعطى كل من يشاهدها فكرة واضحة عما كانت عليه تلك الهياكل في العهد القديم من روعة في الفن ، لمسناها عند ما ذهبنا إلى بعلبك ، ورأينا على الطبيعة أطلال تلك القلعة التاريخية الخالدة التي ألبسها الرومان أجمل رداء من عبقرية فهم الرفيع الذي يتناول على الدهور وأبلى الأيام وما بلى فهم الخالد . وقد شاهدنا في صالة المحادثات في رواق هيجيا تماثيل بين صغيرة وكبيرة هي آية في روعة الفن .

حقاً إن تلك المدة البسيطة التي قضيناها في متحف بيروت الحديث العهد ، وسط آثار الفينيقيين العظام ، أعطتنا فكرة عن عظمة أولئك القوم ، وما كانوا عليه من علم وأدب وفن . وما فتىء معول الحفار ، يخرج من الظلمة إلى النور كنوزهم الدفينة ، وآثارهم الثمينة ، وكلها تنطق بعظمتهم ، وتدل دلالة واضحة على مدنيّتهم التي اندثرت وعفا عليها الزمان .

الجامعة الأمريكية ومتحفها

ويقوم بجانب المتحف الوطني ، متحف آخر في الجامعة الأمريكية التي تقع في شارع بلس في أول رأس بيروت ، ويرجع تاريخ إنشاء هذا المتحف إلى سنة ١٨٦٨ ، أي بعد أربع سنوات على تأسيس الجامعة

الأمريكية ذاتها ، فذهبنا لزيارته ، فراعنا ما رأينا فيه من الآثار القديمة من فينيقية ويونانية ورومانية ، وقد جمعت من شتى أنحاء لبنان ، بفضل نشاط أساتذة هذه الجامعة من أمريكيين وشرقيين واجتهادهم ، قبل أن يكون للبنان متحف خاص به يضم بين جدرانه شتات آثاره التي أبقت عليها الأيام . وللجامعة الأمريكية فضل ثقافي كبير على الشرق العربي ، فيتقاطر إليها طلاب العلم من جميع الأقطار الشرقية للدراسة فيها ، بعد ما اتسعت مبانيها ، وتتألف اليوم من معاهد للطب والصيدلة والترخيص والهندسة والتجارة والموسيقى ، هذا إلى جانب كليتي الآداب والعلوم . وتطل جميع هذه المعاهد على البحر تحيط بها حديقة واسعة منسقة ، تزينها الأشجار الباسقة والرياحين النظرة .

دار الكتب اللبنانية

عدنا قبيل الظهر من زيارتنا للجامعة الأمريكية ، إلى دار الكتب اللبنانية التابعة لوزارة التربية الوطنية ، وتقع في مبنى مجلس النواب الفخم ، الكائن في ساحة النجمة . انشئت هذه الدار في سنة ١٩٢١ بفضل المؤرخ اللبناني الكبير ، والكاتب الشهير فيليب دي طرازي ، وقد أخبرنا أحد أمنائها ، بأنها تحتوى اليوم على ما يقرب من خمسين ألف مجلد في مختلف العلوم والفنون والآداب ، هذا عدا المخطوطات النفيسة ، والموسوعات القيمة والمستندات التاريخية ، والوثائق الهامة ، التي تمت بصلة وثيقة إلى شؤون

الشرق العربي ، حتى أصبحت هذه الدار اليوم على حداثة عهدها ،
المرجع العلمي الكبير ، لكثير من الكتاب والأدباء والعلماء والمفكرين الذين
يفدون إليها ، ويترددون عليها للبحث والاستقصاء ، ولاستخراج كنوزها
القلمية الدفينة ، والاغتراف من منهل محتوياتها العذب ، وقد زينت قاعاتها
الفسيحة بصور كثيرة لأعلام الرجال .

وقد نسقت الكتب في هذه الدار تنسيقاً فنياً ، يتمشى مع نظام
المكتبات الحديثة ، بحيث يسهل معه العثور على أى كتاب فى أى علم
أو فن من الفنون فى دقائق معدودات .

وقد أعجبنا من قاعة المحاضرات الفسيحة ، التى يحاضر على منبرها
كبار الكتاب والأدباء ورجال العلم ، من أجانب ووطنيين ، فى شتى
المناسبات .

المكتبة الشرقية فى كلية الآباء اليسوعيين

لم نشأ أن نغادر بيروت ونصعد إلى الجبل ، قبل أن نستكمل
مشاهداتنا فيها ، فتوجهنا إلى المكتبة الشرقية فى كلية القديس يوسف للآباء
اليسوعيين الأفاضل ، المكملة لدار الكتب اللبنانية ، وقد نقلت من غزير
مع انتقال مدرسة الآباء اليسوعيين إلى بيروت فى سنة ١٨٧٣ .

ولما عرف الأب المشرف على هذه المكتبة الثمينة غايتنا من الزيارة ،
تكرم بمرافقتنا ، وأخذ يشرح لنا كل كبيرة وصغيرة عنها ، ولم يفته فى

معرض الحديث ، أن يشيد بفضل الذين ساهموا في تأسيسها ، وقد خص بالذكر منهم العلامة المرحوم الأب لويس شيخو اليسوعي ، والمستشرق الشهير المرحوم الأب هنري لامنس ، فإليهما يرجع الفضل في إنماء هذه المكتبة التي نشأت صغيرة ، وأصبحت اليوم من أكبر وأحسن المكتبات الخاصة في العالم ، من حيث جمال رونقها ، وبديع هندستها ، وتنسيق الكتب المحفوظة فيها وتبلغ على ما قاله لنا الأب الفاضل ، نحو مائة ألف مجلد في مختلف العلوم والفنون والآداب .

وقد شاهدنا فيها أيضاً المخطوطات الثمينة النادرة ، محفوظة داخل خزائن محكمة القفل ، بعيدة عن متناول اليد خشية الإساءة إليها أو العبث بمحتوياتها

كلية القديس يوسف

تضم هذه الكلية اليوم بين جدرانها ، معاهد للطب والحقوق والهندسة والفلسفة واللاهوت وقد ساهمت في إخراج عدد كبير من رجال لبنان الذين يشار إليهم بالبنان .

ويقوم بجانب الجامعتين ، الأمريكية واليسوعية ، معاهد أخرى هامة مثل معهد الحكمة للموارنة ، وكلية المقاصد الإسلامية ، والكلية العاملة ، ومدارس الفرير ، وغيرها من المعاهد الأخرى المقصورة على تعليم اللغات التي تمت بصلة وثيقة للثقافة العامة .

المعهد اللبناني للفنون الجميلة

أنشئ هذا المعهد سنة ١٩٤٢ ، وهو أول مؤسسة وطنية في لبنان تعنى بشؤون التعليم العالي للفنون الجميلة . وتضم هذه المؤسسة إليها اليوم ، معاهد الموسيقى والنحت والتصوير وهندسة النجارة وغيرها ، وقد أخبرنا أحد الأساتذة ، بأن هذا المعهد كان في أول عهده موزعاً على بعض المدارس الوطنية لا تربط بعضها ببعض صلة ، ثم رأى المشرفون على شؤون التربية والتعليم ، ضم هذه المعاهد في معهد واحد ، أطلقوا عليه « الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة » .

المدرسة الفندقية

سمعنا في أثناء وجودنا في بيروت عن المدرسة الفندقية ، التي أنشأتها وزارة التربية الوطنية مساهمة منها في حقل الثقافة الفنية ، فتوجهنا لزيارتها ونحن نفكر في أمرها ، ولما وصلنا إليها قابلنا أحد أساتذتها مقابلة حسنة ، ورافقنا إلى مكتب سكرتيرة المدرسة وهي آنسة صبوحة الوجه ، طلبة المحيا ، حلوة الحديث ، بحيث ما كادت تلمس الغرض من زيارتنا ، حتى أشرق وجهها سروراً ، واسترسلت في الحديث معنا عن هذا المعهد فقالت : — إن المدرسة الفندقية ، التي أنشأتها وزارة التربية الوطنية في بيروت ،

هى الأولى من نوعها فى الشرق العربى ، وربما كانت المدرسة الرابعة فى العالم من هذا النوع .

وتشتمل برامج المدرسة على التعليم النظرى والعملى معاً ، وهى لا تقتصر على تعليم اللغات وأصول الطهى ، فحسب ، وإنما تتعداها إلى كل ما له صلة وثيقة بشؤون الفنادق وإدارتها من الناحيتين العملية والنظرية .

ثم إن الإقبال على هذه المدرسة الحديثة العهد فى ازدياد مستمر ، لأن بلداً كلبنان ، يعتمد فى موارده على السياحة والاصطياف ، فى تأسيس الحاجة إلى مثل هذه المدرسة .

ويقضى طلبة هذه المدرسة فى فصل الصيف مدة التمرين فى فنادق الجبل الكبرى بمراتب شهرية ، وجميع أساتذتها هم من اللبنانيين الذين درسوا هذا الضرب من التعليم فى أوروبا . ويمنح المعهد الطلبة الناجحين دبلوماً باسم الحكومة اللبنانية له مكانته ، كباقي الدبلومات الأخرى ، كما أنه يعطى حامله حق الأولوية فى الالتحاق بالأعمال الفندقية .

سكنت الآنسة برهة وأردفت ما تقدم :

إن المفوضيات والسفارات والفنادق الكبرى فى الدول العربية ، تقبل على توظيف متخرجى هذه المدرسة بمراتب مغرية ، ربما يحسدهم عليها حملة الدبلومات العالية الأخرى .

وبعد أن زودتنا الآنسة سكرتيرة المعهد بهذه المعلومات القيمة ، طفنا فى أرجائه ، فراعنا ما لمسناه من نظافة فى آنيته وأثاثه ، ومن النظام والترتيب فى كل شىء فيه .

وعلى الرغم من أن التعليم في لبنان ليس إجبارياً ، فإن نسبة المتعلمين فيه تبلغ اليوم ٩٠ في المائة تقريباً ، وما فتئت بيروت بما فيها من معاهد علمية وافرة ، تواصل رسالتها التقليدية في حقل الثقافة العامة ، كما أنها تحتل مركز القيادة الفكرية في هذه البقعة من الأرض ، بفضل إقبال اللبنانيين على هضم المؤلفات التي يخرجها الشرق العربي .

أسواق بيروت

رأينا في النهاية أن نجوس خلال أسواق بيروت ، القديمة منها والحديثة قبل القيام بأول رحلاتنا إلى الجبل ، لنرى مدى ما طرأ على تلك الأسواق من تغيير ، وما اعتراها من تبديل خلال ربع قرن من الزمان ، فسرنا على أقدامنا محترقين ساحة البرج التي هي قلب بيروت النابض ، وملتقى جميع الشوارع التي يتدفق منها إليها سيل السيارات الذي لا ينقطع ، ويطلقون عليها اليوم « ساحة الشهداء » لأن جمال باشا القائد التركي ، قد علق نخبة من رجال العرب الأحرار على أعواد المشانق ، التي رفعها لهم فيها في الحرب الكبرى الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ .

ولما بلغنا هذه الأسواق ، وجدنا أن بعضها ما فتىء على حاله ، كما عرفناه منذ ربع قرن من الزمان ، ممراته ضيقة ، وعطفاته قدرة مظلمة ، وأزقته متعرجة ملتوية متداخلة بعضها ببعض ، والخوانيت القائمة على الجانبيين مثل خلايا النحل متلاصقة ، وعامرة بالبضائع المتنوعة على صغر مساحتها

والناس في هذه الأسواق من الجنسين ، يروحون ويحيئون بدون نظام ، يلاطم بعضه بعضاً كأموال البحر من شدة الزحام .

أما سوق النورية ، القائمة بجوار سوق سرسق ، التي كدست فوق أرضيتها الضيقة أنواع الأقمشة ، فرأينا فيها عجباً ، فقد احتل الباعة كل ركن من أركانها ، حتى إن بعضهم لم يكفه الزحام ، فراح يعرض بضاعته في الطريق العام ، بدون ترتيب أو ذوق أو نظام ، وكانت أصوات الباعة المنبعثة من كل مكان تصك الأذان ، حتى كان يخيل إلينا أننا أمام برج بابل من تعدد اللهجات ، وتنوع المناداة ، بأساليب غريبة ، وطرق عجيبة ، للفت نظر رواد هذه الأسواق وإغرائهم على الشراء.

وقد صادفنا صعوبة بالغة ، في شق طريقنا وسط الكتل البشرية المتراسة في هذا السوق ، فلم نسلم من الصدام بمركبة من تلك المركبات التي تجر بالأيدي ، ولم نأمن من لطمة من لطمات سلال الحمالين ، ولأمن التصادم بجسم من أجسام الجنس الحشن أو الناعم ، وأخيراً سلمنا بأن العود أحمد إلى الفندق النازلين فيه ، وكان الوقت غروباً لنستريح مما قد لاقيناه من تعب ومشقة ، في التنقل في تلك الأسواق الأثرية ، التي تتركز فيها ثروة مدينة بيروت التجارية.

زيادة دور الصحف والمجلات

وفي اليوم التالي بعد أن قمنا بزيارة بعض دور الصحف والمجلات ، ومنها مجلة « الأديب » لصاحبها رفيق التلمذة الأستاذ البير أديب ، الذي

رحب بنا وأكرمنا ، توجهنا إلى إدارة مجلة « الدبور » لزيارة صاحبها رفيق الصبا الأستاذ الصديق ميشيل توفيق مكرزل . وأخيه الأستاذ فؤاد الخفيف الروح ، فقابلانا بما هو معهود عنهما من اللطف والظرف ، ورحبا بنا أجمل ترحيب ، وقد تشرفنا عندهما بمعرفة شخصية طريفة ، لطيفة المعشر ، حاضرة النكتة ، وهى ذلك الأديب الكريم ، الذى تفضل مشكوراً ، فصحبنا فى رحلتنا ، وأمدنا بمعلومات شائقة ، وقد أبى كرمه ألا يذكر اسمه فنزولا على إرادته ، أجدنى مكرهاً على ألا أذكر اسمه صريحاً ، وإن لم أستطع أن أخفى فضله ، أو أنسى ذكريات جميلة تركها فى نفسى ونفس زملائى ، وأن أعنى به « بالعم أبى طنوس » وهو الاسم الذى أطلقته مجلة « الدبور » اللبنانية على شخصية خيالية ، تتمثل فيها روح اللبناني ، كما تتمثل روح المصرى فى الشخصية الخيالية التى أطلق عليها اسم « المصرى أفندى » وكما يطلق على الإنجليزى « جون بول » والأمريكى « العم سام » . وقد آلينا على أنفسنا قبل القيام برحلاتنا إلى ربوع لبنان الجميلة ، أن نطلق للنفس سجيئتها ، وننتحرر من قيود الرسميات البالية التى تفقدها بهجتها ، وأن نعيش معيشة سهلة هينة ، لا كلفة فيها ، وأن نصف بإسهاب كل مشهد جميل تقع عليه العين ، ونستنطق كل أثر قديم عن ماضيه ، وما اقترن به من أحداث ، ونكتب عن كل ما يسترقه السمع .

الفصل الرابع

في الطريق إلى لبنان الشمالي

ركبنا سيارة كنا قد استأجرناها طول مدة الرحلة ، بعد أن ودعنا صديقنا الأستاذ مكرزل ، فاحتلت الأنسة سلوى مع ولدى سعيد المقعد الأمامي بجوار السائق ، أما نحن الثلاثة فجلسنا في المقعد الخلفي يتوسطنا العم أبو طنوس ، فسارت بنا السيارة ونحن صامتون نستمع إلى الأغاني اللبنانية من مدياعها ، وهي تقطع شوارع بيروت الضيقة بالقرب من الشاطئ ، في طريقها إلى الجبل .

وفي أثناء الطريق ، قطعت علينا سلوى صمتنا ، فالتفتت إلى السائق السادر في سكوته ، المنعزل في أفق تفكيره عن أمرنا ومن نكون ، وسألته والابتسامة على شفيتها :

— ما الاسم الكريم ؟

أجاب السائق مداعباً : إن اسمي على وجهك يا آنسة .

ففهمنا جميعاً ما يعنى ، وقلنا : مداعبة لطيفة منك يا حسن .

قال السائق : لو عرفت اسمك يا آنسة ، لقلت إنك سلوتنا في رحلتنا

فأجابت : إن اسمي لفظته شفتاك ، من حيث لا تدري .

قال السائق : اسم على مسمى يا آنسة سلوى .

فضحكنا جميعاً من هذه المداعبة اللطيفة التي قطعت علينا صمتنا ،
وأزاحت موجة السأم التي كادت تغطي على نفوسنا ، فكانت فاتحة
التعارف بيننا وبين السائق حسن ، عملاً بالقول المأثور : « اسأل عن
الرفيق قبل الطريق » .

كانت السيارة إذ ذاك قد بلغت نهر بيروت ، الذي أطلق عليه القدماء
نهر « ماغوراس » وأقام الأمير فخر الدين المعني الثاني فوقه جسره الحجري
وطوله ٩٧ متراً ، وعرضه أربعون متراً ، وهو مكون من سبع فتحات لمرو
المياه منها في وقت الشتاء .

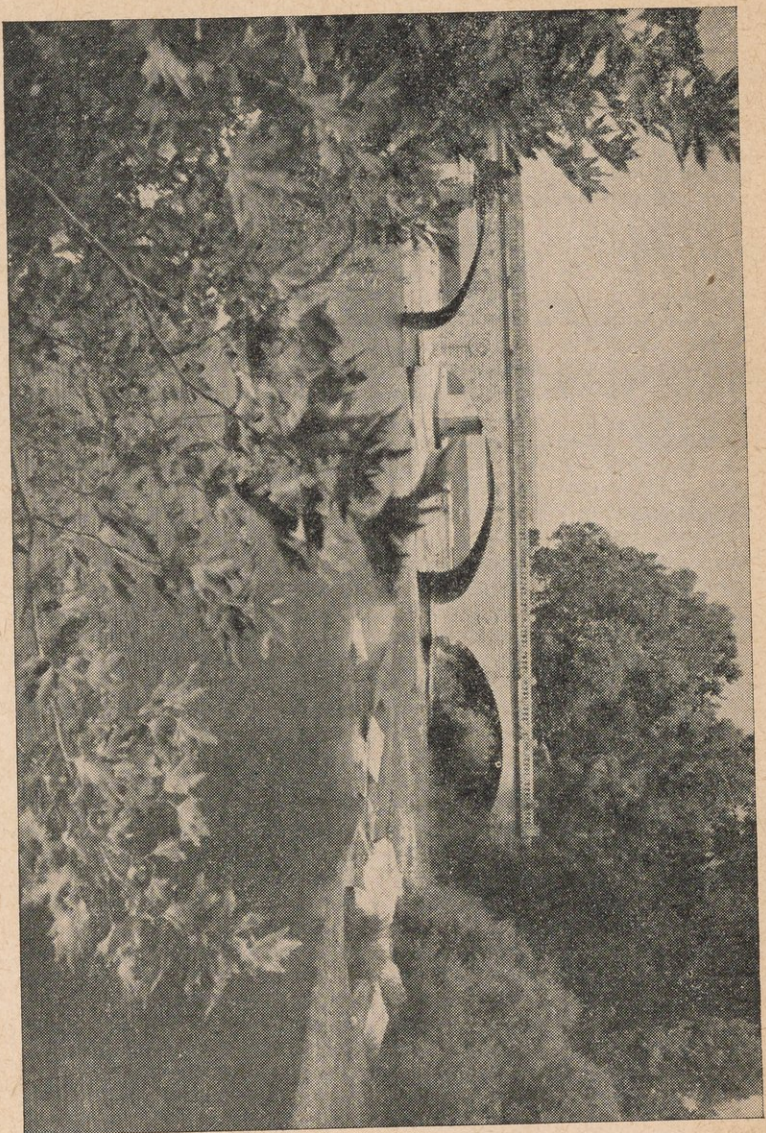
ويتصل هذا الجسر اليوم ، الذي تناولته يد الإصلاح مرات عدة
بطريق عرضها أربعون متراً ، وطولها نحو ستة كيلو مترات ، أقيمت في
وسطها المآوى فقسمتها إلى قسمين ، واحد للذهاب ، والآخر للإياب وفي
وسط هذه المآوى أشجار باسقات ، قد أشفق عليها فأس الخطاب ،
فتركها في مكانها ولم يعدمها عند ما شقت هذه الطريق من زمن ليس
ببعيد ، تمشياً مع سياسة لبنان العمرانية ، وهي « ازرع لا تقطع » فبقيت
تزين الشارع بأغصانها المتدليات ، وفروعها المتعانقات ، تبسطها فوق
المارة فتقيهم وهج الشمس وكان الرومان في الماضي ، قد أجروا قسماً
من مياه هذا النهر الذي يتلقى مياهه من أعالي الجبال إلى بيروت ، في
قناة أقيمت فوق قناطر تعرف بقناطر زبيدة ، ولكنها تهدمت بمرور الأيام
وقد شاهدنا آثارها بالقرب من بيروت .

السهول الساحلية

وبعد أن تركنا جسر بيروت ، واجتازت السيارة الشارع المستقيم الذي يتصل به مررنا في طريق وسط السهل الساحلي الحصب ، تحف به البساتين الياض ، والحدائق الغناء ، حتى وصلنا إلى انطلياس ، وهي ملتقى عدة طرق هامة ، بعضها يذهب إلى طرابلس ومصايف كسروان وشمال لبنان ، والبعض الآخر إلى قرى المتن والقاطع وسهل البقاع .

وقفت بنا السيارة في ساحتها الفسيحة أمام دير النبي الياس ، فتزودت بحاجتها من البنزين والماء ، كما تزودنا نحن بحاجتنا من الطعام والفاكهة الشهية ، ثم زایلناها إلى قرية ضُبَيْيَّة ، وهي متنزه بيروت وتقع على شاطئ البحر ، يقصدها عشاق الهدوء في الليالي القمرية الساحرة ، فيقضون فيها وقتاً ممتعاً بين أحضان الطبيعة ، ينصتون إلى حفيف أشجار بساتينها الذي ينقل همسات قلوبهم ، وإلى صوت هدير الأمواج ، الذي يخفى عن الناس بين طياته سر أحاديثهم .

زرنا في ضُبَيْيَّة مقر شركة المياه ، وتقع على رابية قد غرست في جميع أرجائها الأشجار ، فرأينا الآلات البخارية وهي تدفع مياه نهر الكلب ، الذي ينبع من مغارة جعيتا في الجبل ، بمضخات قوية ، في مواسير ضخمة لتغذى مدينة بيروت بالماء العذب .



جسر نهر الكلب المعبّر الحربي القديم وحالف هذه الأشجار النعروش التاريخية
التي حفرها الغزاة على صخور الصلابة

النقوش التاريخية على صخور نهر الكلب

ولما وصلنا إلى نهر الكلب ، ويبعد عن بيروت بمقدار ٩ كيلو مترات ، وقفنا نجيل الطرف في صخور ذلك المعبر الحربى القديم ، الذى اتخذ شهرته من صدر التاريخ ، نستوحى منها ذكريات ماضيات ، ذكريات الفاتحين الغزاة ، الذين اجتازوه بحوافلهم ، ذلك الممر الذى تنتصب عن يمينه الجبال الشاهقة ، وينبسط عن يساره البحر الحضم ، ونستنطقها عما تُخبئها في ثنايا وهادها من الأسرار ، لكن تلك الصخور الصماء كانت في صمتها المطبق ، وما حوته من رموز ونقوش ، أبلغ خطيب وقف على منبر هذه الحياة . أجل ! لقد وقفنا منها على أسرار تلك الأمم التى دالت دولها ، مما تركته من آثار تنطق بأهمية هذا الممر الحربى الخطير .

حدقنا النظر بالأمواج المتلاطمة التى كانت تتكسر على أقدام الصخور المنتثرة على الشاطئ الجميل ، الذى تغنى بذكره الشعراء ، وأطنب في وصفه الكتاب ، لعلنا نصيب منها حديثاً عن الماضى البعيد ، لكنها أشفقت على عقليتنا الساذجة ، ورمتنا بجهل الحقائق الواضحة ، وأخذت ترغى وتربد أكثر من ذى قبل ، وهى تندفع بقوة في مجرى النهر ، مرحبة بعودة المياه المنحدرة إليها من أعالي الجبال ، فكانت تحتضنها بلهف وتغمسها معها بشوق في زرقة مياه البحر ، لأنها ردت إليه ، بعد ما أخذتها الطبيعة منه قهراً وقسراً .

في هذا الطريق الساحلي ، مرت جحافل الفراعنة وجيوش اليونان والفرس والرومان والصليبيين والعرب والأتراك وغيرهم ، فكان كل واحد من هؤلاء يخلد ذكرى مروره بما ينقشه من كتابة على تلك الصخور ، كما نقش الحلفاء عليها ذكرى انتصارهم في الحرب الكبرى الأولى ١٩١٤-١٩١٨ .
وأخيراً تعلق بصرنا بصخرة ، قرأنا فيها العبارة الآتية :

« في ٣١ كانون الأول سنة ١٩٤٦ تم جلاء جميع الجيوش الأجنبية عن لبنان في عهد فخامة الشيخ بشاره خليل الحوري رئيس الجمهورية » .
تلك كانت خاتمة النقوش التاريخية التي خلدت ذكرى الفاتحين الغزاة ، الذين اجتازوا هذا الممر التاريخي .

نهر الكلب وأسطورته التاريخية

قبل أن نغادر المكان ، جلسنا تحت ظلال الأشجار ، في مقهى يطل على النهر ، فأخذ العم أبو طنوس يسرد على مسامعنا ، بأسلوبه الشائق حديثاً طليئاً عن تاريخه فقال :

— كان اليونان يسمونه « نهر الكلب » ، لأنه وضع على أحد ضفوره العالية التي تشرف على البحر ، تمثال كلب ضخم ، مجوف ، لوضع الطعام في داخله ، وقيد هذا الكلب بسلاسل من حديد ، ربطت أطرافها بقاعدة الصخر ، وكان هذا الكلب ينبح كلما لاحت في البحر مراكب العدو ، ويقال إن بعضاً من تجار مدينة البندقية ، الذين وفدوا إلى لبنان

للاتجار بمراكبهم في مستهل القرن السادس عشر ، قد أعجبوا به ، فقطعوا رأسه ، وحملوه معهم إلى مدينتهم ، غير أن الحقيقة هي أنه عند ما كانت الرياح تعصف في قلب الوادي ، وتدخل في جوف الكلب ، كانت تحدث أصواتاً تشبه العواء ولذا أطلق على النهر « نهر الكلب » .

وتقول أسطورة أخرى ، إن هذا الكلب كان فصيح اللسان ، يعرف كثيراً من الأحاجي والألغاز ، فكان يطلب من المارة حلها ، فمن وفق منهم إلى ذلك ، أذن له بالمرور ، ومن عجز افترسه .

وقد أطلق الرومان عليه فيما بعد « نهر ليغا » ومعناه باللاتينية الارتباط لأنه يربط جبال لبنان ووديانه ووهاده ، ببيروت بواسطة جسر حجري أقامه عليه الملك الروماني أنطونيوس بيوس الذي حكم روما من سنة ١٣٨ إلى ١٦١ ميلادية ، وشيد بجانبه برجاً للمراقبة ، وثكنات للحرس ، كما نقش على صخر من صخوره المطلّة على النهر ، أثراً يستدل منه على أنه هو الذي خطط الطريق الممتدة من هذا الجسر ، حتى بيروت ، ودعيت بالطريق الأنطونيوني ، غير أن العامة قد حرفتها إلى طريق أنطلياس .

نزهة في وادي نهر الكلب

قمنا في الصباح الباكر بنزهة رائعة في قلب هذا الوادي ، الذي يحمل على منكبيه كثيراً من الأطواد والآكام ، التي تعانق أغصان الأشجار السندسية المغروسة فوق رباها عناقاً أبدياً ، فسلكن طريقاً قد عبدتها الأقدام

من قديم الزمان ، تناثرت فوقها أوراق الأشجار ، وكنا نستعين بالتصعيد فيها وفي دروبها الوعرة المملوءة بالأشواك والقندول العطر النامي بين الأدغال ، على هراوات غليظة ، كنا قد قطعناها من شجر السنديان في الطريق ، وهذبناها بعض التهذيب .

وصادفنا في مستهل رحلتنا كثيراً من العقبات ، منها أننا لم نعتد المشي في الجبال ، ولم نمارس السير وسط الغابات والأحراش ، وإنما حب الطبيعة قد أغرانا على القيام بمثل هذه النزهة ، أجلنا الطرف في قلب الوادى بعد مسير ساعة من الزمان ، فوجدناه يمتد في البعد ، ويتغلغل في الارتفاع في قلب الصخور والأدغال ، حتى يبلغ مكاناً يضيق فيه مجراه ، ويتلوى ذات اليمين وذات الشمال ، وهو محصور بين سلسلتين من الجبال ، يكسوها باسق الشجر ، وتنبت فوق رباهما الأزهار ، ذات الأشكال والألوان ، يفوح منها رائحة ذكية ، أجل إن في الشجرة جمال لبنان ! ولم نر طيلة سيرنا في قلب الوادى قرى أهلة بالسكان ، ولم نكن نسمع سوى وقع أقدامنا ، وتقلقل الحصى تحتها وصوت هراوتنا الغليظة ، وكان الوادى يردد صداها ونحن نضرب بها الأرض من حين إلى حين وصوت خريير الماء المنساب في مجراه في قلب الوادى .

رأينا الطيور فخرجت من عشاشها فرحة بنا فأقبلت علينا ، وأخذت تتنقل على الأرض أمامنا ولا تخشانا ، ثم كانت تستوى فوق الأغصان مغردة ، وقد هزها الطرب لرؤيتنا نسير في دروب قد أهملها الناس اليوم ، بعد أن استسهلوا في تنقلاتهم ركوب السيارات الأمريكية الأنيقة المريحة ، التي غزت جميع قرى لبنان .

دير سيدة طاميش

وبينما نحن نغذ السير ، إذ بنا نسمع رنين جرس يطن في بطن الوادى
فقال العم أبو طنوس :
إنه جرس سيدة طاميش للموارنة ، القائم في الجهة الجنوبية من
الهضبة المطلة على الوادى .

قالت سلوى : وما معنى كلمة طاميش يا عم أبو طنوس ؟
— أجاب العم أبو طنوس قائلاً : إن هذا الدير يحمل اسم العذراء مريم
عليها السلام ، وقد شيد على أنقاض هيكل وثني قديم . كان مكرساً للآلهة
أرطاميس ، إحدى معبودات اليونان ، لكن العامة قد حرفت الاسم بمضى
الأيام ، وصاروا يطلقون عليه دير سيدة طاميش ، نسبة إلى البقعة الموجود فيها .
أبدينا للعم أبى طنوس رغبة في زيارة هذا الدير الأثرى ، فسرنا إليه
ونحن نتوكأ على هراواتنا في دروب متصاعدة ملتوية وسط الأدغال
والأشجار التى كانت فروعها تبسط ظلها علينا إلى أن بلغناه بعد تعب ،
فلمحنا من بعيد راهباً قد ابيض مفرقاه ، يلبس جلباباً خشناً أسود اللون ،
ويبتلع في قدميه حذاءً يكاد يكون بدائياً في صناعته ، ويشد حقويه
بحزام من الجلد الأسود اللون ، قال العم أبو طنوس :

— تأملوا هذا الراهب ، إنه مثال رهبان الموارنة في غابر الأيام .
وقفنا برهة نتفرس فيه من بعيد ، وهو يعمل بجذ ونشاط في أراضى

الدير ، ونأمل منظره الملائكى الذى يشع منه نور القداسة والطهارة .
أما هو فلم يلتفت إلينا ، ولم يعرنا أى اهتمام ، بل كان منصرفاً عنا إلى
تقليم الأشجار وجمع حطبها حزماً حزماً ، وهو يترنم بأناشيد عذبة أغلق علينا
فهمها إلى أن قال لنا العم أبو طنوس ، إنها أناشيد دينية باللغة السريانية التى
يجيدها جميع رهبان الموارنة .

قال خليل : عجباً !! كيف إن هذا الراهب وهو فى مثل هذه السن المتقدمة
يستطيع أن يتسلق الأشجار ويتنقل فوقها بخفة الطير ، ويصعد فى الجلول
برشاقة الطي ، ونحن فى مقتبل العمر وميعة الصبا ، قد أنهكنا سير يسير
ونهننا تسلق مرتفع بسيط ؟ ابتسمت سلوى ابتسامة السخرية وأجابت :
— متى عرفت السبب يا أخى ، بطل العجب ، إن هذا الراهب
الفاضل يستمد قواه من العمل اليومى الذى يؤديه ، لأن الجسد يمرض متى
ابطرته الراحة ، ويتألم متى هيمنت عليه عوامل الرفاهية ، وقلة الحركة ،
فالمثل يقول : فى الحركة بركة ، فبقدر ما يستعمل الإنسان أعضاء جسمه
يزداد نشاطاً ويكتسب قوة وحيوية .

حينما هذا الراهب الفاضل من بعيد ، فتنبه إلينا وأخذ يحرق فىنا النظر
ثم ما لبث أن هرول مسرعاً نحونا ، حتى إذا اقترب منا ، رد لنا تحيتنا
شعرنا فى قرارة نفوسنا باحترام غريب لهذا الراهب الفاضل ، كان
مصدره جلال شبيه ، وبهاء طلعتة ، فأخذنا يده التى اخشوشنت من
العمل الشاق ، وكانت فى نظرنا أنعم من الحرير ملمساً بقداستها وقبلناها ،
وبعد أن لمس من لهجتنا أننا غرباء راح يبالغ فى إكرامنا ، ودعانا لزيارة

الدير ، فلبينا الدعوة شاكرين ، وشرعنا نتجول في أروقته ، فلم نر فيه أحداً من الرهبان برغم كبره وتعدد غرفه .
وأخيراً جلسنا أمامه تحت شجرة سنديان وارفة الظل متفرعة الأفنان ، نتجاذب أطراف الحديث مع هذا الراهب الفاضل عن أحوال لبنان ، ولما مال الحديث بنا ميله ، سأله الدكتور خليل عن عدد رهبان هذا الدير .
أجاب الراهب قائلاً :

— كان عددنا كثيراً في الماضي يا ولدى ، أما اليوم فلا يشاركني في عزلي سوى راهب شاب أتعاون معه على خدمة ممتلكات الدير ، والعناية بها ، وبعد أن سكت الراهب برهة أردف ما تقدم :

— إن الدعوة إلى الترهّب قد قلت اليوم كثيراً ، لأن نظام الرهبنة قاس صارم ، لا قبل لشبان اليوم باحتماله ، فحين يلج الواحد منا أبواب الدير ، ينسى نفسه ، وتفنّى إرادته في إرادة رؤسائه ، بعد أن ينذر الطاعة العمياء ، والفقر الاختياري ، والعفة ، وهذه النذور الثلاثة ليست في مقدور شباب اليوم الذي تستهويه المدنية ، وتسلب لبه مباهج الحياة ومسرّاتها . والذي زاد الطينة بلة وقتل لبنان في الصميم ، الهجرة .

الغربة والمغتربون

قال العم أبو طنوس :

— حقاً أن وباء الهجرة الذي استشرى بلبنان ، ما فتئ يشجع

الكثيرين على التزوح عنه إلى شتى الأقطار طلباً للعيش ، بيد أن ما يجنيه لبنان اليوم من فوائد الهجرة ، لا يقاس بما يصيبه من الضرر ، واطنكم قد لمستم ذلك بأنفسكم ، لأن السواد الأعظم من المغتربين يقطعون صلتهم بوطنهم الأصلي لبنان ، وإن عاد بعضهم إليه بحفنة من المال ، يأنف أن يزاول حرفة آبائه وأجداده التي كان قد تعلمها في صغره ، ومارسها قبل مغادرته البلاد ، فعندئذ يأخذ في إنفاق ما جمعه السنين الطوال « والذي لا ينبع يفرغ » كما يقول المثل ، إلى أن يصبح صفر اليدين ، فيعود ثانية إلى الجهة التي كان قد هاجر إليها ، وجمع ثروته فيها ، وفي نيته العودة إلى لبنان متى ابتسم له الحظ ، وأصاب ثروة أخرى ، ولكن هيهات أن يبتسم له الحظ مرة ثانية فتمر الأيام ، والأجل يلاحق ذلك المغترب المسكين بعيداً عن الأهل والخلان ، وهو يهجمس بذكر لبنان . نحن لا ننكر أن المغتربين يفيدون وطنهم لبنان ، بما يرسلونه إلى ذويهم من المال ، ولكن هذا كان في الماضي ، أما اليوم فإذا أرسلوا شيئاً ، أرسلوه بقدر ، وقدر قليل جداً ، نظراً للقيود المالية التي تفرضها الدول على نقدها اليوم ، حتى لا يتسرب إلى الخارج .

قال الدكتور خليل :

— هذا صحيح ، فقد لاحظنا يا عم أبو طنوس مدة إقامتنا القصيرة في لبنان ، نقصاً كبيراً في الأيدي العاملة ، ولعل هذا النقص يرجع إلى المهاجرة التي يشكو منها لبنان .

— أجاب الراهب هذا بلا شك يا ولدي ، لأن المهاجرة قتلت لبنان ،

فهي تفقدنا زهرة شبابنا ، ثم إن طريق النجاح في الغربية بات غير مؤكد في هذه الأيام السود التي استحكم فيها الضيق في جميع البلدان .
لم يرق في نظر الآنسة سلوى حديث الغربية ، فقطعته علينا وقالت
والابتسامة على شفيتها كعادتها :

— كم من الزمن مضى على دخولك الرهينة يا أبت الجليل ؟
— أجاب الراهب ضاحكاً ، انظري إلى شكلي يا ابنتي ، ومنه
تحكمين على عدد السنين التي قضيتها في الدير .
أعجبنا جميعاً من سرعة خاطر هذا الراهب ، الذي يعيش بين
الأحراش والأدغال ، ولباقته ، وحسن تخلصه من الإجابة .
قال الدكتور خليل : هل أنت سعيد بمعيشتك في عزلتك يا أبت ؟
— ولم لا ، فنحن يا ولدي بعيدون عن العالم وأخطاره ، ولا عمل لنا
في عزلتنا سوى عبادة الخالق عز وجل في شتى الأشكال . أعني أن عبادة
الخالق يا ولدي لا تقوم بالصلاة فحسب ، وإنما بكل عمل يأتيه الإنسان ،
مثل مساعدة القريب ، ومد يد المعونة للضعيف ، حتى إن أكلنا وشربنا
وترويض أجسامنا ، فيه تمجيد للخالق عز وجل .

قالت سلوى : — صدقت يا أبت الجليل ، ولكن ألم يكن لك فضل
أكبر فيما لو خرجت إلى العالم وخدمته بمثلك الصالح ؟
— إنك على حق يا ابنتي فيما تقولين ، وهذا ما نفعله أيضاً ، فإننا
نذهب إلى القرى المجاورة من حين إلى حين ، ونسمع الشكاوى ، ونصلح
المتخاصمين ، ونمد يد المعونة للمعوزين .

— قالت سلوى : وهل تعرف لغات أجنبية يا أبت ؟
 — أجاب الراهب : أنا لم أتعلم في صباى سوى العربية التى أجيدها
 إجادة تامة ، واللغة السريانية التى نصلى بها ، لأن اللغات فى الماضى لم
 يكن جميع الرهبان فى حاجة إليها .

أكبرنا قدر هذا الراهب الفاضل ، وأعجبنا بفلسفته العميقة التى أملاها
 عليه جمال الطبيعة فى لبنان . انه ترك العالم وانطوى على نفسه فى هذا المكان
 اعتقاداً منه أن العالم بحر من الأحزان والآلام ، وإن الدير ميناء الخلاص
 الوحيد الأمين ، يتلقن فيه أسرار الحياة ، وعبادة الإله الواحد .

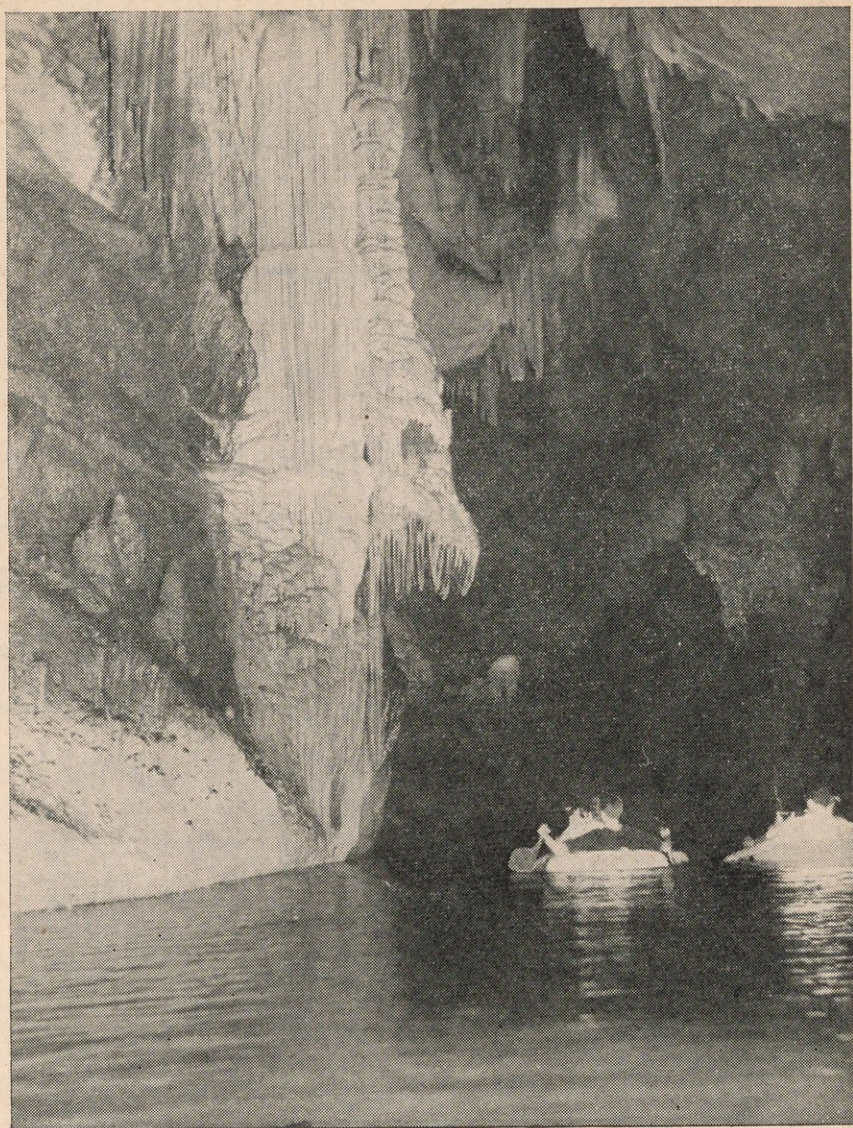
اكتفيننا بهذا القدر من الحديث مع هذا الراهب التقي ، ثم وقفنا وسلمنا
 عليه مستأذنين بالانصراف ، أما هو فقد أمسك بنا ، وألحف فى الدعوة
 لتناول الغذاء على مائدة الدير ، تلك هى العادة التى يتبعها هؤلاء الرهبان
 مع الزائرين الذين يهبطون عليهم ، ولكننا اعتذرنا بأدب ، وقبلنا
 منه بعض الفواكه التى تنتجها حديقة الدير ، وودعناه وسرنا فى طريقنا إلى
 جعيتا القرية القابعة بين الجبال الجرداء والغياض ، لمشاهدة مغارتها العجيبة
 وتقع فى أسفلها ، وكنا قد قرأنا نبذة شائقة عنها ، فمررنا بطرف هذه القرية
 بحقل من أشجار الزيتون ، يقدر القوم هناك عمر بعضها بأكثر من ألف سنة .
 وقفنا نجيل الطرف بهذه الأشجار الهرمة ، التى تلبس ثوباً من الروعة
 والجلال ، وهى جالسة فى ذلك المكان السحيق ، تحف بها أطياف الماضى
 الملىء بالذكريات لتستقبل الحاضر بمظاهر البهجة والسرور .

مغارة جعيتا

بلغنا مغارة جعيتا التي تقع شمالى بيروت بمقدار ١٦ كيلو متراً والشمس في أوج السماء ، فسمعنا دويّاً يصم الآذان ، يصدر من حين إلى حين من داخلها ، ولما اقتربنا منها ، رأينا الماء يتدفق بغزارة من جوفها ، وقد علل الدكتور خليل هذا الدوى باحتمال وجود مضخات ماصة فيها ، تمتلئ من تلقاء نفسها ، أو بوجود شلالات بعيدة الغور يهوى الماء فيها من علو شاهق .

قالت سلوى : ما معنى كلمة جعيتا يا عم أبو طنوس ؟

— أجاب العم أبو طنوس قائلاً : إن جعيتا لفظة آرامية ، معناها الدوى وهذه المغارة هي أكبر مغارة في العالم ، ومعروفة في لبنان منذ القديم ، وأول من ارتادها المهندسان الإنجليزيان مكسويل وهكسلي ، اللذان عهد إليهما بفحص مياه نهر الكلب سنة ١٨٧٣ بعد أن حلت الشركة الإنجليزية محل الشركة الفرنسية في استغلال مرافق الشركة ، التي تغذى مدينة بيروت بالمياه العذبة ، فصنع هذان المهندسان لهما زورقاً يتناسب واتساع هذه المغارة ، وأخذوا حبلاً متيناً طويلاً ، وربطوا أحد طرفيه في شق في الصخور المجاورة ، وربطوا القارب في الطرف الآخر ، وارتادوا على ضوء بطارية أول حوض منها طوله عشرون متراً بصعوبة بالغة ، لكثرة ما اعترض خط سيرهما من صخور بارزة فوق سطح الماء ، ثم توغلا في سيرهما حتى بلغا بحيرة واسعة تذهب في العمق إلى حد كبير ، وكانا إذ ذاك قد قطعوا نحو ١٢٠٠ متر ، فأجالا



مغارة جعيتا هي عبارة عن نهر يمتد مئات الأمتار تحت الجبال

الطرف حولهما ، فرأيا أن المغارة متسعة مظلمة من الداخل ، وأن صخرها كلسى سريع التآكل ، وأن النظر لا يحدها ، لفرط امتدادها إلى مسافات تحت الجبال ، فلم تسعفهما الجراءة على التوغل فيها أكثر من ذلك ، فعادا أدراجهما من حيث أتيا ، بعد ما أثبتا أنها عبارة عن نهر طويل يمتد تحت الجبال ، فيه شلالات يضيق جانبها حيناً ، ويتسعان حيناً آخر ، ويقال إن بحيرة اليمونة تصب فيها .

قالت سلوى : أظن أن هذا كل ما تعرفه يا عم أبو طنوس عن هذه المغارة ؟ دعنى ، أكمل معلوماتك عنها فقد تفيدك فى حياتك الصحفية . قرأت فى كتيب إنجليزى عنوانه « المغاور » أن الدكتور لامارش ، المشهور بارتياح المغاور الكبيرة فى أوروبا ، عند ما حضر إلى لبنان فى أواخر القرن الماضى ، وزار مغارة جعيتا ، أثبت فى طيات رحلته أن طول هذه المغارة عشرة كيلومترات تقريباً ، وأنها تمتد تحت سلسلة من الجبال ، وتستمد مياهها من الثلوج المتساقطة فوق قمم الجبال عند ذوبانها وتسربها فى شقوقها . وهذه المغارة مقسمة إلى أحواض ، تسمح بسير الزوارق الكبيرة فيها ، ويبلغ طول أول حوض منها ٥٠ متراً ، يليه حوض آخر تياره سريع ، تتجمع فيه المياه المتدفقة من الداخل ، ولا يمكن خوض عباب هذا الحوض ، إلا بزوارق كبيرة ، وجبال متينة طويلة ، وقد ختم الدكتور لامارش وصفه بقوله إنها أجمل ، وأكبر مغارة ارتادها فى حياته .

— قال الدكتور خليل : حقاً إن هذه المغارة أعجوبة من أعاجيب الطبيعة ، ويا حبذا لو عنى ولاية الأمور فى لبنان باكتشافها من الداخل ،

والانتفاع بالمياه المتدفقة منها بغزارة في توليد القوى الكهربائية ، وأعمال الري التي يفتقر إليها لبنان أشد الافتقار .
فأجاب العم أبو طنوس ، هذا ما يعنى به ولاية الأمور في لبنان اليوم ،
للانتفاع بكل قطرة ماء ، سواء أكان في جروده أو في سهوله .

طواحين من القديم

كانت الساعة قد أشرفت على الثالثة عند ما انتهينا من جولتنا في ضواحي مغارة جعيتا ، وكان التعب قد استبد بنا ، فجلسنا تحت شجر الصنوبر المتفرع الأغصان ، الوارف الظل ، نستريح بعض الوقت من عناء الطريق ، فبسطنا على أديم الأرض ما معنا من زاد ، وأكلنا بشهية ، تحف بنا المناظر الطبيعية ، ويهب علينا نسيم الصنوبر العليل الذي كان يملأ بنقاوته صدورنا ، فنستروح منه نسيمات الحياة المنعشة في ذلك الجو الهادئ الذي يحيط بنا ، ولما انتهينا من الأكل ، غادرنا المكان في طريق منحدرة ، عرة ، فمررنا بطواحين قديمة العهد ، تسير رحاها بقوة الماء المتساقط عليها من علو شاهق ، فوجدناها خالية خاوية ، وكل شيء حولها يشعر بالوحشة غير أننا سمعنا خرير الماء ، وهو يترنح ساقطاً من برجه العالى ليندفع في قناة تنهى في مجرى الوادى قد امتلأت بالأعشاب التي طالت حتى انحنت ، وكأنما انحنت غماً وحزناً على مصير هذه الطواحين ، التي عضها الجوع بنابه ، وكانت في الماضي تتغذى بالقمح الذي كانت تنتجه حقول ومزارع

القرى المجاورة ، وقد هجرها فلاحوها اليوم .
 كان الليل قد تهافت علينا ، عند ما بلغنا جسر نهر الكلب القديم ،
 فارتمينا في سيارتنا ونحن على أشد ما يكون من التعب ، وكانت في انتظارنا
 أمام المقهى المطل على البحر الهادئ ، فدلقت بنا إلى جونه ، حيث
 التمسنا فندقاً نقضى فيه بقية ليلنا ، لعلنا نصيب في النوم راحة لأبداننا ،
 تعوضنا بعض ما أخذت التزهة الرائعة في وادي نهر الكلب الفاتن منا .

جونه وخليجها الساحر

ولما كان الصباح قمنا من النوم أوفر نشاطاً ، فتجولنا في أنحاء جونية
 المدينة الساحلية الفاتنة ، فشاهدنا مرفأها الجميل ، وخليجها الهادئ
 الساحر الرابضة عليه منذ الأزل لا تقوى على فراقه ، لأنه من أجمل خلجان
 العالم منظراً ، وأشدّها تأثيراً في النفس ، تشرف عليه قرى معلقة فوق
 هضاب وعرة تنوء بما تحمله من أشجار . وقد رأينا في الجهة الشرقية منها
 غابة صغيرة يسودها الهدوء ، فيها الكثير من أشجار الصنوبر والشربين
 والسنديان والخرنوب . ولم يفتنا أن نقوم بزيارة خاطفة لمدرسة القرير الشهيرة
 التي ساهمت في إعداد عدد كبير من رجالات لبنان العظام .
 وجونية من أجمل مشاتي العالم ، وهي مركز تجارى هام ، يهبط إليها
 كثير من سكان الجبال فيقضون فيها فصل الشتاء القاسي ، ولكن الحكومة
 مع الأسف الشديد — كما لاحظنا لم تولها العناية الكافية باعتبارها مشتي جميلاً
 شأنها شأن جميع المدن الواقعة على ساحل لبنان الفاتن .

برج هيلانة

تركنا جونه وخليجها الفاتن ، واستأنفنا رحلتنا في الطريق الساحلية ،
وقبيل وصولنا إلى المعاملتين برز أمامنا برج عال قائم في البحر ، تتكسر
الأمواج حول جدرانه ، ولا تقوى على هدمه .

قال لنا العم أبو طنوس : إن هذا « برج هيلانة » وينسب إلى الملكة
هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين الكبير ، وكانت في الماضي ، تضاء
نار في أعلاه عند حدوث أمر جلل ، تتناقلها الأبراج الأخرى ، التي كانت
مقامة على طول الشاطئ حتى القسطنطينية . وقد تهدمت اليوم أجزاء كثيرة
من هذا البرج الذي تبدو عليه آثار الفناء ، والبقية منه تنطق بما كان عليه
من شأن في الماضي في نقل الأخبار عبر البحار .

ميناء طبرجه وبولس الرسول

كانت الشمس قد أوجلت في بزوغها عند ما وصلنا إلى طبرجه ، وتقع
في الجهة الشمالية من جونه ، فوقفنا نجيل الطرف في مينائها القديمة ، ويخيم
عليها اليوم السكون الشامل والهدوء التام ، فلم نكن نسمع إلا أصوات
الأمواج تتكسر على أقدام الصخور المحيطة بها ، فذكرنا ما كانت عليه
هذه الميناء من الأهمية في الماضي ، يوم كانت سفن الفينيقيين تجوب

موانئ البحر الأبيض وتغزو شواطئ العالم القديم .

وبينما نحن مستغرقون في تفكيرنا ، ارتفع صوت العم أبو طنوس فجأة وهو يشير بيده إلى صخرة من تلك الصخور التي لم تستطع أمواج البحر التي تحاربها أن تنال من صلابتها وتذيبها في نفسها ، وقال :

— من هذه الميناء ، ومن أعلى هذه الصخرة التي تعتز بقوتها أمام جبروت البحر ، وتتيه فخراً على أمواجه العاتية ، وهي في صراع دائم معها قفز بولس الرسول ، معلم الأمم والشعوب ، وتلميذ السيد المسيح له المجد ، إلى مركب شراعى بدائي ، وأبحر به نحو الغرب ، ليكرز بتعاليم الناصري ، التي قوامها المحبة والإخاء والسلام .

هذا ما يتناقله الناس هناك من أمر هذه الصخرة .

وكأنى بالبحر قد أدرك الغاية من زيارتنا لشاطئه الجميل ، فقدفنا بموجة عالية ، لطمت تلك الصخرة لطمة قوية ، لم نسلم من رشاشها ، فأمنّا عندئذ بأن البحر هو كل شيء ، ونحن بالنسبة إليه لا نساوى شيئاً .

نهر إبراهيم

تركنا طبرجه ، فتابعنا سيارتنا سيرها في طريق الساحل الفينيقي الممتد على طول البحر ، المنبسط تحت أقدام جبال لبنان ، وكانت أمواجه الهادئة المنسابة فوق رماله الناعمة البيضاء ، تنقل إلى آذاننا أعذب الألحان ، ونسيمه العليل الذي يهب علينا ينعش بصفائه نفوسنا ، ورؤية مياهه الزرقاء

المتوجة فوق سطحه تبعث فينا هدوء النفس ، وراحة الأعصاب ، ونحن نرافق الشاطئ الساحر .

أجل : كان الجمال مجسماً في كل شيء يحيط بنا ، ويصادفنا في كل خطوة من خطواتنا ، وقد استولت روعة تلك المناظر على نفوسنا ، عند ما وصلنا إلى نهر إبراهيم ، وقد سمي بهذا الاسم ، نسبة إلى الأمير إبراهيم ، ابن أخت القديس يوحنا مارون ، أحد أمراء الموارنة المردة ، الذين حكموا لبنان ، وذلك لأنه بنى جسراً فوق مصبه بالقرب من البحر الأبيض المتوسط ، ما فتى يشاهد حتى يومنا هذا .

وليس نهر إبراهيم من الأنهار ذات الشهرة الملاحية ، التي تنهادى فوق صفحته الزوارق ، وتدوى في مياهه أصوات المجاذيف وهي تتحسس الماء برفق ولين ، كأنها لهثات العاشقين الواهلين ، ولا هو من الأنهار التي تنبسط حول مجراها السهول الفيحاء ، والحقول والبساتين الباسمة الغناء ، وإنما هو جدول صغير ، إذا قيس بنهر كبير ، ملء بالذكريات التاريخية ، ينبع من مغارة أفقا ، بالقرب من العاقورة ، ومن الصخور التي تجاورها ، ويتدفق مائه في مجرى صخري عميق ، يضيق في أعلاه ، تكتنفه الجبال العالية ، وتصطف حول حافته أشجار السنديان ، والصفصاف ، والدفلى وغيرها من الأشجار والنباتات ، التي تملأ الجو عبيراً ذكياً منعشاً ، وتهز مناظره الخلابة القلوب روعة . وعند ما يقرب مجرى هذا النهر من الشاطئ تحبو مياهه ببطء وهدوء ، وتروى الأراضي التي تحيط به ، قبل أن تقذف بالفائض منها في البحر .

وقد امتدت يد الإنسان إلى هذا النهر ، من زمن ليس ببعيد ، عند ما فكر جماعة من رجال المال والأعمال اللبنانيين ، في الاستفادة من مساقط المياه ، التي يكثر وجودها في لبنان ، واستغلالها اقتصادياً ، فأقاموا عليه محطة لتوليد الكهرباء ، تغذى اليوم شمال لبنان بالتيار الكهربائي .

اسطورة أدونيس

لم يشأ العم أبو طنوس أن يغادر المكان ، بدون أن يتحفنا كعادته بقصة هذا النهر وتاريخه القديم ، وما دفنت فيه من ذكريات ماضيات ، ونحن جلوس تحت شجرة صنوبر لم تحجب أغصانها عنا صفاء السماء فقال : كان للزهرة « فنيس » هيكل يقع عند منبع نهر إبراهيم ، الذي كان يطلق عليه في الماضي نهر أدونيس ، بقرب مغارة أفقا ، في أعالي الجبال بالقرب من الناقورة ، وقد هدمه الملك قسطنطين الكبير وكان أدونيس الملقب بتموز ، ابن الإلهة عشتروت ، جميل الصورة ، فهام في حب أفروديت واتخذها معشوقة له ، غير أن عقارب الحسد قد دبّت في نفس مارس إله الحرب ، ولكي ينتقم من أدونيس الذي ينافسه في حب أفروديت ، أرسل إليه وهو يصطاد في غابات الشمال الكثيفة الملائى بالوحوش الكاسرة ، خنزيراً برياً كبير الحجم ، فهجم عليه ، وأنشب أنيابه فيه ، فجرحه جرحاً بليغاً ، حال بينه وبين مواصلة السير ، فقلقت عليه أفروديت لما طال غيابه ، وخرجت تطلبه في الغابات الكثيفة ، والجبال

الوعرة ، والوديان السحيقة ، التي كانت أصوات الريح تعوى فيها كالذئاب الكاسرة ، لأن الوقت كان شتاء ، وهى تبكى معشوقها وتندبه بكلام مؤثر ، إلى أن عثرت عليه ملقى عند مدخل مغارة أفقا الضيق المنقورة بفعل العوامل الطبيعية فى صخر ارتفاعه ٢٠٠ متر ، وهو يجود بالنفس الأخير ، فلما رآها آتية إليه ، دبت الحياة فيه ، وأخذت أفروديت تعنى به ، ولكن الجرح كان مميتاً ، ففضى نحيبه بين ذراعيها ، ولم تعمّر أفروديت طويلاً فماتت غماً وحزناً على أدونيس .

وتقول الأسطورة إنه فى آخر شهر شباط (فبراير) من كل سنة ، وهو الوقت الموافق لموت أدونيس ، يتحول لون ماء النهر إلى أحمر قان يشبه لون الدم ، والحقيقة هو لون تربة الأرض التى تجرفها مياه الأمطار أثناء انحدارها من أعلى الجبال ، وتقذف بها فى النهر .

وقد امتدت عبادة أدونيس إلى مصر وغيرها من البلدان ، التى كانت على اتصال وثيق بالفينيقين ، فكان من عادة المصريين القدامى ، أن يلقوا كل سنة فى عيد أدونيس ، علبة فى البحر ، مصنوعة من خشب على شكل هيئة رأس ، ويضعون فى داخلها رسالة إلى سكان جبيل تنطوى على الود والإخاء .

جبيل المدينة المقدسة

كانت جبيل وقد سماها اليونانيون « بيلوس » فى عصور التاريخ الأولى عاصمة مملكة عظيمة ، ومدينة حصينة ومقدسة عند الفينيقين ، ومركزاً

لدينهم الوثني ، يقيمون في هياكلها التي كانت مستودع الأسرار والرموز القديمة ، الاحتفالات الدينية لإكرام الإله بعل وقرينته عشتروت ، كما أن المصريين القدماء كانوا يحجون إليها في المواسم والأعياد ، ويكثرون من القرابين والندور لآلهتها .

وكان الكهنة يحتفلون بأعياد آلهتهم في تلك الهياكل احتفالاً منقطع النظير ، وكان أهمها ، عيد أدونيس (تموز) الذي قتله خنزير برى كما مر ، فكانوا يقيمون لهذا الإله عيدين ، الأول في الحريف يمثلون فيه جنازة أدونيس ، ترتدى فيه النساء ثياب الحداد ، ويبكين على موت أدونيس ، كما أن كهنتهم كانوا يخدشون وجوههم ، ويدمون صدورهم إلى أن تصطبغ أجسامهم بدمائهم حزناً على موت الهتهم ، والثاني في الربيع ، كانوا يقيمون فيه الأفراح ، ويرتكبون جميع أنواع الموبقات ابتهاجاً ببعث أدونيس . واليوم ، لا يدل مظهر هذه المدينة التاريخية ، التي هي مهد الجنس اللبناني ، ومن أقدم المدن الساحلية وأغناها بالآثار ، على أنها كانت على مبلغ عظيم من العظمة بكثرة مبانيها الشامخة ، ومسارحها المشهورة ، وأعمدتها الضخمة ، وقد رأينا فيها بقايا سور حجري متين قيل لنا إنه كان يحول بينها وبين طغيان ماء البحر عايتها .

كان أهل جبيل من أمهر الملاحين ، يخوضون غمار البحر من مرفأ مدينتهم الشهير ، ويطوفون في البلاد بمراكبهم بهمة لا تعرف الملل . وقد أخبرنا أحدهم بأنه قد اكتشف في جبيل ، كثير من الآثار ، ومن أهمها المعبد الفينيقي الأكبر ، والنواويس العديدة ، وعلى جوانبها

نقشت صور حيوانات وبشر ، كما وجدوا في هذه النواويس قلائد وعقوداً
وحلياً وتماثيل ومسكوكات ، وزجاجات لحفظ الدموع ، دلالة على حزن
أصحابها ، وسوى ذلك من أدوات الزينة النسائية .

ويضم المتحف الوطني في بيروت ، كثيراً من آثار هذه المدينة الأثرية
الخالدة التي أبقت عليها الأيام ، ونجت من أيدي المنقيين وعبث اللصوص
في غابر الأزمان .

وقد شاهدنا فيها قلعة جبيل التاريخية بأكثر أقسامها الموجودة في البحر ،
وهي من بقايا الصليبيين في هذه المدينة .

تين عمشيت

بعد أن خلفنا جبيل وراعنا ، رأينا في الطريق جموعاً من البنين والبنات ،
صغار السن بملابسهم النظيفة الزاهية ، واقفين على جانبي الطريق وفي
أيديهم سلال صغيرة ، ملؤها بالتين الأبيض الصغير الحجم ، اللذيذ الطعم ،
يعرضونها على المارة بلهجتهم اللبنانية الطريفة ، فأوقفنا سيارتنا وابتعنا منهم
سنتين بليرتين لبنانيتين ، وبينما نحن نفرغ ما فيهما في جوفنا ، التفت إلينا
العم أبو طنوس وقال : —

— هذا تين عمشيت ، وهو ألد تين في العالم ، وعمشيت مشهورة
بتينها ، وقد أقام فيها رينان الفيلسوف الفرنسي زمناً طويلاً ، حيث فقد
ابنته ، وما فتى قبرها يشاهد فيها حتى اليوم بجوار الكنيسة وتحت ظلال

شجرة السنديان ، وكذلك البيت الذي أقام فيه هذا الفيلسوف الشهير ، حيث بدأ يفكر وهو جالس على سطحه في ضوء القمر في كتابة كتابه « حياة يسوع » .

البترون

ولما بلغنا البترون ، كان البحر عن شمالنا ، وجبال لبنان عن يميننا ، وقد انتصبت كالتماثيل الجبارة تنهض فوق رباهما الأشجار الباسقات .
والبترون مدينة قديمة ، كانت ذات شأن عظيم في الماضي ، بناها إيتو بعل في القرن العاشر قبل الميلاد ، وكانت أيام الفينيقيين مرفأ هاماً للتجارة ، ومكاناً مشهوراً لصناعة سفنهم ، وقد اكتشفت فيها نواويس وآثار فينيقية ويونانية ورومانية هامة ، أما اليوم فيشملها الهدوء ، ويبسط عليها السكون ظله . شاهدنا فيها آثار قلعة المسيلمة القائمة في وسط وادي نهر الجوز ، وسور الحجر الطبيعي القائم على شاطئ البحر ولعله مكمل لسور جبيل ، ويقال إن الفينيقيين قد حاولوا لأول مرة النزول في البحر من هذه الميناء ، لغزو البلدان القائمة على شواطئه ، والتعرف بأهلها وتبادل السلع معهم .

الإسفنج اللبناني

طفنا بشاطئ هذا المرفأ الهادئ ، وكان الوقت قبيل الغروب ، فرأينا هناك شيخاً قد قاربت شمس حياته على الغروب ، جالساً على صخرة فوق

سطح الماء، يجيل الطرف بالبحر المترامى الأطراف، كأنه ينتظر منه شيئاً، أو يريد أن يودعه سراً يوصله إلى حبيب، وما أكثر ما في البحر من أسرار يكشف عنها طنين الأمواج!! فحينئذ فرد لنا تحيتنا بأحسن منها ثم دعانا للجلوس، فجلسنا بجواره على تلك الصخرة وأخذنا نتداول معه الحديث، ولما مال بنا الكلام إلى الغربة والمغتربين اللبنانيين، تأوه شيخنا من أعماق قلبه وقال: قاتل الله الغربة، فقد انتزعت مني أولادى الثلاثة منذ ثلاثين سنة تقريباً، فترانى اليوم فى أشد الشوق إلى لقاءهم.

سكت شيخنا برهة وأردف ما تقدم قائلًا:

— إني آتى كل يوم إلى هذا المكان فى مثل هذا الوقت، وأجلس فوق هذه الصخرة، وأعلن الساعة التى سمحت فيها لأولادى بترك لبنان.

قال العم أبو طنوس: بم كان يشتغل أولادك قبل سفرهم؟

— أجاب الشيخ كان اثنان منهم يعملان معى فى صيد الإسفنج من شواطئ بلدتنا البترون، والثالث وهو أصغرهم كان يتلقى علومه فى مدرسة القرير بجونيه.

قالت سلوى: عجباً وهل يوجد إسفنج فى شواطئ بلدتكم؟

فقال الشيخ: كيف لا، فنحن أهالى البترون وجبيل من أبرع الناس فى صيد الإسفنج، لأن الشاطئ اللبناني الممتد من طرابلس حتى جبيل، كان مركزاً هاماً لاستخراجه فى موسم الصيد الذى يبتدىء فى أوائل شهر آيار (مايو)، ويستمر حتى شهر إيلول (سبتمبر). غير أن هذه الصناعة اليوم فى طريق الزوال لقلة الأيدى التى تعمل فيها، نتيجة

المهاجرة ، وعدم الاعتناء بالشواطئ ، وتوفير بيض الإسفنج فيها .
قال الدكتور خليل : يا حبذا لو اهتم ولاية الأمور عندكم يا عم
أبو طنوس ، وأولوا هذه الصناعة عنايتهم ، وقد كانت إلى عهد قريب
مصدراً من مصادر الثروة في لبنان . فقد قرأت عن الإسفنج اللبناني أنه
من أجود أنواع الإسفنج في العالم ، لنعومة ملمسه ، وشدة ليونته ، وجمال
لونه الذي يضرب إلى الشقرة .

قال الشيخ : نعم يا ولدي ، إن صناعة الإسفنج كانت قبل
الحرب الكبرى الأولى تلاقى رواجاً عظيماً ، وكان يعمل فيها كثير من
الأيدي ، أما اليوم فقد أشرفت على الزوال ، لأن الجيل القديم الذي
كان يعمل فيها قد انقرض أو كاد ، ومن بقي منهم ، لا يستطيع القيام
بهذا العمل الذي يتطلب مجهوداً خاصاً ، أما الشبان ، فقد ترك بعضهم
لبنان ، كما انصرف البعض الآخر عن هذه المهنة إلى سواها . قاتل
الله الغربة فقد قتلت لبنان ، وشلت حركة العمل في كثير من
مرافقه الحيوية .

لم نشأ أن نثقل على شيخنا أكثر من ذلك ، فتركناه على صخرته و
وحدته يتأمل ، ويفكر وينتظر مجيء أولاده الثلاثة . إنه الأمل الجميل
الذي يداعبه ! ! . بل الأمل الذي يداعب كل لبناني ينتظر عودة من له
في دار الغربة . هكذا يعيش اللبنانيون اليوم . فليس في لبنان قرية مهما
يقل شأنها ، إلا ويوجد مغتربون من أبناءها . أجل حياة بلا أمل هي موت ،
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ! !

نفق المسيطة

قضينا الليل في البترون الهادئة ، وفي صباح اليوم التالي بارحناها إلى شكا ، فاجتازت السيارة أثناء الطريق نفق المسيطة الشهير ، وقد نقر في حوف الصخور التي تعلو سطح البحر بمقدار ٢٠٠ متر منذ زمن ليس بعيد ، وذلك عند إتمام الطريق بين البترون وطرابلس ، تفادياً من حوادث المركبات التي كان يكثر وقوعها في تلك الجهات ، ويبلغ طول هذا النفق نحو سبعين متراً ، ويعلوه رأس الشقعة الشامخ الارتفاع ، وصخوره الهابطة عمودياً ، فتدخل في البحر على شكل رأس يكثر حوله السمك الكبير الحجم اللذيذ الطعم ، وقد خيل إلينا منظره من بعيد كأنه يارحة راسية في المرفأ في انتظار الخروج إلى عرض البحر لتمخر عبابه .

شكا وشركة الترابة اللبنانية

ولما أشرفنا على شكا ، بدا لنا خليجها الجميل الصغير ، الذي يزينه رأس الشقعة بصخوره العالية ومن ورائه مصنع شركة الترابة اللبنانية (الأسمنت) ، الذي يقع بأكثر أجزائه على شاطئ البحر ، وهو يقذف من مداخنه العالية الدخان في الفضاء .

توجهنا لزيارته ، فإذا هو مكون من أربعة أفران كبيرة مجهزة بأحدث

الآلات والعدد ، ويعمل فيه عدد كبير من الشبان اللبنانيين تحت إرشاد مهندسين سويسريين ولبنانيين .

وقد أخبرنا أحد المهندسين ، بأن الأسمنت الذى ينتجه هذا المصنع هو من أجود الأسمنت فى العالم ، نظراً لطبيعة الجبال المحيطة بشكا التى يؤخذ منها . تأسست شركة الترابة اللبنانية منذ ربع قرن تقريباً ، برأس مال قدره ٢٤ ألف ليرة ذهبية ، وكان إنتاجها فى بادىء الأمر ضعيفاً جداً ، لا يتجاوز فى مجموعه ٥٠ ألف طن فى السنة ، نظراً لعدم الإقبال على استعمال الأسمنت فى لبنان ، أما اليوم فقد أصبح رأس مالها يقدر بثلاثين مليون ليرة لبنانية بعد ما زاد إنتاجها إلى ٥٠٠ ألف طن فى السنة ، حتى أصبحت تسد حاجة لبنان من الأسمنت فى أوج نهضته العمرانية ، التى شملت جميع قراه ، ويصدر الفائض من إنتاجها إلى الخارج .

وقد علمنا أن أكثر أسهم هذه الشركة الناجحة هى فى أيدي السويسريين ، الذين كان لهم الفضل فى إنشائها ، بيد أن فيها كثيراً من المساهمين اللبنانيين ، ومن أكبرهم غبطة البطريك المارونى ، مار أنطون بطرس عريضة ، إذ يملك فيها ألفى سهم إيرادها السنوى ٦٠ ألف ليرة لبنانية ، أوقفها جميعها على مساعدة فقراء كهنة الرعايا الموارنة وغيرهم من فقراء لبنان .

الفصل السادس

التصعيد في الجبال

خلفنا وراءنا بعد أن تركنا شكا، الشواطئ اللبنانية، وهي من أجمل شواطئ العالم منظراً، وألطفها مناخاً، وأرقها نسima، لأنها تجمع بين متعة السواحل، وجلال الجبال، تزيينها روعة الغابات الكثيفة التي تشرف من عل عليها، وقد أخذت السيارة ترتقي بنا سفوحاً نضرة، وهضاباً وعرة توشبها الخضرة، شقت فيها طرق معبدة تتدرج في الارتفاع، وكلما أزددنا توغلاً فيها، أزداد البحر بعداً عنا، إلى أن استولى علينا الرعب من منظر الوديان السحيقة، التي كان النظر يقع عليها، وكان يزيل ما يساور قلوبنا من الخوف، ظهور بعض القرى من حين إلى حين أمام عيوننا، قرى أوجدتها الطبيعة في بقع معينة بالذات في ذلك الجبل الأشم، ومن حولها تقوم الغابات وكروم العنب، وحدائق الفاكهة، فكانت كأنها صور فنية، فيها سحر، وفيها جمال، رسمتها يد فنان حاذق على لوحة الطبيعة في أرض لبنان.

مهارة سائقي السيارات

أخذ علينا العم أبو طنوس خوفنا من انكماشنا في أماكننا في السيارة وصمتنا، والاكتفاء بسماع مذياعها ونحن لا نشعر بجمال ما يحيط بنا،

ولا نظرب لعذوبة صوت المغنى ، وكى يبدد مخاوفنا قال :

— لا تخافوا أيها الأخوان ، إن الطرق فى لبنان كلها أمان واطمئنان
ونحن ما زلنا فى أول الدرب ، فستجتاز بنا السيارة عما قريب ، مرتفعات
عالية رهيبة قائمة فوق الهضاب ، وتسير فى طرقات متعرجة ملتوية شقت
فوق هامات الأودية وقن الجبال ، بشكل يسهل معه اجتياز السيارات
بدون خطر أو خوف ، لأن سائقى السيارات فى لبنان ، من أمهر سائقى العالم
وتقاس مهارتهم بتعرج الطرقات وصعوبة التصعيد فيها ، على أنهم يقودونها
بسرعة جنونية لا هوادة فيها ، فقلما نسمع بحدوث حوادث . فالسائق
البنانى يتحكم فى عجلة القيادة ، كما يتحكم الطفل فى لعبته .

راق هذا الحديث فى نظر السائق حسن فقال :

— هل أنتم خائفون ؟ نحن ما زلنا فى مستهل التصعيد فى الجبال ،
فعند ما نبلغ رأس الشقعة ، وهو أرفع مرتفع فى لبنان ،
ماذا تقولون ؟

أجابت سلوى : نقول بأننا تحت رحمة ربنا ، ورحمة قيادة سيارتك
فضحكنا بعد وجوم من روح حسن المرحه ، الروح التى يتصف بها
جميع أهل لبنان ، فأوقف مذياع السيارة وطاب له الغناء ، وأخذ يطر بنا
بصوته الرخيم بالأغاني اللبنانية ، من عتابا ومواويل والسيارة ترتقى بنا الجبال ،
وكانت الوديان تردد صدى صوته العذب .

وقد مررنا بكثير من القرى والداكر ، وكان أهلها يقابلوننا بالترحيب ،
لأن روح المدنية الزائفة وما فيها من كذب ورياء لم تتسرب إليها بعد .

أميون

ولما أشرفنا على أميون القائمة على أكمة عالية تطل على مناظر غاية ما يكون من الروعة والجمال ، أوقفنا سيارتنا وقمنا بجولة فيها ، فرأينا في سفح الجهة الشرقية منها كهوفاً عديدة ، كانت في الماضي منازل للنسك ، وحقولا تغص بأشجار الزيتون ، يرجع تاريخ غرس بعضها إلى مئات السنين وزرنا كنيسة القديس جرجس عليه السلام ، وهي قديمة جداً ، بنيت على أنقاض هيكل وثني قديم ، يقوم بالقرب منها مدفن ، قيل لنا إنه لموريق أحد القائدين ، اللذين أرسلهما الملك يوستينانوس لمحاربة المردة حكام جبل لبنان ، فلاقى حتفه ودفن هناك .

انتقلنا من كنيسة القديس جرجس إلى كنيسة القديس يوحنا ، وقد بنيت على صخرة نحتت فيها عدة قبور أثرية ، يرجع تاريخها إلى العهدين الفينيقي والروماني ، ومن هذا يستدل على قدم هذه القرية القابعة في عقر الجبل . وتشرف أميون على سهل خصبة ، وهي تعد من أكبر قرى الكورة العليا ، مناخها صحي ، وهواؤها عليل ، وماؤها عذب بارد غزير ، وبعد أن اجتازناها في طريقنا إلى كوسبا ، وتقع في جنوبها الشرقي ، رأينا غريبها في المكان المعروف بقصر الناووس آثار خرائب قديمة ، استدلينا منها على وجود مدينة قديمة ذات أبنية ضخمة ، كان لها شأنها عظيم في الماضي .

البربارة وقصتها

استمرت السيارة في صعودها حتى بلغت قرية البربارة ، وفيها مقام متواضع لهذه الشهيدة العظيمة التي ولدت من أبوين وثنيين ، وحكايتها ، أن والدها حبسها في برج لشدة جمالها ، وحسن أخلاقها ، ورقة شمائلها ، لئلا يهيم قلبها بشخص لا يريده هو زوجاً لها . أما هي ، فشرعت من أعلى برجها ترفع عينيها إلى السماء ، وتتأمل بجمال الكون ، وترقب بهاء القمر ، وتفتتن بروعة وجلال الشمس والكواكب الأخرى ، فاستنتجت من كل ذلك وجود خالق عظيم ، وإن الآلهة التي يعبدها والدها ما هي إلا آلهة كذبة ، لا حول لها ولا قوة .

وبقي الأمر كذلك ، إلى أن سمعت هذه الفتاة الشريفة الحسب والنسب بالعلامة المسيحي أوريجانوس ، الذي علمها حقائق النصرانية فأمنت بالآله الواحد ، ونذرت عفتها له .

ولما عزم أبوها على أن يزوجهما بأمر من أمراء بلدها ، اعتذرت بأدب ولطف ، بحجة أنها تريد أن تخدمه بعد أن بلغ من العمر عتياً ، ثم بنى لها والدها حماماً فحولته بيتاً للصلاة . بعد أن فتحت فيه ثلاث كوات على اسم الثالوث الأقدس ، وأخيراً علم والدها بسر تنصرها ، فأخذ يذيقها من صنوف العذاب أشكالاً وألواناً لعلها تتردد عن النصرانية ، ولكن بدون جدوى ، وأخيراً فرت إلى الجبال فلاحق بها ، ولما أدركها قتلها بحد سيفه ،

وعند عودته إلى البيت ، وكان الجو جميلاً ، انقضت عليه صاعقة أماتته لساعته ، وما فتئ المسيحيون يحتفلون بعيد هذه الشهيذة القديسة في الرابع من كانون الأول (ديسمبر) من كل سنة .

وقرية البرباره هي مسقط رأس الشاعر القروي — رشيد الحوري — نزيل البرازيل اليوم الذي يفيض شعره شوقاً وحنيناً إلى لبنان .

حدث الجبة

وبعد أن زرنا مقام هذه الشهيذة العظيمة ، استأنفنا رحلتنا إلى حدث الجبة ، القرية العريقة في القدم ، وتقع على رابية تعلو سطح البحر بمقدار ١٤٥٠ متراً ، بها غابات الشربين والصنوبر والأرز ، وقد أخبرنا العم أبو طنوس بأن الملك الظاهر بيبرس قد هدمها ، ونكل بأهلها ، وأعمل السيف في رقابهم ، عند ما زحف بجيش جرار لمحاربه الروم لأنهم ناصروهم عليه . ومناخ هذه القرية صحى ، وهواؤها جاف ، ينابيعها عذبة باردة ، ومناظرها الطبيعية التي تكتنفها لا تمل العين من النظر إليها . حقاً ان كل بقعة من بقاع الشمال يتمثل فيها الجمال .

حصرون

كانت الشمس على وشك المغيب عند ما بلغنا حصرون ، وهي من أجمل مصايف لبنان الشمالى وأشهرها ، وتقع على كتف وادى قاديشا

مناخها صحى ، وماؤها بارد عذب ، ترتفع عن سطح البحر بمقدار ١٤٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بمقدار ١٢٠ كيلو متراً ، تحيط بها حدائق الفاكهة ، وكروم العنب والتين والغابات ذات الأشجار الكثيفة ، وهى البقية الباقية من تلك الغابات التى كانت تكسو بقاع الشمال .

قضينا ليلتنا فى أحد فنادقها ، فسرنا ما لقينا من حسن المعاملة ، وكرم الضيافة ، التى يتصف بها أهل الشمال . وفى صباح اليوم التالى وكان يوم أحد ، بعد أن تناولنا طعام الإفطار ، أزجى ركابنا إلى الديمان وسط القرية ، فرأينا جماعاً غفيراً من الناس يسير فى الطريق العام ، يتقدمهم أسقف بملابسه الأرجوانية الزاهية ، يزين صدره صليب ذهبي ، وكانت غاية الجميع كنيسة القرية لسماع صلاة القداس ، فراق هذا المشهد فى عيوننا ، وأكبرنا تدين القوم والتفافهم حول زعيمهم الروحي . فذكرنا هذا المشهد بما كان عليه لبنان فى الماضى ، يوم أن كان الرئيس الدينى فى القرية هو بمثابة الزعيم فيها .

الديمان والقصر البطريركى

ولما وصلنا إلى الديمان المقر الصيفى لغبطة البطريرك المارونى فى طريق بطيئة الانحدار تتفرع من الطريق العام ، شاهدنا جمعاً حاشداً من الناس فى فناء القصر الذى يتوسطه فسقية ماء ، قد تدلت فوقها أغصان الأشجار اتخذ بطاركة الطائفة المارونية الديمان مصيفاً لهم منذ ستين سنة خلت

بعد انتقالهم من دير قنوبين القائم على شفير في بطن وادي قاديشا ، وقد قابلنا كهنة الديمان استقبالاً حسناً ، حتى إن أحدهم ، لما عرف أننا غرباء تفضل بمرافقتنا في ردهات القصر ، وأخذ يشرح لنا كل ما تقع عليه عيوننا ، ولما بلغنا البهو الكبير ، لفت نظرنا وجود صورة زيتية كبيرة للمغفور له الملك - عبد الله ، ملك شرق الأردن ، معلقة في صدر البهو ، فسألت الأنسة سلوى الكاهن عن معنى وجود صورة ملك أرضي زمني مع صور أشخاص تجردوا لخدمة ملك أزلي .

ابتسم الكاهن من هذه الملاحظة الدقيقة وقال :

— كان المغفور له الملك عبد الله صديقاً حميماً لغبطة البطريك ، فأهداه صورته عربوناً لهذه الصداقة ، فأمر غبطته بأن تعلق في صدر هذا البهو ، وهو المكان الأكثر لياقة لها ؛ ولست أنت يا آنسة أول من سأل هذا السؤال .

شكرنا للكاهن الفاضل لطفه وكرم أخلاقه ، وبينما نحن منهم بوداعه ، لمحنا غبطة البطريك بملابسه الأرجوانية الزاهية يذرع سطح الدير الذي يشرف على الوادي المقدس ، فأبدت الأنسة سلوى رغبة ملحّة في مقابلته لالتماس البركة ، ولا سيما بعد أن عرفنا أنه قد باع صليبه الذهبي في الحرب الكبرى الأولى ليطعم بثمنه فقراء أبرشيته ، غير أن الكاهن الفاضل ، الذي لم يشأ أن يزعجه ويعكر عليه صفو وحدته واختلاؤه بربه في مثل هذا الوقت من النهار ، اعتذر لنا بلطف ، فاكتمفينا عندئذ بأن تزودنا منه بنظرة خاطفة . وقفنا على رابية نجيل الطرف بالوادي المقدس فإذا منظره رهيب لشدة عمقه

الذى يبلغ نحو ٥٠٠ متر ، ولانحداره السريع ، حتى ليخال للمرء أنه واقف على جرف هار بعيد الغور ، وقد انتصبت على جانبيه جبال عالية كستها الأشجار الباسقة ، كما رأينا تحت القصر ، حديقة مملأى بأشجار الفاكهة والتين ودوالى العنب ، فذكرتنا رؤية هذا الوادى من بعيد ما قاله عنه الراهب الفرنسيسكانى جان بوشيه الذى زار دير قنوبين سنة ١٦١٢ . «هبطنا إلى الدير فى وهاد صخورها صلدة ، سريعة الانحدار ، يكفى النظر إليها لإلقاء الرعب فى النفوس . وكان نزولنا محفوفاً بالخطر والخوف ، ولما وصلنا إلى مقر البطريك ، كانت قلوبنا تخفق من شدة التعب والخوف وقد لاحظ غبطته علينا ذلك ، من وجوم وجوهنا ، والصمت الذى عقد ألسنتنا ، فأمر بأن يقدم لنا فى الحال نبيذاً . بحيث ما كدنا نتناول أول جرعة منه ، حتى عاودنا نشاطنا ، ودبت الحياة من جديد فى نفوسنا .»

قرية بشرى

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل عند ما انطلقت السيارة بنا صعوداً إلى قرية بشرى ، ومعناها بالفينيقية بيت الشرى ، وهى من أكبر قرى لبنان الشمالى ، وتشرف كباقي القرى الأخرى على الوادى المقدس غربى غابة الأرز الواقعة عند سفح جبل المكمل .

ويبلغ ارتفاع بشرى عن سطح البحر بمقدار ١٤٥٠ متراً ، وتبعد عن بيروت بمقدار ١٢٥ كيلو متراً جوها جاف ، وماؤها عذب بارد ، ومناخها

جبل صهي ، فيها كثير من البساتين الياضة ، والحدائق التي يرويها الماء المتدفق من مغارة قاديشا . وبشرى هي مسقط رأس فقيد العروبة الكاتب الكبير جبران خليل جبران ، فكان مولده فيها في السادس من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٩ وقد ترك له فيها ذكريات خلدها فيما نظم ورسم وكتب .

على ضريح جبران

وبينما كانت السيارة تدلف بنا في طريقها إلى الأرز ، لحنا لافتة كتب عليها عبارة اهتدينا بها إلى الطريق الموصل إلى متحف وضريح جبران ، فتركنا سيارتنا في الطريق جانباً ، وسرنا في دروب ضيقة وعرة وسط الأشجار الباسقة ، ينبجس الماء من صخورها القائمة على الجانبيين ، فيسيل إلى غير غاية . ولما وصلنا إلى ربوة عالية شقت في وسطها طريق ضيقة ، اجتزناها بنخوف وحذر ، إلى دير مار سركيس وهو عبارة عن كنيسة صغيرة قديمة منقورة في قلب صخر تطل على وادي قاديشا المهيب ، وتكتنفها الأشجار من جميع نواحيها ، فدخلناها بنخوع فإذا في ركن منها تابوت غاية في البساطة ، يحتوى على جثمان جبران ، وقد علقت فوقه صورة مكبرة له ، بدت على محياه فيها علامات الحزن والتفكير العميق .

في أي شيء كان يفكر جبران يا ترى ؟ إنه كان يفكر بلا شك في هذه الحياة ، وفيما وراء الحياة .

أجل ، إن الحياة تتدفق من هذه الصورة ، التي يحرق صاحبها بعينه الواسعتين في الزائرين ، وكأنى به يرحب بهم ، ويرجو لهم طيب الإقامة في

ربوع الشمال ، التي نزع عنها ومات وهو يهجمس بذكرها ، إن جبران مات ، ولكنه حتى بمؤلفاته العديدة ، ورسوماته الكثيرة التي أودع فيها أفكاره الفلسفية العميقة ، وبعد أن وقفنا مدة أمام تابوته مترحمين عليه ، وقد عقد المنظر الرهيب ألسنتنا ، سألنا حارسة القبر وهي سيدة لطيفة متوسطة العمر ، مليحة الشكل ، قوية البنية ، لماذا دفن جبران في هذه البقعة بالذات ؟ فأجابت قائلة : تلك كانت وصيته قبل وفاته .

ولكن سلوى التي شغفت بأدب جبران ، تداركت الموقف وقالت : — قرأت عن جبران ، رحمه الله ، أنه كثيراً ما كان يترك مدرسة القرية في صغره ، ويأتى إلى هذه البقعة الهادئة الحميلة ، وكان يلذ له الجلوس على صخورها الصماء التي تشرف على قرية بشرى ووادي قاديشا ، فيخلو إلى نفسه ، ويتأمل في عظمة الطبيعة وما فيها من قوى كامنة ، وفي جمال هذا الوادي وما يحويه من روعة وفتنة ، فتركت تلك المناظر الخلابة في نفس جبران الصبي أثراً من كل ما رأى ، كما سجل خريير الماء المنساب من أعالي الجبال في قلب الوادي ألحاناً شجية ، كان يصغى إليها جبران وهو يستمع إلى همسات قلبه ، وخلجات فؤاده ، حتى إذا اكتملت له تلك الأنغام ونضجت في مخيلته تلك التصورات راح ينشرها على الملأ بقلمه السيل بشكل فلسفى ، وأسلوب أخاذ ، قد انفرد به دون غيره من الكتاب يشعر كل من يقرأه بجمال ما اغترف من مؤونة ، كفته عمره في غربته ، وكان كعمر الورود في قصره .

أجل في هذه البقعة الهادئة من لبنان ، شاءت الأقدار أن يرقد جبران .

حدثيت وأسطورتها

مررنا في طريقنا بحدثيت الضيعة الصغيرة ، المعلقة بيوتها المتواضعة فوق صخور وادى قاديشا ، يحيط بها الأشجار ، والصخور ذات الأشكال الجميلة ، وتقع غربي قرية بشرى . فشاهدنا فيها كثيراً من المغاور المنقورة في قلب الصخور ، كان النساك قديماً يتخذونها مأوى لهم .
وبينما كانت سيارتنا تتابع سيرها نحو الأرز ، راح العم أبو طنوس يحدثنا عن منشأ هذه القرية فقال :

— إن حدثيت لفظة سريانية معناها ، إحدى الستة ، وسبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى الأسطورة التاريخية الآتية :

كان الملك بطليموس الخامس مشهوراً من صغر سنه بسوء سلوكه وقبح سيرته وظلمه لرعيته ، وكان لا يتورع عن ارتكاب أى محرم في سبيل قضاء شهواته واتباع رغباته الجامحة ، إلى أن كرهته رعيته .
فظهرت له الإلهة أفروديت في الحلم ثلاث مرات متتالية ، كانت تقول له في كل مرة ، إذا رغبت في أن تكفر عن خطاياك ، وتقلع عن سيرتك وترضى الآلهة ، فعليك أن تبني لى هيكلًا في جبل لبنان العظيم ، وكذا الأولادى الستة .
طلب بطليموس في المرة الثالثة من الإلهة أفروديت ، أن تبين له المكان الذى ترغب في أن يبني لها هيكلًا فيه .

فقالت له : ضع تمثالاً على ظهر ناقة ، وأرسل وراءها أحد وزرائك الذين تضع فيهم ثقتك ، وفي المكان الذي تبرك فيه الناقة من تلقاء ذاتها ، ابن لى هيكل ، وافعل هكذا مع أولادى الستة .

استدعى بطليموس فى صباح ذلك اليوم أحد وزرائه ، وقص عليه الحلم ، وعهد إليه القيام بهذه المهمة ، فوضع الوزير تمثال أفروديت فوق ظهر ناقة ، بعد أن زينها بالجواهر النفيسة ، والحلى الغالية الثمنة ، فأخذت تطوى فى سيرها الصحارى والقفار ، حتى وصلت إلى جبل لبنان ، فبركت من تلقاء نفسها فى فقرا الواقعة بجوار نبع اللبن ، فوق مزرعة كفر ديبان ، فعندئذ شرع الوزير فى بناء هيكل عظيم عجيب فى بنائه ، تعلوه قبة من النحاس الأصفر الموشى بالذهب ، كان ظلها يمتد حتى يصل إلى عجلتون ، وقد ضاعت اليوم معالم هذا الهيكل ، وبقيت آثاره تشهد فى هذه البقعة حتى يومنا هذا ، ثم بنى بعد ذلك هيكلًا للإلهة أرتاميس الذى يقوم اليوم على أنقاضه دير سيدة طاميش للموارنة ، وقد مر ذكره ، ثم بنى هيكلًا ثانيًا للإله بللون فضاعت معالمه وأقيمت على أنقاضه قرية بللونه ، ثم هيكلًا ثالثًا للإله عجلون ، وتقوم اليوم على أنقاضه قرية عجلتون وهيكلًا رابعًا لرافان وتقوم على أنقاضه قرية ريفون ، ثم هيكلًا خامسًا فى جبة المنيطرة قرب قرية أفقا بجانب نهر إبراهيم ، فاندثرت آثاره وضاعت معالمه ، وكان هذا المعبد مركزا لارتكاب المنكرات وإتيان المحرمات ، وقد هدم الملك قسطنطين الكبير هذا الهيكل ، وبنى مكانه كنيسة على اسم العذراء ، والسادس فى قرية حدشيت ، وقد تقوضت أركانه اليوم ، وأقيم مكانه

كنيسة تحمل اسم القديس رومانوس ، أخبرنا أحدهم ، عند زيارتنا لها بأنهم وجدوا عند ترميمها تمثالا من الرخام جميل الصنع ، فكسروا رأسه ووضعوا جسمه في أساس الحائط .

تلك هي قصة الأسطورة الشائقة ، التي أتحننا بها العم أبو طنوس عن قرية حدشيت ، التي يمتاز نساؤها بجمال شكلهم ، وقوة بنيتهم ، ولطفهم ولا يضارعهم في الجمال إلا نساء حصرون وبقية نساء جميع قرى شمال لبنان .

الفصل السابع

أرز لبنان

وقفت بنا السيارة أمام غابة الأرز التاريخية المعروفة « بأرز الرب » التي تغني بجمالها الكتاب المقدس ، وترنم بذكرها أنبياء العهد القديم ، وكثير من الكتاب والشعراء الملهمين ، القدامى منهم والمحدثين ، فقد كنا في أشد الشوق إلى رؤيتها لكثرة ما سمعنا عنها ، وما قرأنا بشأنها من أنها قطب الجاذبية لكثير من السائحين ، الذين يفدون إلى لبنان ، للتنزه والاستجمام . وتقع هذه الغابة الفاتنة التي تعلو سطح البحر بمقدار ١٩٥٠ متراً وتبعد عن بيروت بمقدار ١٢٥ كيلو متراً على رابية في جبل المكمل عند سفح قمة ظهر القضيبي ، التي هي مع قمتي قرنة السوداء وفم الميزاب ، من أعلى قمم جبال لبنان ، فيبلغ ارتفاع الواحدة منها ٣٤٠٠ متر ، فرأيناها محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة ، قد رفعته الحكومة اللبنانية فوق سور حجري ، كان قد أقامه رستم باشا أحد متصرفي جبل لبنان السابقين ، ويقوم على حراسة هذه الغابة ، حراس معينون من الحكومة للضرب على أيدي أولئك الذين تحدثهم نفوسهم بالعبث بها ، أو الإساءة إليها ، بقطع أغصان من أشجارها الباقيات ، وعددها اليوم نحو ٤٥٠ شجرة ، ما بين كبيرة وصغيرة .

كان الفينيقيون في الماضي ، يصنعون من خشب الأرز الذي كان يكسو جبال لبنان ، سفنهم التي حملت من شواطئهم مجدهم ، ونقلت إلى جميع أقطار العالم حضارتهم ، وعلمهم وفنهم ، ونخبرنا الكتاب المقدس بأن سليمان الحكيم الملك ، قد شغل أوفام من الأيدي العاملة في قطع شجر الأرز من أحراش لبنان ، لبناء هيكله العظيم في أورشليم ، كما أن البابليين والآشوريين والمصريين القدماء قد استخدموا هذا الشجر في صنع سفنهم ، وعمل أثاث بيوتهم ، وإعداد توابيت موتاهم ، وبناء هياكل آلهتهم ، اعتقاداً منهم أن الفساد لا يتطرق إليه ، ولا يجرؤ السوس على أن يتخذله مأوى فيه ، ولذا اعتبره القدماء إلهاً اتخذ له شكل الشجر .

ويعتبر الأرز ملك أشجار الفصيلة الصنوبرية ، وأشرف أشجار الدنيا أصلاً ، وأكرمها نوعاً ، وفروعه الدائمة الاخضرار ، وأغصانه الغبراء الظل قوية غليظة ، تمتد امتداداً أفقياً على جانبيها ، تقصر كلما طالت الشجرة وعلت أصولها ، وقربت الفروع من قممها ، فيكون للشجرة شكل مخروطي ذات منظر رائع فاتن ، يأخذ بمجامع القلوب . وقد قسنا محيط ساق شجرة على سبيل الاختبار ، فوجدناه ١٦ متراً تقريباً وارتفاعها أربعين متراً ويطرح شجر الأرز ثمرأً بيضاوياً يشبه كوز الصنوبر في شكله ، إنما لا يؤكل ، ويبقى عالقاً في أمه الشجرة إلى أن يحف ويبس وتتفتح مسامه ، فينثر على الأرض ما فيه من بذور تدفنها الثلوج في جوفها ، ثم لا تلبث أن تنمو رويداً رويداً حتى تصبح شجرة ذات أصول ، وقد رأينا كثيراً من هذه الشجيرات النامية ، ويبلغ عمر بعضها عشرات السنين ، ومع ذلك ما فتئت أغصانها الصغيرة تلامس الأرض ، لبطء نمو هذا الشجر .

أرزة لامارتين

دخلنا الغابة التاريخية برفقة أحد الحراس ، فأحسنا بداخلنا برهبة وخشوع عند ما ولجنا بوابة من خشب حقيرة ، لا تتناسب مع عظمة الأرز ، ولا تليق بأن تكون مدخلا لذلك الهيكل المقدس ، الذى هبطنا إليه فى سلم حجرى قد تأكلت بعض أجزائه ، وكان النسيم العليل يهدد أغصان الأشجار الجبارة برفق ولين ، ويسوس لها بأحاديث يذكرها فيها بالقوم الغابرين ، ويحدثها عن القادمين ، فكانت تلك الأغصان تعلو وتهبط ببطء كأنها فلك تؤرجحه الأمواج فوق صفحات بحر تعبث بمائه الرياح ، ولما أوغلنا فى الغابة بعد صعود ، أخذ الحارس يشرح لنا تاريخ كل شجرة من تلك الأشجار ، وما اقترنت به من أحداث ، ولما بلغنا أرزة ضخمة الساق ، شامخة الارتفاع ، وقف الحارس أمامها وقال :

— هذه أرزة لامارتين ، الشاعر الفرنسى الشهير ، الذى زار هذه الغابة سنة ١٨٣٢ فانظروا إلى اسمه فقد نقشه على جذعها ، كما نقش اسم ابنته جوليا التى كانت ترافقه فى رحلته تخليداً لهذه الزيارة .

أرزة الناسك

وسار بنا الحارس قليلا إلى أن وقفنا أمام شجرة أرز مجوفة فقال :

— وهذه أرزة الناسك ، ويبدأ تاريخها من اليوم الذى دب فيه الخلاف

بين أمير من أمراء العرب ، وبين ذويه فترك الإمارة وأبتهها ، وقصر والده وعظمته ، وزهد في العالم ومسرته ، وأخذ يضرب في مناكب الأرض ، ويطوف في بلاد الله الواسعة ، إلى أن حط رحاله في هذه البقعة المباركة من لبنان الشمالى ، وذلك منذ مئات الأعوام .

كان الوقت صيفاً ، والجو جميلاً ، والهواء عالياً ، فطابت له الإقامة في رحاب هذه الغابة ، ولكى يتقى هذا الأمير خطر الوحوش الضارية ، التى كانت تملأ غابات لبنان في ذلك الزمان ، نقر له مأوى في جذع هذه الشجرة كما تشاهدون ، وأقام فيها يأكل من المنّ الذى كان يهبط عليه من السماء ، ويشرب من ينبوع انبثق من جذع الأرز المجاورة .

اقتربنا من الأرز الأخيرة وتلمسنا الماء في جوفها ، فإذا هو حقيقة واقعة ، غير أن الدكتور خليل قد علل وجود الماء في تلك الأرز اليابسة ، إلى ذوبان الثلج وتسرب مائه في الأرض وامتصاص جذع تلك الشجرة له .

كنيسة في غابة

سرنا مسافة أخرى ، فرأينا في الجهة الشمالية من الغابة المقدسة كنيسة صغيرة ، تقوم على رابية فيها ، هى مزار لجميع رواد غابة الأرز على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، بناها الطيب الذكر البطريرك يوحنا الحاج منذ سبعين سنة تقريباً ، وقد صنعت جميع نجارتها وهياكلها من خشب الأرز . ويغمر هذه الكنيسة الثلج في أيام الشتاء ، كما يلبس أشجار الأرز



كنيسة في غابة الأرز يحج إليها الناس من جميع المذاهب

وفروعه وشاحاً ناصع البياض ، فتظهر كأنها تماثيل جبارة ، ذات سواعد قوية قائمة في سفح ذلك الجبل الأشم ، تهزأ بعاديات الدهر ، وتسخر بالعواصف التي لم تقو على تقويض أغصانها الشاحخة ، فتصبح تلك البقعة وما يجاورها كصفحة ملساء بيضاء ، كتبت يد الطبيعة سطورها بمداد خفي هو خليط من بكاء الشتاء وزفرات الخريف لا تلبث أن تمحوها شيئاً فشيئاً شمس آيار الدافئة ، فتبتسم لها الحقول بعد عبوسها ، وترنم الوديان بعد جمودها ، ويغرد الطير فوق الأفنان ، كما يهرع الإنسان بدوره بعد غياب طويل إلى بقعة الأرز الخالدة الرابضة كالأسد في سفح أعلى قمم جبال

لبنان ، يعمل فيها فأسه ، ويزرع الحب ويرجو الثمار من الرب .
يا لجمال الأرز ويا لعظمته !! إن روح لبنان تتمثل فيه ، فلذا
اتخذته اللبنانيون شعاراً لهم وزينوا به وجه رايتهم المحبوبة التي هي آية مجدهم
وعنوان عظمتهم .

فهذه الأشجار الخالدات ، بل التماثيل الحية ، كما قال عنها لامارتين
هي رمز القوة ، وعنوان العظمة ، يرنو الكتاب والشعراء دوماً بأبصارهم إليها
ليستلهموها ما ينشدون ، وهي الصامتة في علياء مجدها ، وفي صمتها
الفصاحة والبلاغة والبيان ، وليستوحوا منها الهدوء والصبر على الشدائد ، وفي
هدوئها الحركة الدائمة ، وفي صبرها الثبات على محن الدهر ، ما استقبلت
أغصانها شمس الصباح .

شهد الأرز غزوات الفراعنة واليونان والفرس والرومان والعرب والترك ،
رحل عنه جميع هؤلاء ، أما الأرز فباق في مكانه ، خالد خلود الدهر ،
يحرس من أعلى قمة ظهر القضيبي لبنان أكثر من أربعة آلاف عام .
وبينما تغمرنا موجة من ذكريات الماضي البعيد ، أعادت إلى أذهاننا
أعجاد الأرز الخالد ، يوم كان يملأ تلك البقاع ، ويتوج بلونه السندسي
قمم جبال لبنان ، قبل أن يكون صفحة من صفحات التاريخ ، وإذا
بصوت النبي حزقيال يرن في آذاننا ، فيتجاوب رنينه في أودية الزمن السحيق .
«هوذا أرزة بلبنان ، أرزة بهيجة الأفنان ، غيباء الظل ، شامخة القوام ،
قد عظمتها المياه ، وجرت الأنهار من حول مغرسها ، فأرسلت مجاريها إلى
جميع أشجار الصحراء ، فارتفع قوامها فوق جميع الأشجار ، وكثرت

أغصانها وامتدت فروعها من كثرة المياه .

في أغصانها عششت جميع طيور السماء ، وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء ، وفي ظلها سكنت الأمم الكثيرة ، فصارت بهيجة في عظمتها وفي طول عذباتها ، فغارت منها جميع أشجار عدن التي في جنة الله . «
فسلام عليك وألف سلام يا أرز لبنان ، أرز الأجداد البهيج الأفنان

المصعد الكهربائي

استرعى نظرنا في غابة الأرز المصعد الكهربائي المعلق ، وهو عبارة عن كرسي مربوط ربطاً محكمًا في أسلاك ، ينقل الراكب فيه إلى قمة جبل المكمل التي يكلل الثلج هامتها ، لقاء بضعة قروش في دقائق معدودات . ارتقيننا هذا المصعد ، فسار بنا معلقاً في الفضاء ، بين الأرض والسماء ، ماراً فوق الأشجار الباسقة الأغصان ، والوديان العميقة ، والجبال الشاخنة الارتفاع ، حتى خيل إلينا أننا في الطائرة بين القاهرة ولبنان ، ولما بلغ المصعد غايته ، هبطنا منه فرحين ، فرأينا لأول مرة في حياتنا الثلج على الطبيعة الخافلة بأى السحر والجمال ، وبعد أن مكثنا مدة طويلة ، وتزودنا بنظرات من فيض بهاء الثلج الناصع البياض ، عدنا أدراجنا إلى الفندق ، وجمال منظر الثلج لا يبرح من خيالنا .

وفي جلسة مع أحد مهندسي الحكومة المشرفين على أعمال الطرق قال :
— إن الحكومة اللبنانية قد أنشأت أخيراً طريقاً جديداً ، يربط الأرز

ومنطقة لبنان الشمالى وبعلبك وسهل البقاع وزحلة ، وقد شق هذا الطريق الذى يعتبر من أروع الأعمال الهندسية ، فوق قمم الجبال العالية ، وعلى حواشى الوديان العميقة .

جولة فى وادى قاديشا

تركنا غابة الأرز بعد أن قضينا فيها زهاء أربع ساعات ، ونحن نتنقل فى أرجائها بين هبوط وصعود ، لم نكن نقوى على مفارقتها مسحورين بجمالها ، مأخوذين بروعتها ، وذهبنا إلى الفندق الذى يطل عليها حيث استرحنا ، وقضينا فيه ليلة كانت غرة فى جبين الدهر ، فشاهدنا القمر يطلع من وراء الجبال التى يتوج قممها الثلج ، حتى إذا استقر فى الرقعة الزرقاء ، أرسل أشعته الفضية على الغابة التاريخية ، فتسللت خلصة من بين أفنان الأشجار ، فبانت لها نقوشاً على الأرض من أبدع ما خطته يد إنسان .

أعجبت الأنسة سلوى بهذه النقوش ، وهى الأدبية الفنانة ، فتناولت ورقة وقلماً وأخذت ترسم بعضها كى تستخدمه فى أعمال التطريز ، وهكذا قضينا ليلتنا فى ذلك الجو الساحر ، الذى أحسنا فيه أننا ندنو من الخالق عز وجل بقلوبنا ، التى تلقنت من الأرز الخالد درساً فى الجمال حدا بنا إلى أن نتساءل ، هل نحن فى حلم أم فى يقظة ؟

وفى هدأة الفجر غادرنا الفندق بصحبة شاب من شباب الشمال الأشداء ، تكرم بمرافقتنا مشكوراً إلى وادى قاديشا الفاتن ، فتقدمنا وتبعناه

بجذر مترسمين خطاه في طريق سريعة الانحدار ، كثيرة المهاوى والوهاد
السحيقة ، يكفى النظر إليها لإلقاء الرعب في نفس أشجع الشجعان .

دير سيادة قنوبين

وقد لعنت الأدبية سلوى في أثناء انحدارنا إلى الوادى ، الساعة التى
ألحت علينا فيها بالجمىء معنا ، وبعد سير يقرب من ثلاث ساعات
ونحن نستريح مرة ونتابع سيرنا أخرى في دروب وعرة ، ومسالك ضيقة ،
ونهبط في سلام من الحجارة قد نحتها النساك في الصخور من قديم الزمان ،
فيها جمال وفيها روعة ، تحف بنا الكهوف والمغاور المنقورة في الصخور
على الجانبيين ، وكانت في الماضى مأوى للنساك والحبساء ، وصلنا إلى دير
سيادة قنوبين الشهير ، وهو دير قديم يقع أكثره في داخل مغارة ، نبتت
الأعشاب حول جدرانها ، فلم نر فيه أثراً للحياة ، بعد ما كان في الماضى
حافلاً برجال الدين الذين كانوا يضيفون عليه ألواناً بهيجة من الحياة .

وقد أخبرنا الشاب المرافق لنا ، بأن باني هذا الدير هو الملك فلاقيوس
تاوذوتيوس الكبير سنة ٣٩٥ في القرن الرابع الميلادى ، وقد اتخذته بطاركة
الطائفة المارونية مقراً لهم ، ومركزاً حيوياً لطائفتهم حقبة طويلة من
الزمن ، انتهت بانتقالهم إلى مقرهم الحالى في الديمان ، منذ ستين سنة خلت
تقريباً .

وقد شاهدنا في معبد صغير يبعد قليلاً عن المغارة التى عاشت فيها

القديسة مارينا البتول ، توأبيتا بوضع عمودى ، تحوى رفات ثمانية عشر بطيريركاً من بطاركة الطائفة المارونية ، الذين قضوا نحبهم من زمن بعيد ، كما شاهدنا صومعة منقورة فى صخر ، سقفها واطىء ، ومدخلها ضيق ، فيها كوة تطل على الكنيسة ، حيث كان البطاركة والمطارنة والقسوس ، يقضون الليل فى الصلاة على ضوء مصباح ما فتئت آثاره موجودة حتى يومنا هذا فى كوة فى تلك الصومعة .

ويقوم على حراسة دير سيدة قنوبين ، الذى يخيم عليه اليوم السكون والهدوء ، كاهن شيخ جليل قال لنا :

— إن الأساقفة والنسك ، الذين كانت تطيب لهم الإقامة فى هذه البقاع ، بين الصخور والأدغال ، كانوا يفلحون الأرض ، ويزرعونها بأيديهم ، لكسب قوتهم ، ويرتدون الملابس الحشنة ، وينتعلون الأحذية البدائية فى صنعها ، ويزينون صدورهم بصلبان صنعوها من خشب الأرز ، فكانت الصلبان التى تتألى على صدورهم ، أثمن بكثير ببساطتها من الذهب الإبريز . نعم كانت صلبان أولئك الأساقفة من خشب ، وإنما قلوبهم كانت من ذهب .

دير مار أنطونيوس قزحيا

وبعد أن طفنا فى جميع أرجاء دير سيدة قنوبين ، زایلنا إلى دير مار أنطونيوس قزحيا ، ومعنى قزحيا ، كثر الحياة ، لكثرة ما يجرى فيه

من المعجزات والخوارق على يد صاحب المقام القديس أنطونيوس الكبير الذي قضى حياته في قفار مصر .

ويقع هذا الدير في الجهة الشمالية في سفح وادي قاديشا . وقد رأينا أن أكثر مبانيه الأثرية التي يرجع تاريخها إلى ألف سنة تقريباً ، في داخل صخور ومغاور . أما كنيسته ، فهي عبارة عن مغارة منقورة في الصخر ، يقيم فيها المجانين ، الذين يرسلون إليه طلباً للشفاء فيتلو رهبان هذا الدير صلوات على رأس المريض ، حتى يتم له الشفاء .

وقد بالغ هؤلاء الرهبان الذين لمسنا فيهم طيبة القلب ، والزهد في أمجاد هذه الحياة ، ومعيشة التقشف ، في إكرامنا ، والترحيب بنا ، وقدموا لنا نبذاً طيب المذاق . من العنب الخالص ، كما أهدانا رئيسهم تذكارات دينية من الدير ، اتخذناها أحجية تقينا خطورة الطريق في عودتنا .

ويعتبر وادي قاديشا مهد الطائفة المارونية ، فإليه لجأ المسيحيون الذين التفوا حول القديس مارون في وادي نهر العاصي في سوريا ، تخلصاً من اضطهاد اليعاقبة لهم ، وقد كان شمال لبنان وقتئذ غير أهل بالسكان ، بل كانت الغابات الكثيفة ، تكسو جميع بقاعه .

مغار قاديشا

عدنا من وادي قاديشا إلى حصرون بعد الظهر ، وكان التعب قد أنهك قوانا ، فلم نتمكن من متابعة رحلتنا ، فقصصنا فندقاً أثرنا أن نقضي

فيه بقية يومنا ، حتى إذا أصبحنا ، نهضنا أوفر نشاطاً ، فغادرناه إلى مغارة قاديشا رأساً ، وتقع في لحف جبل الأرز حتى إذا بلغنا الطريق المؤدية إليها قبيل الظهر ، تركنا سيارتنا جانباً ، وترجأنا في طريق ضيقة وعرة محفورة على حواشي الجبال ، لا يسلم من يسلكها من التعرض للأخطار ، وكانت هذه الطريق تضيق أحياناً ، حتى يكاد الجبل المنتصب فوقنا يلامس رؤوسنا ، وتتخرج حيناً آخر ، لنقف فيها ونشاهد الوادي العميق تحت أقدامنا . ولما أشرفنا على المغارة ، وهي إحدى عجائب الطبيعة ، سمعنا هديرًا قويًا ، ثم رأينا جموعاً حاشدة من الناس تملأ الساحة التي أمامها ، وقد استهوى الجميع جمال الحديث عنها ، فأتوا لزيارتها . ولما مثلنا أمام مدخلها ، ورأينا الماء الغزير الذي يتدفق منها ، وقفنا برهة ونحن نحدق النظر في داخلها ، وقد عقد الدهش ألسنتنا من فرط روعتها وجمال ما نرى .

قصة اكتشافها من الداخل

وقف العم أبو طنوس في وسطنا كعادته ، وما كاد يتدفق في الحديث عن هذه المغارة العظيمة ، حتى التف حوله جميع الزائرين ينصتون إليه فقال :

— إن اكتشاف ما في داخل هذه المغارة المعروفة منذ القديم ، يرجع إلى زمن ليس ببعيد ، وذلك عندما فكر الشيخ شبيعه أحد أعيان قرية

بشرى ، والمنسيور خورى ، فى أن يكتشفا داخلها ويبلغا إلى قرارة منبع الماء المتدفق منها ، فسمعا هديرًا من الداخل يصم الآذان ، فنقرا الصخر بمعاونة بعض العمال من ناحية مصدر الصوت فأحدثوا فيه فجوة تتسع لدخول رجل واحد . ما كاد يدخل فيها حتى عاد أدراجه جزعاً ، وقد تملكه الفزع من شدة الأصوات المنبعثة منها ، ثم دخل عامل آخر بعد ما استعان بجبل متين أمسك رفاقه بطرفه ، وأمسك هو بالطرف الآخر ، وحمل مصباحاً ينير له ظلمات المغارة ، فما كاد يدخل ويجيل الطرف فيما حوله ، حتى رأى نفسه كأنه فى معرض يحوى تماثيل من المرمر تدلت من سقف المغارة ، فخرج وهو مأخوذ بجمال ما رأى ، ولسان حاله يقول : إن ما فى داخل هذه المغارة لم تره عين ولم تسمع به أذن ، ذلك كان أول اكتشاف لها من الداخل منذ ربيع قرن من الزمان تقريباً . ثم وسعت المغارة بعدئذ ، وأضيئت جنباتها بالأنوار الكهربائية الساطعة ، بعد أن تم مشروع توليد الكهرباء من المياه المتدفقة منها فى قناة حفرت فى لحف الجبل بطول ٩٥٠ متراً ثم هوت بأنبوب ضخيم إلى قاع الوادى حيث بنت شركة قاديشا الوطنية للإنارة والكهرباء ، مصنعاً لتوليد التيار الكهربائى وهو يغذى اليوم مدينة طرابلس وجميع قرى الشمال

المتحف الربانى

دخلنا المغارة بعد هذا الحديث الشائق عنها فى طريق صخرى كلسى مملأ قلوبنا الخشوع ، كأننا فى معبد مقدس له حرمة وجلاله ، ولما أوغلنا

داخلها وشعرنا ببرودة الجو الذى يكتنفنا ، رأينا فيها عجباً ، رأينا جميع المناظر التى تعيها ذاكرتنا مثل الأهرامات ، وأبى الهول بأنفه المبتور رابضاً فى مشارف صحراء الجيزة ، كما شاهدنا منظرأ يشبه توت عنخ آمون مسجى فى تابوته بالحالة التى رأيناه فيها فى دار الآثار المصرية منذ سنوات ، وسوى ذلك من المناظر التى كنا نتخيلها ، فكانت تظهر أمامنا بوضوح .

وقد لفت نظرنا الدكتور خليل ، إلى منظر يشبه جامع آيا صوفيا فى استانبول ، ومآذن الجامع الأموى فى دمشق ، وهى كالعرائس تنجلي فى شكلها ، هذا عدا الشموع المتدليات من السقف ، التى لا يحصرها عد ، كأنها معروضة فى سوق من أسواق الشماعين .

إن مغارة قاديشا هى حقيقة متحف ربانى ، قد نحتها يد الطبيعة فى جوف الصخور ، من أقدم العصور ، فأجادت النحت وأبدعت فيه . وقد علل الدكتور خليل ، أستاذ علم طبقات الأرض ، وجود هذه المغارة ومثيلاتها فى لبنان بأن الثلج الذى يكلل جبل المكمل عندما يذوب ، يشق له طريقاً فى الصخور الكلسية ، فيحدث فيها فجوات ، تسيل فى أقنية جوفية ، تتسرب فى الصخور ، إلى أن تنتهى بها خاتمة المطاف إلى مكان واحد ، هو الذى تكونت فيه هذه المغارة العجيبة . أما وجود الرواسب المتدليات من سقف المغارة ، والتواء التى تشاهد على جانبيها ، فتحدث من ترشيح المياه من السقف ، وتجمده من شدة البرودة ، وهو يحوى غاز الكربونيك ، فترسب مذوباته وتكون من هذه الرواسب المناظر الطبيعية ، التى تظهر على شكل تماثيل حية .

طربوش سيدنا نوح

تابعنا سيرنا إلى الداخل ، ونحن نعتمد تارة على الجدران التي تنضح بالماء ، وطوراً على الحاجز الذي يفصلنا عن مجرى المغارة العميق ، يتقدمنا دائماً العم أبو طنوس ، إلى أن انتهينا إلى مكان في جوفها وقف فيه وقال بأسلوبه الفكاهي وروحه المرحّة :

— انظروا إلى الفجوة الغائرة في السقف ، وتأملوها جيداً . ماذا تشبه يا ترى ؟ أمانحن فحدقنا النظر فيها وتأملناها ، ولكن الله لم يفتح علينا أن نعرف أكثر من أنها فجوة كبيرة في داخل المغارة .

وأخيراً قال العم أبو طنوس : إن هذه الفجوة هي طربوش سيدنا نوح أبي البشرية ، عليه السلام ، وقد نسيه في هذا المكان ، يوم أن كان يقيم في لبنان ، قبل أن يصنع فلكه استعداداً لاستقبال الطوفان ، ولكنه تحجر وأخذ يكبر بمرور الأيام ، وصار كما تشاهدون ، مغارة في قلب مغارة . ضحك جميع الحاضرين من خفة روح العم أبي طنوس ، ومن مقدرته على سرد الوقائع ، التي كان يلبسها لباس الجد ، ومن تعليله الطريف لهذا التجويف .

اجتزنا بعد ذلك ممرات أخرى كانت تضيق حيناً وتوسع حيناً آخر ، إلى أن بلغنا مكاناً ، ينتهي بباب حديدي كانت فيه نهاية تطوافنا في داخل هذه المغارة ، فعدنا من حيث أتينا ، وصوت هدير الماء يصم آذاننا

ولما وصلنا إلى باب المغارة ، ملأنا إناء آكان معننا من حوض الماء الواسع فيها ،
وأفرغناه في جوفنا ، فإذا هو مثلج عذب .
وتمتد مغارة قاديشا إلى مسافات بعيدة تحت الجبال لم تكتشف بعد ،
وتعنى الحكومة اللبنانية اليوم عناية خاصة بمثل هذه المغاور ، والإفادة
من مائها ، فائدة لا تقتصر على رى الأراضي فحسب ، وإنما تتعداها
إلى الانتفاع بها في الأغراض الصناعية الأخرى ، على ضوء النظريات
العلمية الحديثة ، التي يدرسها فنياً جماعة من المهندسين بمعاونة بعض
رجال المال والأعمال .

إهدن

ودعنا الأرز ووادی قاديشا ومغارته الفاتنة العجيبة ، والعين لم تشبع مما
رأت ، فانطلقت السيارة في طريق ممهدة إلى إهدن ، فرحنا نسائل أنفسنا في
أثناء الطريق ، هل يتاح لنا ياترى أن نعود مرة أخرى إلى هذه البقعة المباركة
من لبنان ، فنملاً عيوننا من جمال أرضها ، ونشبع رثاتنا من النسيم العليل
الذى يهب عليها ، ونظفيء ظمأنا من الماء البارد العذب الجارى في واديه ؟
حقاً إن مثل هذه التصورات قد جالت في خاطرننا ، وتركنا أسرى
تلك المناظر الخلابة ، ولما أشرفنا على أهدن جارة الأرز الرابضة على سفح
جبل المكمل ، بميل إلى الجنوب بين البقية الباقية من أشجار الجوز التي
كانت تكسوها في الماضي ، وأشجار الشربين ، والصفصاف والسنديان
(٧)

بدت لنا منازلها الجميلة ، يتوج بعضها القرميد الأحمر ، وحدائقها اليانعة التي ترينها ، وكرومها التي تتلأأ فيها عناقيد العنب ، ورأينا في الجهة الشمالية من إهدن ، آثار قلعة أثرية ، قيل إن سيف الدين قلاوون سلطان مصر قد هدمها عند محاصرته لها ، عقاباً لأهلها على مقاومتهم له ، كما ظهر لنا في الجهة الشمالية الغربية قمة شاهقة تكاد تكون عمودية في ارتفاعها ، بدت لنا منها عند ما تسلقناها المدن الساحلية الفاتنة ، والبحر الفنيقي الرائع ، ووادي قاديشا الرهيب ، والغابات الكثيفة النضرة التي تحيط به والقرى الصغيرة المتناثرة حوله .

ليس هناك أمتع من منظر البحر بساحله المتعرج الطويل ، والجبل بألوان صخوره ، وهي بين بيضاء وصفراء ورمادية وبرتقالية يكلل بعضها الغابات .

كنيسة في حصن

ويقوم على هذه القمة السامقة حصن قديم ، يرجع تاريخه إلى العهد الروماني . حوله الإهدنيون إلى كنيسة صغيرة ، تعرف « بسيدة الحصن » . كانت إهدن في الماضي تلقب بإهدن الجوز ، لوفرة ما كان فيها من هذا الشجر المعمر ، غير أن القوم قطعوا أكثره ، وزرعوا مكانه أشجار الفاكهة على اختلاف أنواعها ، وأشهرها التفاح المعروف بطيب رائحته ، ولذة طعمه ، وحسن منظره .

وقد وصف أحد الأدباء تفاح إهدن فقال : بياضه لبنى ، وحمرة

ياقوتية ، وخضرته زمردية ، ورائحته مسكية .
لقد صدق هذا الأديب في وصفه لتفاح لبنان .

متنزهات إهدن

وتحيط بإهدن المتنزهات الجميلة ، والغابات الكثيفة ، وأشهرها الغابة الواقعة في الجهة الشرقية الشمالية منها وهي متنزه رائع ، يقصدها المصطافون ، للتمتع بمنظر الأشجار الباسقة من سرو وشربين وصنوبر وسنديان وبلوط وأرز . وتنساب في هذه المتنزهات المياه العذبة الباردة . تجولنا في المساء في هذا المصيف الفاتن ، وقد أحالت الأنوار الكهربائية المنبعثة من كل مكان فيه ليله الدامس ، إلى نهار واضح باهر ، فلمسنا روح المرح والسرور تطفح على وجوه القوم ، الذين اكتظت بهم الطرقات ، وضائق بهم المقاهي والمحال العمومية على رحبها . ولما تقدم بنا الليل ، وكادت الشوارع والطرقات تقفر من السابلة ، عدنا إلى الفندق النازلين فيه حيث قضينا ليلتنا .

الإهدنيات الفاتنات

ولما كان الصباح غادرنا الفندق ، فطفنا في أسواق إهدن وساحاتها الرحبة ، وكانت تموج في مثل هذا الوقت بأسراب الغيد الحسان من

الإهدنيات الفاتنات ، المياسات القد ، الرشيقات القوام ، وقد حبتهم الطبيعة بوجوه تحاكي البدر في استدارته ليلة التمام ، ووجنات يغار الورد من رؤيتها ، وعيون كأنها عيون المها ،

كان إعجابنا بأولئك الإهدنيات الجميلات وما يتصفن به من الظرف واللفظ المقترنين بالحشمة والوقار ، ليس بأقل من إعجاب الآنسة سلوى بهن ، فهن زينة بلدتهن ، يفتحن صدورهن للغريب ، لأن كرم الضيافة من شيمتهن .

دخلنا حانوتاً تملكه فتاة رمت الطبيعة على وجنتيها وردتين ، فابتعنا منها تفاحاً أحمر الحدين ، ثم دلفنا إلى حانوت آخر ، بعد أن انتقينا منه بعض تذكارات مصنوعة من خشب الأرز رضىنا من الغنيمة بالإياب .

نبع مار سركيس

امتطينا سيارتنا إلى نبع مار سركيس ، الواقع في لحف جبل يتفجر مائه البارد العذب الصافي بقوة من أحشاء صخور صماء نبتغى الراحة ، فإذا هو من الروعة والجلال بمكان ، يعلوه شجر الشربين الذكى الرائحة وقد أقيمت على امتداد مجراه المقاهى والمطاعم ، وكانت تكتظ بالذين احتلوا كل بقعة حوله . وبعد بحث شديد ، عثرنا على ركن خال منغل تظله شجرة شربين تعانق أغصانها شجرة صنوبر متفرعة الأغصان ، فجلسنا نتناول طعامنا من « الكبة النية » التى قدمها لنا المطعم ، على نعमत

خريير الماء ، ورقة همس الهواء ، وتمتع العين بجمال المناظر التي تحف بنا ، ونشنف آذاننا بسماع تغريد الحساسين الجميلة الشكل تتنقل فوق الأفنان .
وقد أحضر لنا خادِم المطعم في نهاية الطعام ، بطيخة كبيرة على طبق ، انتشلها من مجرى النبع ، وقد فلقها مائوه إلى فلقتين ، لشدة برودته فأكلناها بشهية . إن « الكبة النية » هي أكلة لبنان الوطنية .

يوسف بك كرم بطل لبنان

بعد أن أخذنا بحظنا من الراحة في ظل أشجار نبع مار سركيس غادرناه إلى كنيسة القديس جرجس ، لزيارة ضريح بطل الشمال ، يوسف بك كرم ، فلما وصلنا إلى الساحة التي تحيط بالكنيسة ، ظهر لنا تمثاله ، وقد أقيم على نصب مرتفع ، وهو بزيه العربي الأنيق ، وطرבוشه المغربي الطريف ، ممتطياً صهوة جواد عربي أصيل ، ومتمنطقاً بحزام من الكشمير ، وقد جرد سيفه من غمده ، كأنه يتأهب للطعان .

وقفنا أمام هذا التمثال برهة مبهوتين نتأمله ، فأعادت إلينا رؤيته ذكرى صاحبه العظيم ، وما اقترن به تاريخ حياته من أحداث جسام ، سجلت له بطولته بحروف من نور .

دخلنا الكنيسة وكانت غاصة بالزائرين ، فاقتربنا من ضريحه فشاهدنا جسمانه الطاهر مسجى في داخل تابوت له غطاء من زجاج ، وهو بزيه العربي ، وقد بدت على ملامح وجهه بعض التغيرات الطفيفة ، وبعد أن

صلينا على روحه الطاهرة ، عدنا إلى الساحة ووقفنا أمام تمثاله لنستمع إلى حديث العم أبي طنوس عن تاريخ هذا البطل العظيم فقال :

— في أواسط القرن الماضي ، هبَّ أسد الشمال من عرينه ، وشن على الدولة العثمانية حرباً عواناً ، ظلت مستعرة الأوار زهاء سنة ، عجزت الجيوش العثمانية في خلالها عن الفتك به ، أو النيل من رجاله الصناديد الأبطال ، لما كانوا يأتونه من ضروب البسالة والبراعة في فنون القتال .

ومن أعماله الباهرة أنه انتصر بجيشه الذي لم يزد عدده عن أربعمائة مقاتل في قرية بنشعي ، على عشرين ألف مقاتل من الأتراك ، فهزهم ونكل بهم ففروا مذعورين في تلك الجبال لا يلوون على شيء .

وفي الوقت الذي كان فيه بطل الشمال ورجاله سائرين إلى قاطع بيت شباب لخوض آخر معركة مع الأتراك ، وهم في طريقهم إلى بيت الدين للاستيلاء عليها ، توقف عن القتال فجأة ، بناء على دعوة تلقاها من نابليون الثالث إمبراطور فرنسا ، يرجوه فيها الكف عن القتال والسفر إلى فرنسا ، فأعد كرم العدة ، وبعد أن ودع رجاله ، شد رحاله إلى باريس في ٣١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٦٧ على ظهر الباخرة « له فوربان » تاركاً جبال لبنان الحميلة ، ومسقط رأسه إهدن ، ولما وصل إلى باريس قابل نابليون الثالث ، وتفاوض معه في مسألة تحقيق استقلال لبنان ، وظل هذا البطل الهمام يتنقل في عواصم أوروبا ، يدافع بجميع الطرق السلمية عن قضية لبنان العادلة ، وهي استقلاله التام ، إلى أن وافته منيته في السابع من شهر نيسان (أبريل) سنة ١٨٨٩ في مدينة نابلي ، وهو

يلفظ اسم لبنان الحبيب وكان له من العمر سبعة وستون سنة .
ولما وصل خبر وفاته إلى لبنان ، بكاه اللبنانيون قاطبة ، وقد نقل جثمانه
الطاهر من نابلي إلى مسقط رأسه إهدن في تلك السنة فبلغ طرابلس في ١٣
سبتمبر ، فقابلتها الجماهير التي احتشدت على طول الطريق بالبكاء
والنحيب ، حتى قرية زغرتا ، ومنها استأنف الموكب سيره إلى إهدن
مسقط رأس الفقيد ، فأقيم له مأتم حافل ، شهدته جميع أخبار الطائفة
المارونية الكريمة ، وآلاف من اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ،
وكانوا قد أتوا من كل حدب وصوب .

وأودع بعدئذ جثمان البطل الكبير في كنيسة القديس جرجس الكبرى
بإهدن ، وفي سنة ١٩٢٢ نقلت في تابوت له غطاء من زجاج يتسنى اليوم
لجميع الزائرين رؤيته .

وقد اشتهر أهل إهدن بالبسالة والشجاعة وعزة النفس وكرم الخلق ،
كما عرفوا باللطف والظرف والوداعة وحسن معاملتهم للغريب .
مكثنا في إهدن يومين كاملين ، اختلطنا فيهما بشيبيها وشبابها ،
فلمسنا فيهم جميعاً روح الوطنية الصادقة ، وحبهم للبنان ، وغيرتهم على مصالحه ،
وقد صرح لنا غير واحد من شبانهم الذين تحدثنا معهم ، أنهم على استعداد
في أي وقت لبذل الأرواح في سبيل إعلاء كلمة لبنان والعرب ، وهذا ليس
بغريب عليهم وهم من موطن بطل الشمال المغوار .

إن شبان الشمال هم عدة لبنان وحماته من كل عدوان ، ويحافظ أهالي
الشمال على أراضيهم محافظة البخیل على درهمه ، ولا يفرط الواحد منهم

بشبر منها ولو دفعت له مال قارون .
 أن الأيام القلائل التي قضيناها في أهدن جنة لبنان ، وعروس
 الشمال ، ويطلقون عليها « جنة الفردوس » لا تقاس ببهجتها مع عمر
 الزمان .

في الطريق إلى زغرتا

انطلقت بنا السيارة في الصباح الباكر من إهدن ، ونحن نحمل لها
 ذكريات عاطرات ، لما لاقيناها من لطف أهلها ، وظرفهم ، وترحيبهم
 بالغريب ، فأخذت تطوى الطرق مارة بقرى مغمورة بالأشجار الباسقة ،
 التي ترويه مياه الثلوج المتسربة في جوف الأرض ، إلى أن حطت رحالها
 في زغرتا الغارقة بين حقول الزيتون ، فهالنا أن نراها تكاد تكون مقفرة من
 سكانها ، برغم كبر مساحتها ، وجمال دورها ، وانتشار رقعة العمران فيها ،
 فسألنا عن السر في ذلك ، فقليل لنا إن السواد الأعظم من سكانها
 يتركونها في الصيف ويعتلون هضاب إهدن ويعودون إليها بعودة الشتاء ،
 ففجعنا من هذا التعليل الغريب ، لأن مناخ زغرتا لطيف ، وجوها جميل ،
 تحيط بها الغابات الكثيفة التي تلطف من درجة الحرارة فيها كما تجري فيها
 ينابيع المياه الباردة العذبة التي تتسرب من أعالي الجبال ، وتروى جميع
 منطقة الشمال .

سهل الكورة الخصب

وبينما نحن نعبّر قرى أهلة بالسكان ، علقت على هوامش الجبال ، سارت سيارتنا فى طريق تتوسطه حقول أشجار الزيتون الرصاصية الشاحنة الأغصان ، الرابضة فى مكانها منذ مئات السنين ، ترقب القادمين وتودع الراحلين ، يرصع أوراقها الرصاصية اللون الغبار الذى تثيره الرياح من الصخور الرمادية اللون المحيطة بها ، فتستقر عليها ، وتبقى عالقة فيها إلى أن يأتى الشتاء ، وتبكي عين السماء ، فتغسلها وتبدو للعين بلونها الرمادى اللامع وقد خلعت عليها مياه الأمطار مسحة من الجمال .

أحراش القموعة

بدا لنا عن بعد سهل عكار الخصب ، حيث تقع حراج القموعة الفاتنة ، وتبعد عن بيروت بمقدار ١٤٠ كيلو متراً ، فدلقت بنا السيارة إليها وإذا هى تشرف على مناظر طبيعية على جانب عظيم من الروعة والجمال ، تمتلئ بأشجار السنديان التى يبلغ عمر بعضها مئات السنين . وتحيط بها جبال جرداء صخورها متعددة الألوان غريبة الشكل رائعة المنظر .

سير الضنية

ولما عدنا من حراج القموعة ، أزجى ركابنا إلى سير الضنية مصيف طرابلس ، في طريق معبد كثير الالتواء . وتعلو سير عن سطح البحر بمقدار ٩٠٠ متر . وتبعد عن بيروت بمقدار ١١٤ كيلومتراً . مناخها صحي وهوائها عليل . وماؤها عذب بارد . وهي مشهورة بجذائقها الياقة ، التي تنتج التفاح والخوخ والكمثرى ، وغاباتها الكثيفة ، وينابيعها المعدنية ، التي فيها شفاء للأجسام وطواحينها البدائية التي تدير رحاها مياه الأمطار التي تنحدر إليها من جبال الشمال .

قضينا بقية يومنا في سير ، زرنا فيها قلعة سفيرى الشهيرة ، وهي من بقايا الصليبيين وسواها من الأماكن الأثرية الأخرى ، كما نعمنا بليلة هادئة أمضيها في فندق كنا فيه موضع الحفاوة والإكرام من المشرفين عليه .

طرابلس

رحلنا عن سير الضنية مع الصباح إلى طرابلس ، ويرجع تاريخ تسميتها بهذا الاسم ، إلى نظام الحكم القديم ، الذي كان قائماً فيها ، يوم أن كانت بلاد فينيقية تابعة لبلاد فارس ، فاجتمع مندوبو المدن الثلاث — صور وصيدا وجزيرة أرواد — للتشاور في شؤون حكم هذه البلدان الثلاث

فى نفس المكان الذى توجد فيه مدينة طرابلس الحالية ، ولذا سميت باسم «ترى بوليس» أى المدينة المثلثة ، وقد حرفت العامة هذا الاسم بمرور الأيام ، كما حرفت أسماء غيرها من البلدان ، وأطلقوا عليها اسم طرابلس المعروفة به اليوم .

وتبعد طرابلس عن بيروت بمقدار ٩٠ كيلومتراً تقريباً فى طريق يمتد على طول الشاطئ الفينيقى الرائع ، يربطها بها خط حديدى . وتعتبر طرابلس من أهم موانئ لبنان بعد بيروت ، كما أنها مركز صناعى وتجارى هام ، تكثر فيها مصانع دبغ الجلود ، ومصانع الصابون الحديثة الآلات ، لوفرة الزيت التى تنتجها حقول الكورة القريبة منها وسهل عكار الحبيب ، ومصانع تقطير الروائح العطرية ، وماء الزهر ، الذى فيه شفاء للأجسام لكثرة حدائق الأزهار فيها .

وقد زاد فى شهرة هذا الثغر فى السنوات الأخيرة ، إنشاء معامل تكرير البترول الذى يصلها من كركوك فى العراق ، بواسطة أنابيب خاصة ، ويصب فى مرفئها الذى أنشئ حديثاً لهذا الغرض .

أحياء طرابلس الداخلية

قمنا بجولة فى هذه المدينة القديمة ، وزرنا كثيراً من أحيائها ، فرأينا بعضها ما فتىء يحمل طابعه القديم برغم أعمال التجديد التى مست أرجاء هذا الميناء الهام ، حتى امتدت إلى ضواحيها النائية ، حيث البساتين

العامة بأشجار الفاكهة ، من برتقال ، وتفاح ، وليمون ، وموز ، هذا عدا حدائق الأزهار المختلفة الأشكال والألوان .

أما مساجد طرابلس ، فيرجع تاريخ إنشاء بعضها ، إلى العصور الأولى ، ولكن ليس لها روعة مساجد القاهرة ودمشق ، وما تتسم به من جمال في هندسة مبانيها ، وماذنها السامقة ، وإنما قدمها خلع عليها رداء القداسة والمهابة والحلال . .

وقد أقيمت على جانبي شوارع طرابلس المفروشة بالأسفلت والمضاءة بالكهرباء ، الحوانيت الفخمة ، ومكاتب الصياغة ، والفنادق ، والمقاهى التى تغص بروادها .

طرابلس والصليبيين

أعادت إلى مخيلتنا زيارة طرابلس ، ذكرى الصليبيين ، وما تركوا فيها من آثار ، وما خلفوه وراءهم من قلاع خالدة ، وأهمها قلعة كونت طولوز ريمون دى سان جيل ، التى تشرف بروعتها على وادى طرابلس الجميل ، وشاطئ البحر الذى دفنت فيه ذكريات الصليبيين ، الذين مكثوا فى هذه البقاع رداً طويلاً من الزمن ، إلى أن أرغموا فى النهاية على الرحيل عنها ، ولسان حالهم يقول :

إن حبنا لشواطئ لبنان ، المنبسطة تحت أقدام صخور جباله الشاخمة ، وما يحيط بها من بقاع ، قد ألبتها يد الطبيعة حبل الروعة والجمال ،

يعذب أفئدتنا ، وذكر اسمها يهيمى الدمع من عيوننا ، فتمى نعود إليك
أيتها البقاع الجميلة ، التي رسم القدر مصيرنا المؤلم على كل شبر من أراضيك .
ولكن هيات ما يحلمون به ، فإن طرابلس عادت إلى لبنان وإلى اللبنانيين .

تكية المولوية

سمعنا عن تكية الدراويش الراقصين ، المعروفة بالمولوية في أثناء
إقامتنا القصيرة في طرابلس . فتوجهنا إليها في الصباح ، فإذا هي تقع عند
سفح مصب نهر أبي على ، الذي هو فرع من نهر قاديشا ، تحيط بها
الحدائق الغناء ، فتخلع عليها جمالا لا تملأ العين . فرأينا القباب العديدة
التي على طراز القباب التركية ، تبرز من سقوف مبانيها ، وفي داخل التكية
غرفة واسعة للرقص ، فرشت بالطنافس الوثيرة ، يقيمون فيها حفلاتهم على
نقر الدف ونفخ المزمار .

وينساب خلال شجر الصفصاف الشامخ الارتفاع ، الوارف الظل ،
وهو زينة المكان ، الماء العذب في مجارى نبت الأعشاب على حافتيها ،
فترويها . ذكرتنا رؤية هذه التكية ، وما حوته من ضروب المتعة ، بتكية
البكتاشية في جبل المغاوري في مصر . وهي قطعة من الجنة بما حوته من
حدائق غناء ، كست أرضها الخضرة النظرة ، التي يستريح إليها النظر
وتهدأ لرؤيتها الأعصاب المكدودة .

وقد علمنا من شيخ هذه التكية أن مؤسسها ، هو جلال الدين الرومي ،

في قونية في تركيا ، غير أن الغريب في أمر هذه التكايا ، أنها قد زالت في أماكن إنشائها ، ولكنها ما فتئت قائمة في بعض بلدان الشرق .
وطرابلس عامرة بالمدارس ، من أجنبية ووطنية ، وجميعها تساهم مساهمة فعالة في تقدم لبنان ، من الوجهة الثقافية .

مكتبة آل عمار الشهيرة

اختلطنا في أثناء إقامتنا في طرابلس ببعض الأدباء ، فعلمنا من أحدهم أنه كان في طرابلس مكتبة قيمة ثمينة لآل عمار ، صاحبها القاضي الفاضل أبو الحسن طالب ، أسسها في القرن العاشر الميلادي ، وكانت هذه المكتبة تحتوى على كثير من الكتب العلمية ، والفلسفية ، والفقهية والدينية ، كما كان فيها كثير من كتب اليونان والفرس . ويؤخذ من رواية طي المؤرخ العربي ، أن هذه المكتبة كان فيها أكثر من ثلاثة ملايين مجلد ، كان صاحبها القاضي أبو حسن طالب المتولى على طرابلس في ذلك الوقت ، يبعث الرسل إلى الأقطار ، ويدفع أبهظ الأثمان في سبيل الحصول على الكتب القيمة النادرة .

أبو العلاء المعري ومكتبة آل عمار

وكانت هذه المكتبة كعبة للعلوم ، يحج إليها العلماء ، والمشتغلين بالأدب ، من جميع الأقطار ، فيطلعون على ما يريدون من الكتب والمصنفات

والمخطوطات ، فكانوا بعملهم هذا ، يستفيدون ويفيدون وكان أبو العلاء المعرى شيخ الفلاسفة القدماء ، من ضمن الذين كانوا يترددون ، عليها فاستفاد منها ما شاء له ذكاؤه ونبوغته ، ولكن مع الأسف الشديد لم يدم الفيض العلمى طويلا ، لأن جهلاء الصليبيين عند استيلائهم على طرابلس ، قد أحرقوا هذه المكتبة القيمة الحافلة بأندر الكتب ، وبإحراقها ضاع أكبر كنز أدبى فى طرابلس . غير أن رواية إحراق الصليبيين لهذه المكتبة ، تحتاج إلى ما يؤيدها ، لأن بعض الكتبة حسب ما قيل لنا ينكرون ذلك ، والله أعلم .

دير البلمند

قمنا قبيل الظهر بنزهة إلى دير البلمند ، الرابض على رابية تشرف على طرابلس ، وعلى الشاطئ ، ويقال إن منشئ هذا الدير ، هم رهبان القديس برنردس سنة ١١٥٧ ووضعوه تحت حماية سيدة « بل مونت » ، وهى لفظة فرنسية ، معناها الجبل الجميل ، غير أن العامة قد حرفت هذا الاسم بتوالى الأيام وصار يعرف بدير البلمند ، كما أن بعضهم يقول إن بانيه بيد مونت صاحب طرابلس .

شاهدنا فى هذا الدير ، الذى هو اليوم فى حوزة رهبان الروم الأرثوذكس ، مكتبة حافلة بالكتب التى أبقت عليها يد الأيام من العبث أو الضياع ، فلم يتسع لنا الوقت لنطلع على كنوزها الأدبية الدفينة ، غير

أننا ونحن نجيل الطرف في بعض المطبوعات ، عثرنا مصادفة على مجلة المنارة الأرثوذكسية الصادرة في (ديسمبر) سنة ١٩٠١ وفيها مقال طريف في وصف هذا الدير نقتطف منه ما يلي :

« إن البلمند من أعظم أديرة الشرق فخراً ، وأضخمها بناء ، وأظرفها موقعاً ، وأبعدها شهرة ، . . . إلخ » أجل إن الكاتب قد أصاب في وصفه لهذا الدير ، الذي يمتاز بحسن موقعه ، وطيب مناخه ، وهندوء جوه ، وما يحيط به من غابات ينبسط البحر بشاطئه الطويل تحتها ، وكم تمنينا أن نطيل إقامتنا في تلك البقعة الهادئة ، بين الربى والصخور المعلقة ، لنسمع همس النسيم العليل ، الذي كان يسرى بخفة ، فيحرك برقته أغصان الأشجار الباسقة ، فيتجاوب حفيفها بنغمات شجية وألحان خفيفة كانت تسرى إلى آذاننا فتطربنا .

وبينما نحن مأخوذون بجمال المناظر التي تحف بنا ، عبرت سحابة شفافة فوقنا ، فظلمتنا ، بكت على أثرها عين السماء ، وتساقطت دموعها على أوراق الأشجار ، فأحالتها إلى أوتار وقعت عليها الطبيعة أرق الألحان .

أجل ؛ إن لغة الطبيعة السحرية ، التي تتفاهم فيها عناصرها بعضها مع بعض ، يتجاوب ما فيها من سحر وجمال ، لا يدرك كنهه الإنسان ، ذلك هو سر الكون ، وتلك هي روعة الحياة ، وما فيها من جمال ، إنها الطبيعة دائماً في لبنان .

وبعد وقت وجيز أمسكت السماء ماءها ، فبرزت الشمس مرة أخرى وألقت أشعتها علينا ، لتبعث الدفء والحرارة فينا ، فعدنا إلى سيارتنا

وركبناها ، وأخذت تهبط بنا إلى الشاطئ مرة ثانية وكان يزيد في جماله
منظر الملاحات الممتدة على طوله ، وبجوارها تلال من الملح الناصع البياض
حتى كان يخيل إلينا أن ثلج قمة ظهر القضيبي ، قد انتقل إلى الشاطئ
الجميل ، برمله الناعم كالحرير .

الفصل الثامن

في الطريق إلى كسروان

يصعب على الكاتب أن يميز بقعة عن بقعة في لبنان ، أو أن يخص قرية دون أخرى بالجمال ، فجمال المناظر في مقاطعة كسروان ، يتسم بطابع خاص ، تتجلى فيه العظمة والروعة والجلال ، لحسن موقع تلك البقاع ، وطيب مناخها ، ورقة هوائها ، وعدوبة مائها وبرودته ، ولا يرى هذا الجمال إلا غريب الدار .

واسم كسروان مأخوذ من اسم الأمير كسرى ، أحد أمراء المردة ، الذين حكموا لبنان ، وصاحب القصر المنيف الذي ما فتئت آثاره تشهد في بسكتنا عند سفح جبل صنين .

ثم إنها في القديم كانت تسمى العاصية لشجاعة أهلها ، وعظم شوكتهم ولصعوبة مسالكها وجبالها الوعرة .

أتحفنا العم أبو طنوس بهذه المقدمة ، عندما بلغنا جونه ، في عودتنا من شمال لبنان ، ليندكي في نفوسنا نار الشوق إلى رؤية مصايف كسروان ، وكنا قد سمعنا عنها وعن أرجائها الفاتنة قبل أن نراها .

بكركى مقر البطريك المارونى الشتوى

أخذت السيارة من جونية ترتقى طريقاً جبلياً معبداً بالأسفلت ، شق على هوامش صخور صلدة ، ومرتفعات تشرف على البحر الهادئ تناثرت فوقها الدور الحميلة ، تحيط بها الحدائق الغناء وقد انسابت فيها مجارى الماء . ولما بلغنا بكركى المقر الشتوى لغبطة البطريك المارونى ، تركنا سيارتنا بجانب الطريق ، وترجلنا فى معبر ضيق ، بين صفيين من الأشجار ، تدلت غصونها فوق السابلة وقامت أجواق الطيور فوق منابرها مرنمة بألحان هى فيض ما فى داخلها من طمأنينة وأمان ، تخضعه عليها حرمة المكان .

وأول شئ استرعى نظرنا عند وقوفنا أمام القصر البطريكى الفخم ، العبارة التى خطت على رتاجه الخارجى فى إطار جميل : « مجد لبنان أعطى له »

أجل : إن مجد لبنان قد أعطى لسيد لبنان ، المتربع على كرسى البطريكية المارونية ، الذى ترنو إليه قلوب الموارنة فى مشارق الأرض ومغاربها ، فنه يستمدون قواهم الروحية ، ويستلهمون السير فى مسالك هذه الحياة المملأ بالصعاب والعقبات ، كما أن جميع سياسة لبنان ، على اختلاف مذاهبهم ، وتعدد نحلهم ، يقيمون وزناً لآراء سيد لبنان السديدة ، ويعملون له حساباً فى توجيه دفة سياسة الحكم فى ذلك الجبل الأشم ، مريض الأسود الذى يستمد رجاله قوتهم من سحر مناظره الطبيعية ، وصلابة جباله وروعته .

تجولنا فى هذا القصر برفقة كاهن فاضل ، أخذ يشرح لنا تاريخه

وما اقترن به من أحداث جسام ، ويحدثنا بلباقة عن الشخصيات الكبيرة الأجنبية والوطنية التي زارته في شتى المناسبات ، وقد تمثل أمامنا في أثناء هذه الزيارة الحافظة ، شبح الحرب الكبرى الأولى ، يوم أن سلط جمال باشا القائد التركي سيف النقمة على الطيب الذكر البطريرك الياس الحويك ، الذي كان رابضاً في هذا العرين في تلك الأيام السود . كما تمثل أمامنا جموع اللبنانيين ، الذين كانوا يتقاطرون من جميع أنحاء لبنان ، إلى المقام البطريركي ويقفون وراء الباب الحديدي ، في طلب الغوث لسد رمق الجوع . الذي فتك بآلاف اللبنانيين ، بثست تلك الأيام السود فما كان أكثر موقى الجوع فيها !!

حريصا وسيدة لبنان

دلفت بنا السيارة إلى حريصا ، القرية الهادئة المعلقة فوق منحدرات هني آية في الروعة والجلال ، يزيد لها جمالا تمثال سيدة لبنان ، عليها أشرف السلام ، وقد أقيم في أوائل هذا القرن على رأس جبل فوق نصب مخروطي الشكل ، ارتفاعه عشرون متراً ، في أسفل قاعدته معبد صغير ، هو مزار لجميع الوافدين إلى حريصا .

ارتقيننا سلام سهلة هينة الانحدار ، ونحن نعتمد على حاجز حديدي حتى بلغنا قاعدة التمثال . وبينما نحن نجعل الطرف من فوقه ، تعلق بصرنا بأديرة قديمة قد حرص الذين شادوها في الماضي ، على أن تكون على هوامش الجبال الشاخنة ، وفوق الربى والآكام ، وفي وسط الأحرار والأدغال



سيدة لبنان شامخة كأرزه

ليكونوا بعيدين عن الناس والعالم ، قريبين من الله ومن الطبيعة وما فيها من جمال ، حيث يخيم صفاء الجو ، الذى هو صفاء للنفوس ، ثم بان لنا خليج جونية الفاتن ، يحتضن برفق مرفأها الهادئ الصغير ، الذى كان له شأن كبير فى الماضى ، وتغنى بجماله كثير من الكتاب والشعراء ، الذين زاروا لبنان ، كما انبسطت تحت أبصارنا قرى كثيرة بمنزلها البسيطة ، التى تحمل طابعاً خاصاً ، تمتاز به المباني فى قرى لبنان .

هبطنا من أعلى هذا النصب بعد أن أسكرتنا حلاوة تلك المناظر ، واتخذنا لنا مجلساً فى الحرش الذى تحته ، فوضعنا ما معنا من طعام على أديم أرضه ، التى كستها أوراق الأشجار الصفر ، فأكلنا بشهية بين أحضان أمنا الطبيعة ، التى تفيض بالركة والحنان ، ثم استلقينا على الأرض ، واستسلمنا لسنة الكرى رغم أنوفنا ، لأن النسيم العليل الذى يداعب أغصان الأشجار ، ويحدث حفيفاً له وقع الموسيقى فى الآذان ، أسكرنا بحلاوته ، وخدر أعصابنا برقته ، فأخلدنا للراحة والدعة بعض الوقت ، ولم يوقظنا من غفوتنا العابرة ، سوى رنين جرس الدير ، فقمنا وتابعنا سيرنا فى طريق معبدة ملساء ، تعددت منحنياتها ، وكثرت أكواعها ، تشرف على وهاد سحيقة ووديان عميقة ، كستها الأشجار الباسقة ونبتت فى جلولها المزروعات اليانعة .

مصايف كسروان

قبل أن نتقل فى داخل كسروان الفاتنة القائمة فى ذروة الجبل ، حيث

تنتظم أشجار السنديان والبلوط والصنوبر على صدر الطبيعة الحنون ، وتكثر
حدائق الفاكهة في محيط كله متعة للمصطافين ، تشيع فيه أسباب الهدوء
والراحة ، أبدينا للعم أنى طنوس رغبة ملححة في أن نمر على أكبر عدد ممكن
من القرى اللبنانية في كسروان ، لنأخذ فكرة عامة عن جمالها ، وبساطة
بيوتها ، التي تمتاز بنظافتها ، وعن الفلاح اللبناني ، الذي لم تستهوه المدنية
الزائفة وعن حبه لأرضه ، وتفانيه في العمل فيها ، وميله إلى النظام .

غسطا

كانت أول قرية صادفتنا غسطا ، وهي قائمة على روابي وتلال ،
تناثرت فوقها الدور المتواضعة في شكلها ، البسيطة في مظهرها ، وقد أعجبنا
بالجلول التي حولها ، وقد غرس فيها أصحابها أشجار الفاكهة ، والخضروات .
ولما وصلت سيارتنا إلى رابية عالية تشرف عليها ، أجلنا الطرف فيها فخیل
إلينا كأننا أمام قطعة فنية ، رسمتها يد فنان حاذق ، ووضعتها في إطار
يضرِب لونه إلى الزرقة ، فيزيدها جمالا ورونقا .

دلبتا

انتهينا بعدئذ إلى دلبتا ، وقد سميت كذلك ، لكثرة شجر الدلب الذي
كان يكسو رباهها ، ويزين بشكله الجميل أرجاءها ، وقد اقتلعت الأمطار

الغزيرة التي هطلت سنة ١٨٦٢ أكثره ، كما قطع الأهالي أكثر الباقي من هذا الشجر الجميل ، لاستعماله في أغراضهم المنزلية ، فتركت تلك الأشجار مكانها فراغاً ، آلمتنا رؤيته ، وتعلو دلبتنا عن سطح البحر بمقدار ٧٥٠ متراً وهي قابضة في وادٍ ليس بعميق ، يمتاز بوفرة مناظره الطبيعية ، ومناخ دلبتنا جيد ، وماؤها غزير ، وأهلها يرحبون بالغريب ، ويحلونه بينهم على الرحب والسعة ، شأنهم شأن جميع أهالي كسروان يدفعهم إلى ذلك جمال المناظر في بلادهم ، وما يتسمون به من مظاهر الغبطة والسرور .

عشقوت

كانت السيارة تمضي بنا مسرعة في طريق شقت على حواشي الجبال الشاخنة تريد عشقوت ، القرية الجاثمة في منعطف بين جبال صخرية ، متعددة الأشكال ، متباينة الألوان ، تحيط بها من جهاتها الثلاث ، وتنتصب فوقها أشجار السنديان والبلوط ، وتطوقها كروم العنب ، كما تطل من الجهة الغربية على البحر الأبيض المتوسط بشاطئه الفاتن . وقد اهتم أبناء هذه القرية التي تعلو سطح البحر بمقدار ١٠٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٣٥ كيلو متراً في السنوات الأخيرة ، بغرس أشجار الفاكهة في جميع أرجائها ، بفضل مياه نبع العسل التي جرت إليها ، وتفرقت في جميع أنحائها ، بعد أن تخلصوا من أكثر شجر التوت ، بسبب كساد موسم الحرير في لبنان .

ولفظه عشقوت معناها الصعبة ، وهي مشتقة من اسم الإلهة الفينيقية أشقون ، شقيقة الآلهة ريفون ، وأيلون ، وعجلون ، تلك القرى الجميلة المجاورة لعشقوت وقد سبق أن ذكرنا أسطورتها .

أسطورة الإلهة أشقون

وبينما السيارة تنساب في طريقها ، لاحت لنا آثار قلعة قديمة ، في منخفض من الأرض ، شرق غزير ، القرية التي عاش فيها رينان الفيلسوف الفرنسي ، وكتب فيها كتابه «حياة يسوع» فراح العم أبوطنوس ، يتحفنا كعادته بأسطورة طريفة ، تمت بصلة إلى عشقوت فقال :

كانت الإلهة أشقون ذات أخلاق صعبة ، وطباع شرسة فظة ، فكانت تصرف عنها بكل أنفة وكبرياء كل من يتقدم إليها من الآلهة لطلب يدها للزواج ، بعد أن وجدت منفذاً لشهواتها الجامحة ، إلى قلب الإله كيلون الجميل الصورة ، وقد بلغ من فرط حبها له ، وهيامها به أن بنت له هيكلًا فخماً في هذه البقاع ، مبالغاً منها في إكرامه ، والتودد إليه ، ليعطف عليها بنظرة من نظرات عينيه الساحرتين ، وأوصلت الإلهة أشقون هذا الهيكل بقلعة قديمة جداً بواسطة سراديب خفية ، تمتد تحت الأرض تصلها بقصر عشيقها كيلون ولذا أطلق على عشقوت أيضاً العاشقة .

وقد عفت اليوم آثار هذا الهيكل ، ودرست معالمه ، وبقيت آثار القلعة التي تعرف اليوم بقلعة معراب ، نسبة إلى سليمان بن معراب الذي

شيدها على أنقاض حصن قديم من بناء الفينيقيين ، بدليل العثور على
حجارة في هذا الحصن ، تحمل كتابة فينيقية تدل على أن بانيه هو لوكي
الفينيقي .

كنا إذ ذاك بلغنا عشقوت الجميلة ، وكان الليل على وشك أن يلفنا
بظلامه ، فتلمسنا لنا فيها فندقاً قضينا فيه ليلتنا ، وفي صباح اليوم التالي ،
جسنا خلال طرقاتها المعبدة بالأسفلت ، وجلنا في منتزهاتها الرائعة التي
أوجدتها الطبيعة فيها .

فنادق عشقوت ممتازة ، وماؤها المنحدر إليها من نبع العسل بارد عذب ،
وهوائها عليل منعش ، ومناخها صخري جاف ، وأناسها لطيفو المعشر .
وقد شاهدنا عند كنيسها سنديانة قديمة الأيام ، قد مدت فروعها
فوق الساحة المغروسة فيها ، قيل لنا إن تلاميذ هذه القرية في الماضي ،
كانوا يتلقون علومهم تحتها . أجل إن تلقى العلوم تحت السنديانة ، أو
الصنوبرة في الهواء الطلق ، أمام المعابد ، كان شائعاً في قرى لبنان .

ميروبا

انتقلنا إلى ميروبا القرية العالية الشاوية في أطراف الجبال ، وتعلو
سطح البحر بمقدار ١١٠٠ متر . وميروبا لفظة سريانية معناها الماء الغزير ،
حقاً إن الماء في هذه القرية وفير .
وتمتاز ميروبا الغارقة في وسط الحدائق الغناء ، التي تنتج التفاح اللذيذ

الطعم ، الذكى الرائحة ، الجميل المنظر ، بأنها مصيف هادئ ، مناخها
صحي لا أثر للرطوبة فيه مطلقا . وقد شاهدنا فيها مناظر كثيرة رسمتها يد
الطبيعة فأجادت وأبدعت في مفاتها .

فاريا

وبعد أن استرحنا في ميروبا بعض الوقت ، تركناها إلى فاريا التي
يرونها نبع العسل . فسرنا في طريق منحدره كثيرة المنحنيات ، تمقت
يد الطبيعة ما يحيط بها من مناظر تثير البهجة والمرح في النفس .
ولم نكد نصل إليها ، حتى شعرنا بمناخها الصحي ، وجوها الجاف ،
وسكونها الشامل ، الذي يحمل من يلتمسون الهدوء لأعصابهم المكدودة ،
والراحة لأبدانهم المتعبة ، بعيداً عن جلبة المدن وضوضائها ، على أن
يقصدها في فصل الصيف ، ويتمتعوا بفواكهها اللذيذة ، ومائها العذب .
قضينا بقية يومنا في هذه القرية الفاتنة ، ونحن نتنقل في أرجائها ،
وقد ثملت أبصارنا من سحر ما رأيت فيها من جمال ، أنسانا مالاقيناه من
تعب وعناء .

رحلة إلى نبع العسل

غمرنا حب الطبيعة في لبنان ، وفتنتنا تلك الصور الأخاذة التي وهبها
البارى لهذه الأرض من بقاع كسروان ، فكنا كلما تركنا قرية استقبلتنا

أخرى بسحرها وجمالها ، وتيها ودلالها .

قمنا في الصباح الباكر بنزهة إلى نبع العسل في أعلى الجبال ، سيراً على الأقدام ، في طريق جبلي ، تحف بها المناظر الطبيعية الفاتنة . فمن حدائق غناء يتدلى من أشجارها التفاح المورد الحدين ، إلى غابات باسقة الأشجار يفوح منها عبير ذكي ، إلى وهاد يجري فيها الماء النмир ، وقد انتصبت على حافتيها أشجار الحور الرشيق والدلب العطرة ، وقد قطع اليوم القوم أكثره ، إلى مرتفعات قد تعلقت فوقها قطعان الماعز تقرض الكلاً الناشف ، تحرسها كلاب ضخمة قد كشرت عن أنيابها لما رأتنا ، ولم يخلصنا من شرها ، سوى عصا الراعي وزجره لها ، وكان قد هرع لنجدتنا عندما استغشنا .

كان هذا الراعي جالساً على صخرة مرتفعة بيضاء ، في ظل شجرة فيحاء ، قد طلعت من ثنايا ذلك الصخر الأجرد ، يسلى نفسه بنغمات مزماره ، التي كانت الوديان تردد صداها ، تاركاً حراسة القطيع إلى كلابه المتوحشة ، لأن الرعاة في الجبال ، يعتمدون على مثل هذه الكلاب في حراسة قطعانهم في الليل والنهار من الحيوانات المفترسة واللصوص . وبعد ساعتين من الزمان ، ونحن نغذ السير حيناً ، ونستريح حيناً ، بلغنا غايتنا ووصلنا إلى نبع العسل الشهير ، الذي جاء ذكره في التوراة ، فوقفنا أمامه مذهولين ، وقلنا في أنفسنا : ألهذا تعبنا وجئنا إلى هذه البقعة النائية الجرداء القاحلة البعيدة عن العمران لنشاهد ماءً يتفجر من الصخور؟ وهل حقيقة شرب أبونا آدم وأمنا حواء من هذا النبع؟ ما كان أغنانا عن الحجى إلى هذه البقعة النائية في أعالي الجبال ، ولكن حب الطبيعة في لبنان والسعي

وراء ما فيها من جمال هو الذى دفعنا إلى تجشم الصعاب ، أجل إنه سحر الطبيعة دائماً فى لبنان !!

ذقنا ماء هذا النبع ، الذى يتدفق بغزارة من ثلاثة مواضع فإذا هو بارد عذب ، تغرى شدة برودته وصفائه على المزيد من شربه ، وتحف بهذا النبع ، مناظر من أبدع ما صنع البارئ ، حتى خلنا أنفسنا فى أثناء تجولنا فى تلك البقاع ، أننا نرتع فى الجنان ، لا فى بقعة نائية من بقاع لبنان . وقد لاحظنا أنه تكثر حول مجرى هذا النبع الذى يأخذ بالاتساع فى أثناء انحداره من أعالي الجبال البساتين الغناء والرياض الخضراء.

ريفون

عدنا من زيارتنا لنبع العسل ، إلى ريفون ، وكان الليل على وشك أن يبسط ظله على الكون ، وتعد ريفون من أجود مصايف كسروان ، لحسن مناخها ، ورقة هوائها ، وعذوبة مائها ، وهدوئها ، فقضينا فيها ليلنا فى فندق نبع العسل الجميل ، الذى يشرف على مناظر فاتنة ونحن على أشد ما نكون من التعب ، فكنا نسمع فى أثناء الليل عواء الذئاب وبنات آوى ، وقد خرجت من أوجارها فى طلب الفريسة . تلك الأصوات لا يألؤها القاطنون فى المدن ، على أنه برغم ما لها من وحشة فلقد طاب لنا سماعها لأنها كانت تشعرنا أننا فى لبنان أرض السحر ومرتع الجمال .

طفنا فى اليوم التالى فى أرجاء هذا المصيف الجميل ، فلم نلق من أهله

أين حللنا سوى الترحيب والتأهيل ، فلفظة « تُكرم » يحسبها الغريب مرتسمة على الوجوه ، قبل أن تنطق بها الشفاه ، وهذه صفة من الصفات المتأصلة في نفوس اللبنانيين .

وتشرف ريفون على جبال ووديان ، ملأى بالأشجار ، شأنها شأن بقية قرى لبنان الجبلية ، وتعلو عن سطح البحر بمقدار ١١٠٠ متر وتبعد عن بيروت بمقدار ٣٨ كيلو متراً ، وقد شاهدنا عندما تسلقنا رابية عالية فيها مرفأ بيروت ، وقرى القاطع ببيوتها الجميلة .

وزرنا في نهاية تطوافنا في هذا المصيف دير الآباء العازاريين للذكور وهو مركز اصطياف فائق يقصده التلاميذ من الجنسين لقضاء فصل الصيف فيه تحت إشراف هؤلاء الآباء الأفاضل .

القليعات

ويعتبر طريق الكروم الذي يربط ريفون بالقليعات ، من أروع منترهاتها ، درجت بنا السيارة فيه الهوينى إلى القليعات القرية التي تمتاز بحسن موقعها وجمال ما فيها من مناظر طبيعية فاتنة ، وتقع على رابية ، وسط جبال تكتنفها من جهاتها الثلاث . تسلقنا هضبة عالية فيها ، فخیل إلينا أننا محلقون في طائرة تشق عنان السماء ، كما امتدت أبصارنا إلى البحر الذي ينبسط تحتها ، فإذا بأمواجه تترأى لنا ، كأنها قطن مندوف أو قطيع غنم أثار وراءه عاصفة من الغبار . يا لها من مناظر رائعة كانت رؤيتها تثير إعجابنا وتتركنا أسرى جمالها .!!

فيطرون

أوما العم أبو طنوس في أثناء عودتنا من القليعات إلى السائق حسن ،
أن يذهب إلى فيطرون ، فسارت بنا السيارة في طريق معبدة بالأسفلت ،
شقت وسط الجبال ، تغمرها المناظر الطبيعية الجميلة التي ما ضنت بها
على أية بقعة من بقاع لبنان .

وفيطرون مصيف جميل ، مناخها صحي ، وجوها جاف ، لا غيوم
فيه وماؤها بارد عذب ، ترتفع عن سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ متر وتبعد
عن بيروت بمقدار ٤١ كيلومتراً .

متحف الصخور

لاحظ الدكتور خليل في أثناء تجولنا في ضواحي هذه القرية ، أنها
تقوم على بقعة بركانية ، تمتاز بصخورها المعروفة بالاسم العلمي
« الدولوميت » ، وهي ذات أشكال رائعة ، كأن يد فنان قد نحتها فيها ،
فأخرجت منها تماثيل من أجمل ما وقعت عليه عيوننا .

وهذه البقعة من فيطرون هي منتزه جميل ، رأينا فيها قبيل الغروب ،
كثيراً من الفتيان والفتيات ، وقد استهواهم متحف الصخور ، وانفراده
في تلك البقعة الهادئة ، فذهبوا إليه ينشدون النزهة في ذلك الجو الساحر .

مزرعة كفر ديبان

حدثتكم أيها القارئ الكريم عن هيكل فقرا في سياق الأسطورة التي قصها علينا العم أبو طنوس في معرض الحديث عن حدشيت ، وها قد بلغنا في تطوافنا مزرعة كفر ديبان ، القرية الهادئة ، البعيدة عن الجلبة والضوضاء ، التابعة بتواضع وبدون خيلاء في سفح جبل صنين العظيم ، على ارتفاع ١٣٥٠ متراً عن سطح البحر ، فرأينا لزماً علينا أن نزور فيها بعض أصدقاء وأساتذة لنا عرفناهم بالقاهرة ، فرحبوا بنا ، وبالغوا في إكرامنا ، وألحوا علينا أن نقضى ليلتنا في قريتهم الفاتنة ، فلم يسعنا إلا أن نقبل الدعوة شاكرين .

قلعة فقرا

ما كاد الليل يطوى أذيال الظلام ، ويزقزق العصفور فوق الأفنان ، حتى لاح الفجر ، فقمنا من نومنا ، واستأنفنا رحلتنا إلى قلعة فقرا ، وتقع في لحف جبل صنين ، في عزلة في أعالي الجبال بين الرياض الباسمة ، والغياض النضرة فوق مزرعة كفر ديبان التي تبعد عن بيروت بمقدار ٥٦ كيلو متراً وهذه القلعة من الآثار الخالدة التي شاهدها الرومان ، على أنقاض هيكل فينيقي ، كان آية في الروعة والجمال . وقد رأينا فيها دهاليز

ضيقة ، تتصل بحجره صغيرة ، كانت ترتكب فيها الفحشاء إرضاء للآلهة . ويتخذ رعاة تلك الجهات اليوم سرايب هذه القلعة ودهاليزها مأوى لهم ولقطعانهم . ويقوم بقرب قلعة فقرا هيكل للزهرة ، يستدل من أعمدته الباقية على الزمن على أنه كان على مبلغ عظيم من العظمة والجلال .

نزهة إلى نبع اللبن

تركنا قلعة فقرا في ذلك المكان المنعزل ، وواصلنا سيرنا إلى نبع اللبن ، وارتفاعه عن سطح البحر ١٦٩٠ متراً ، في طريق تحف به المناظر الطبيعية الجميلة ، التي تأخذ بجامع القلوب ، ويهيمن سحرها على النفوس المتعطشة إلى رؤية مثل هذا الجمال ، الذي تحجبه المدن عن العين ، ولما صرنا إليه ، شاهدنا الماء الغزير يتدفق بشدة من قاع حفرة عميقة ، واقعة بين شقي جبل ليس بمرتفع ، ثم يصب في هوة سحيقة ، تحجبها الصخور القائمة فوقها عن العيون ، فاكتملينا بسماع صوت هدير الماء ، وهو ينحدر بقوة في تلك الهوة السحيقة .

ذقنا ماء هذا النبع ، فإذا برودته طبيعية ، وعدوبة مائه ربانية ، ذلك ولا عجب لأنه كان أحد الأنهار التي أوجدها الخالق عز وجل في جنة عدن ، ليشرب منها أبونا آدم وأمنا حواء ، وكانت الجنة في تلك البقاع كما قيل لنا .

جسر الحجر الطبيعي

تركنا تلك البقاع الفاتنة أسرى جمالها ، ولم نكن نقوى على مغادرتها بسهولة ، لو لم تداعبنا رغبة ملحة في رؤية جسر الحجر الطبيعي الواقع فوق نبع اللبن الذي سمعنا عنه قبل أن نراه ، فأخذنا نجد المسير قبيل الأصيل ، متبعين مجرى الماء المنساب من نبع اللبن في واد يتسع عند انحداره ، حتى بلغنا قنطرة عجيبة في شكلها ، غريبة في تكوينها ، قائمة بشكل نصف دائرة ، فوق واد يأخذ بالاتساع رويداً ، حتى يصل إلى هذا الجسر ، الذي تنتصب على يمينه صخور معلقة بالفضاء ، رأينا تحته قطعان الماعز تنفياً ظلها .

وقفنا أمام هذه القنطرة دهشين ، مسبحين بحمد من أوجدها على هذه الصورة ، حقاً إن هذه القنطرة عجيبة ، لأنها ليست من صنع إنسان . رأينا فلاحاً شيخاً ولكنه بقوة الشباب ، يفلح الأرض التي بالقرب من هذه القنطرة بمحراث بدائي ، فوقفنا نتأمله ، ونعجب من خفته ورشاقتة ، ونضارة وجهه ، ونظافة جلبابه ، الذي لم يسلم من كثرة الرقع فيه ، إلى أن تنبه لنا وحيانا من بعيد بالتحية اللبنانية المألوفة مرحباً بنا ، فدلّفنا إليه ، ولما اطمأن إلينا واطمأنينا إليه ، سألته سلوى عن هذه القنطرة الغريبة ، وعن تاريخها ، ومن صنعها . كان سؤال سلوى ينطوي على مداعبة بريئة أرسلتها إلى شيخنا ، غير أن هذا كان أبرع منها في هذا

الفن ، فن المداعبة الذى حذقه فى أعالي الجبال ، إذ ما كاد يسمع هذا السؤال ، حتى ارتسمت على محياه ابتسامة لا تخلو من السخرية ، وكأنى بلسان حاله يقول :

— هل يوجد فى العالم من لا يعرف تاريخ هذه القنطرة الشهيرة .
جلس فلاحنا الشيخ على حجر ، وجلسنا نحن على الأرض أمامه ، جلسة التلاميذ أمام المدرس سواء بسواء نستمع إلى حديثه ، وهو يقص علينا قصة هذه القنطرة الغريبة فقال :

— إن سيدنا آدم عليه السلام ، بعد أن طرده البارى تعالى من الفردوس الأرضى الذى كان يقع فى هذه البقاع ، لم يغادر لبنان ، بل أثر الإقامة فيه يتعهد أرضه ، ويعنى بحيواناته ، إلى أن بنى له هذه القنطرة العجيبة فى ارتفاعها ، الضخمة فى تكوينها ، وهذه القنطرة تعرف « بجسر الحجر الطبيعى » طولها ٥٢ متراً وعرضها ٢٥ متراً وارتفاعها ٥٨ متراً . أعجبنا الحديث عن هذه القنطرة من شيخنا الفلاح ، كما راعنا الماء المتدفق بقوة من تحتها وقد خطط فى أثناء انحداره من أعالي الجبال الأراضى التى تحيط بها بشكل يدعو إلى الإعجاب والدهش ، ويظهر ذلك بوضوح من التواء الدروب والمسالك ، وتخرج الطرقات والمعابر القائمة على حواشى الأودية ، التى رأينا الكثير منها فى تلك البقاع الفاتنة .

غير أن الدكتور خليل لم يقتنع بتعليل شيخنا الفلاح فقال :

— إن العوامل الطبيعية يا والدى هى التى أحدثت هذه القنطرة وأوجدتها على هذه الصورة ، وسيدنا آدم ليس له يد فى صنعها .

لم يرق هذا الكلام في نظر شيخنا الفلاح ، فأظهر امتعاضاً منه ،
ورمى الدكتور خليل بجهل الحقائق وقال :
— أنت الغريب عن هذه الديار ، تريد أن تكذبنى وتكذب أجدادى
الذين تناقلنا عنهم قصة هذه القنطرة ؟
فلم يسعنا فى النهاية بعد أن لمسنا غضبة شيخنا علينا ، إلا أن نسلم
بصحة قوله ، ونطيب خاطره ، ونعتذر له ، ثم ودعناه وانصرفنا وكانت
الشمس على وشك أن تطوى خيوطها الذهبية استعداداً للرحيل .

عجلتون

قضينا ما يقرب من أسبوع نتنقل فى مصايف كسروان ، من شمالها
إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها ، وقد ملكت على قلوبنا مناظرها
الطبيعية الجميلة ، فكانت كل خطوة نخطوها فى تلك البقاع تعكس
على نفوسنا ما يقع تحت عيوننا من سحر وجمال ، إلى أن هبطنا إلى عجلتون
وترتفع عن سطح البحر بمقدار ٨٥٠ متراً ، وتبعد عن بيروت بـ ٣٤
كيلومتراً ، فى طريق مفروش بالأسفلت ،
وتحيط بعجلتون الغابات ذات الأشجار الذكية الرائحة ، يشرف عليها
جبل صنين من علياء مجده ، وينبسط تحتها الشاطئ بجماله وروعته .
ما أجملها صورة ، حين ترى شمس صنين ترحف فى الصباح الباكر
فوق تلك الربى والهضاب ، فتبتسم لها الطبيعة ، التى تشترك فى صنع
هذا الجمال ، الذى يعجز عن رسمه أعظم فنان !!

عينطورة

ولما استقرينا بعينطورة الواقعة بين الغياض ، وسط الجبال المتوسطة الارتفاع ، زرنا فيها مدرستها الشهيرة ، التي أسسها الآباء اليسوعيون الأفاضل في نهاية القرن السابع عشر ، ثم حل محلهم فيها سنة ١٨٣٤ حضرات الآباء العازاريين المحترمين ، الذين ما فتئوا يواصلون جهودهم في حقل الثقافة العامة في لبنان . وقد تخرج في هذا المعهد الزاهر ، الذي أكسب عينطورة شهرتها ، وخلد اسمها بحروف من نور ، كثير من نوابغ اللبنانيين ، وغيرهم من الذين ضربوا بسهم وافر في شتى ميادين الأعمال . وقد اطلعنا على سجل كبير ، يحتوى على أسماء شخصيات كبيرة أجنبية ووطنية زارت هذا المعهد . ويفخر هؤلاء الآباء الأفاضل الذين تجردوا لخدمة العلم والدين بهذا السجل ، ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا !!

قرية الذوق

واصلنا سيرنا بعدئذ إلى قرية الذوق الحاملة بين الجبال ، ذات الأشجار الشاحخة ، وقد اشتهرت بتطريز الأقمشة الحريرية وزركشتها بالقصب . قد أعجبنا كثيراً بهذه الصناعة المتروية في الجبل كالزنبقة بين الأدغال ، والتي يجيدها فتيات هذه القرية . إنهن بحق فنانات ماهرات بارعات ، قد غرس في نفوسهن حسن المناظر الطبيعية في لبنان صوراً من صنوف

الجمال ، يحكيونها بخيوط كيفما يشاء هن الفن ، هي خيوط مجد ، وعنوان
فخر على جبين الذوق القرية الوديعة .
ولم نشأ أن نغادر الذوق ، دون أن نبتاع منها بعض تذكارا ،
بأثمان تعتبر زهيدة ، إذا قيست بالفن الرفيع الذي يتجلى في كل خيط
من خيوط تلك المنسوجات . أجل ، لقد ذكرتنا الذوق في لبنان وأقمشتها
المزركشة الجميلة الأشكال المتباينة الألوان ، بخان الخليلي في مصر ، الذي
أول ما يذهب إليه السائح الأجنبي عندما يهبط في مصر ليمتاع منه
منسوجات شرقية ، بأثمان باهظة ، هي شديدة الشبه بالمنسوجات التي
يحكيها فتيات الذوق الرشيقا في لبنان . كم من اللبنانيين ، أو اللبنانيين
المغتربين الذين يحضرون إلى لبنان ، ولا أقول السائحين الأجانب ،
يزورون قرية الذوق ويبتاعون تذكارا من منسوجاتها الشهيرة الجميلة ،
إهم قلة على ما قيل لنا . يجدر بالحكومة اللبنانية أن تولى هذه الصناعة
عنايتها ، وتمد يد المساعدة لأربابها ، وتساعد على تصدير ما ينتج منها
إلى الخارج ، لأن منسوجات كهذه تحمل صورا من لبنان هي دعاية
طيبة للبنان ولقرية الذوق الصغيرة

إلى يحشوش

اتجهت نيتنا عندما بلغنا غزير في أثناء عودتنا من كسروان ، إلى
أن نشد الرحال إلى يحشوش ، لنشاهد عن كثب ، السنديانة التي كثيرا

ما كان الكاتب الكبير المرحوم داود بركات ، رئيس تحرير الأهرام الأسبق يتغنى بها ، إذا ما هزه الشوق إلى لبنان ، وهدده الحنين إلى الكتابة عنه ، وينتخر بأنه تلقى علومه تحتها ، يوم أن كان التعليم تحت السنديانة أو الصنوبرة في الهواء الطلق شائعاً في قرى لبنان . فأخذنا نصعد في طريق شق وسط الجبال ، تحف بنا المناظر الطبيعية التي كانت رؤيتها تهز أعطافنا ، والنظر إليها يملك علينا أفئدتنا وكانت ترافقنا في أول الطريق أسراب من الطيور تحلق فوق سيارتنا ، وتشنف آذاننا بتغريدها الشجي .

قرية الغني

ولما بلغنا قرية الغني التاريخية ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٤٣ كيلومتراً شاهدنا نقوشاً على صخرة فيها تمثل حيواناً برياً يفترس فتي ، قيل لنا إن هذه النقوش ترمز إلى قصة مصرع أدونيس ، إله الحب ، وقد ذكرناها عند الكلام على نهر إبراهيم ، كما رأينا في جهة أخرى من الصخرة صورة امرأة قيل لنا إنها لأفروديت تبكي عشيقها .

مغارة أفقا

استرحنا بعض الوقت في هذه البقعة التاريخية ، نستعيد في أذهاننا ذكريات الماضي ثم واصلنا سيرنا إلى أفقا ، وهي قرية صغيرة ، كان لها

شأن كبير في الماضي تقع على بعد ٨٤ كيلو متراً من بيروت ، ورأينا على مقربة من مغارتها الشهيرة ، المعروفة بمغارة أفقا ، التي ينبع منها نهر إبراهيم ، هيكل قديم ، كان مكرساً للزهرة ، تحيط به جبال شامخة الارتفاع ، يحمل منظرها على التأمل بالماضي السحيق ، المليء بجلاوة الذكريات ، يوم أن كانت هذه البقعة من لبنان ، مسرحاً لاحتفالات دينية ومزاراً لهيكلها ، كانت ترتكب فيه جميع أنواع المحرمات لإرضاء للإلهة الزهرة التي ما فتئت تتردد على زيارة هذه البقاع . ذلك هو اعتقاد القوم هناك . تابعت سيارتنا سيرها حتى بلغنا يحشوش بيت القصيد وكان الوقت ظهراً . ويحشوش قرية هادئة تقع في أعالي فتوح كسروان جوها صحي جاف ، وماؤها بارد عذب ، وهوائها عليل ، وأهلها لطيفو المعشر يرحبون بالضيف . تجولنا في يحشوش ، فألفينا فيها كل شيء جميل ، بل أجمل ما فيها السنديانة التي تغزل فيها المرحوم داود ، وأسفنا ، لأننا لم نر تحتها تلاميذاً ، يتلقون العلم ، ويستروحون بنسيمها العليل ، إن همسات أغصان شجر السنديان ، وهي تمايل مع خطوات النسيم ، تنقل إلى الآذان أعذب الألحان فيتردد صداها في كل مكان .

وكم تمنينا لو أن لابن يحشوش داود ضريحاً لنجمع من حقولها باقة زهر ، ونضعها عليه ، اعترافاً بما أسداه ذلك الكاتب الكبير من خدمات للبنانيين عامة ، والمقيمين منهم بالقطر المصري خاصة ، إن باقة زهر رمزية من حقول لبنان ، يصفوها بالإقرار بالجميل ، لهى أقل شيء يهدى إلى روحه الطاهرة في هذا المقام رحم الله داود رحمة واسعة .

القرية اللبنانية

أخذت السيارة بعد أن تركنا يحشوش لها طريقاً في دروب ليست
بوخشة طرق الشمال وصعوبة التصعيد فيها ، وكان الوقت قبيل
الغروب ، فصادفنا فلاحاً يسير أمامنا ، مرفوع الرأس ، موفور الصحة
والعافية ، يحمل على منكبيه عدا ثقل السنين التي ربما قد جاوزت
الستين ، محراثاً بدائياً ، ويدفع أمامه ثورين في عنقهما نير ، كان يحثهما على
السير من حين إلى حين بمهماز ، وهو يترنم بالأناشيد العذبة بصدر
منشرح وبال مطمئن .

التفت إلينا العم أبو طنوس كعادته وقال :

— انظروا إلى هذا الفلاح ، إنه مثال اللبناني الحقيقي ، فأجداده
هم الذين فتتوا الصخور الصلدة القاسية ، المحيطة بقراهم وحولوها إلى
جلول خصبة ، غرسوا فيها الأشجار ، ودوالى العنب ، فالفلاح اللبناني ،
في حرب دائم مع الطبيعة القاسية الغادرة ، التي تناصبه العداء دوماً .
فتراه متى تمكن من أن يحتضن حفنة من تراب جرفتها مياه الأمطار
الصاخبة ، واستقرت بها بين سلاسل الجبال ، أو فوق الربى والهضاب ،
أو على هوامش الدروب وحواشي معابر الطرقات ، والوديان راح يزرعها
بفنه ، ويتعهد بها بعنايته . يغرس فيها دوالى العنب ، وأشجار الفاكهة ،
وبذور الصنوبر والسنديان والبلوط والخروب وسواها من الأشجار التي

تنبت في ربي لبنان . إن هذا الفلاح هو الآن في طريق العودة إلى بيته بعد عمله اليومي المضني الشاق ، في حقله ، أو في كرمه .
ويحنو الفلاح اللبناني على أرضه التي يرويها بعرقه ، كما تحنو الأم الرؤوم على رضيعها الذي تسقيه قطرات دمها ، فالأرض بالنسبة له ، هي أحب شيء إلى قلبه بعد ربه ، كما أن اعتقاده برحمة ربه ، يضارع إيمانه بفائدة أرضه ، فهما المصدران اللذان يبعثان في نفسه روح الأمل ، ويضيفان عليه الطمأنينة في العمل ، ويشيعان في معيشته السكينة والهدوء .

استأنفت سيارتنا سيرها في أثر الفلاح بعد أن كنا قد أوقفناها مدة في جانب الطريق فأردف العم أبو طنوس ما تقدم قائلا :
— يخرج الفلاح اللبناني من بيته ، والطير في وكناتها ، ويعود إليه في مثل هذه الساعة ، فيلقى امرأته في انتظاره ، وقد أعدت له الماء ليغتسل ، والملابس النظيفة كي يرتديها ، وهيأت له أنواع الطعام الشهى ، على مائدة بسيطة ، يجلس أمامها ومن حوله أولاده وأمرأته ، يأكلون ويتسامرون فينسى جميع المتاعب التي لقيها طول يومه .
ولا يترك الفلاح اللبناني شبراً من الأرض دون أن يستفيد منه ، فهو يزرع أمام بيته المتواضع حديقة صغيرة ، ليسد حاجة أسرته من فواكه وخضروات .

كان الفلاح يسير أمامنا ونحن نقتفي أثره بسيارتنا ببطء ، فأكدنا نقرب منه حتى تنبه لنا ، فأفسح الطريق أمامنا ، فتقدمناه بضعة أمتار ،

أوقفنا سيارتنا بعدها في جانب الطريق ، ونحن في أشد الشوق إلى لقياه والتحدث معه بعد أن شاقنا حديث العم أبي طنوس عنه . فلما مر بنا ، حيانا بالتحية اللبنانية المألوفة قائلاً : العوافي يا شباب .

فرد عليه العم أبو طنوس قائلاً : عفاك الله يا عم .

— قال الفلاح : يظهر أن الشباب غرباء .

— قلنا نعم ، لقد جئنا من مصر إلى بلادكم الجميلة للاصطياف

— فقال : أهلاً وسهلاً ومرحباً . كيف وجدتم لبنان ؟

— قالت سلوى : إن كل شيء في لبنان جميل .

— أجاب الفلاح نعم يا ابنتي ، ومع ذلك لا يرى أبناؤه هذا الجمال ،

فتركونه ويهاجرون إلى الأقطار الأفريقية ، أو الأمريكية وسواها من بلاد الله الواسعة ، كأن لبنان ضاق على رحبه بأبنائه ، كان عدد سكان لبنان في الماضي يزيد عما هو عليه اليوم كثيراً جداً ، وكانوا يعيشون معيشة ملؤها القناعة والرضا ، وفي قناعتهم كان غناهم .

قالت سلوى : صدقت يا عمي فيما تقول ، ولكن أما فكرت وأنت

في صدر شبابك ، أن تهجر لبنان في يوم من الأيام ، وتحذو حذو بني عشيرتك وأهلك ؟

هز الفلاح رأسه وسكت برهة وقال :

— كنت أملك في ضواحي بيروت بستاناً كبيراً أتعهده بنفسى ،

فركب شيطان الطمع يوماً رأسي ، فزين لي أن أبيع البستان ، وأشد رحالي إلى أفريقيا بعد الحرب الكبرى الأولى عند ابن عم لي ، حيث

مكثت زهاء سنة واحدة ، تاجرت في بعضها ففشلت ، ومرضت مرضاً عضالاً في البقية الباقية منها ، ولكن الله أخذ بيدي وشفاني ، بعد ما فقدت كل رأس مالى ، فقلت في نفسى العود أحمد ، فركبت أول باخرة ، وعدت بها إلى لبنان الحبيب لأشتغل في مهنة أجدادى التى هى الزراعة والفلاحة ، وإنى والله الحمد كما ترون سعيد فى معيشتى ، قانع بخيرات أراضى ، أعيش مع أولادى معيشة ملؤها الهناء والسرور .

— قالت سلوى : الهجرة إذن وبال على لبنان .

— وأى وبال !! ولا سيما فى هذه الأيام وأظن الحكومة اليوم تعنى عناية جدية بمسألة المغتربين ، وترغبهم بجميع الوسائل فى العودة إلى لبنان . فلبنان لا يعمر ، ولا تقوم له قائمة إلا بسكانه .

دعانا الفلاح ، وقد عرفنا أن اسمه أبويوسف ، إلى داره فى مشارف القرية ، فقبلنا الدعوة شاكرين ، فأركبناه معنا سيارتنا بينما كان الثوران يتقدماننا فى طريقهما إلى البيت .

ولما وصلنا إلى داره ، وجدنا امرأته فى انتظاره ، وعلى ثغرها ابتسامة الرضى والسرور ، بعودة زوجها إليها .

فقال لنا العم أبويوسف : انظروا ، إن هذه الابتسامة تنسبى متاعب اليوم كله ، وهى فى نظرى أثمن من كنوز الأرض التى يهاجر فى سبيلها اللبنانيون .

تركنا سيارتنا جانباً فى الطريق ، وأخذنا نصعد فى جلول إلى البيت ، فقابلتنا امرأته بالترحاب ، كما التف أولاده حولنا مبالغة منهم فى إكرامنا .

قضينا ساعة مع العم أنى يوسف طرقنا فيها موضوعات شتى وكان العم أبو يوسف يصول وييجول فيها معنا ، ويحدثنا بكل شىء حديث الخبير العارف ، لأنه كثير الاطلاع ، ولما سأله الدكتور خليل فى النهاية عن نوع السماد الذى يستعملونه فى تسميد الأرض ، دهش العم أبو يوسف من هذا السؤال وقال :

— نحن لا نستعمل سباخاً قط ، فالطبيعة هى التى تتكفل بتسييح الأرض . إن أرضنا ولله الحمد طيبة ، وتربتها خصبة جيدة .
— قال الدكتور خليل : إنك على حق يا عم أبو يوسف فيما تقول ، دغنى أشرح لك كيف أن الطبيعة فى لبنان قمينة بتسييح الأرض .

العوامل الطبيعية التى تؤثر فى خصوبة التربة اللبنانية

قال الدكتور خليل :

— كان الإنسان فيما مضى يعتبر حدوث البرق ، الذى يعقبه قصف الرعد كأنه كارثة من كوارث الطبيعة ، تهدد حياته بالفناء ، فكان مجرد سماع الإنسان قصف الرعد يثير الرعب فى نفسه ، ويلقى الروع فى قلبه ، غير أن العلم الحديث قد أثبت أن للبرق وللصواعق فوائد جمة ، وتأثيراً فعالاً فى خصوبة التربة ، فاحتكاك الغيوم بعضها ببعض ثم احتكاكها بالأرض ، يحدث شرارات كهربائية تكون نتيجةها تحليل الغاز الموجود فى طبقات الجو إلى عناصره الأولية ، فتنفصل ذرات الأكسجين عن ذرات النروجين

الموجودة بكميات وفيرة في هذا الغاز ، فتهبط مع الأمطار إلى الأرض ، فيصيب كل كيلومتر مربع منها ما يقرب من ٣٠٠ كيلو جرام ، تؤثر تأثيراً مباشراً في خصوبة التربة وتجعلها صالحة للزراعة .

ويؤكد علماء الطبيعة والكيميائيون ، بأنه ينتج عن حدوث هذه الظاهرة الطبيعية أكثر من مائة مليون طن نروجين سنوياً ، تستقبلها الأرض بالترحاب ، وتكون من أكبر العوامل على إخصابها . ثم إن لبنان بطبيعة موقعه الجغرافي ، وكثرة هطول الأمطار فيه في فصل الشتاء ، وحدوث البرق والرعد ، لا يشذ عن هذه النظرية . هذا هو التحليل العلمي لكلامك يا عم أبو يوسف .

أعجب العم أبو يوسف بكلام الدكتور خليل ، وبتعليقه العلمي المفيد . وبعد أن أخذنا قسطاً كبيراً من الراحة في دار أبي يوسف شكرنا له ولامرأته الفاضلة حسن ضيافتهما ، وانصرفنا .

إلى دير مار مارون عنايا الناسك القديس

كانت الشمس تزحف متباطئة في برجها ، ناشرة أشعتها الذهبية فوق الربى والآكام عند ما أخذت سيارتنا تغد السير في طريق معبد غايتها دير مار مارون عنايا لزيارة ضريح الناسك القديس الأب شربل مخلوف ، الذي يكرمه جميع اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم من مسلمين

ودروز ومسيحين والذي يعتز حسن سائق سيارتنا بصورته الموضوعة أمامه في السيارة ويستبشر بها خيراً .

وكنا نقابل أثناء سيرنا السيارات الفخمة غاديات رائحات في هذه الطريق وكانت بالأمس مهمة لا يقربها إلا رعاة الماعز ، ولا يحوس خلالها سوى الفلاحين .

ولما أشرفنا على الدير كانت ساحته تغص بالسيارات ، وتطفح بالناس ، وقد أتوا لزيارة ضريح رجل الله الذي يفعل كثيراً من المعجزات قصدنا ضريحه الطاهر ، فوجدنا أمامه جموعاً من طلاب الحاجات ، وقد وقفوا بنحشوع مرفوعين بقلوبهم إلى أعلا ، فوقفنا بينهم ، وشعرنا بقرارة نفوسنا بما يشعر به هؤلاء الناس .

وبعد أن تجولنا في أروقة الدير بصحبة راهب كان يشرح لنا كل ما تقع عليه عيوننا ، صعدنا إلى المحبسة حيث قضى الناسك شربل حياته ، فإذا هي تقع فوق رابية عالية ، يمتد النظر منها إلى أفق بعيد المدى ، فسيح الأرجاء حوى صوراً شتى من ألوان الجمال ، وتحيط بهذه المحبسة أشجار السنديان وتنبت تحتها بلاد كسروان ، وتقوم في وهادها ووديانها غابات السنديان والبلوط ، وحول المحبسة كروم العنب التي كان يتعهدا الناسك شربل بعنايته .

وتتألف هذه المحبسة من خمس حجرات صغيرات ، أقيمت على جانبي ممشى ضيق ، ولما أن وقفنا أمام حجرة منها فتحتها الراهب الفاضل وقال : في هذه الحجرة كان ينام الأب شربل ، وكان فراشه من ورق

شجر السنديان ، وكان يتوسد قطعة من الخشب .
وبعد أن مكثنا مدة في ذلك الجو الساحر نعيش بالذكريات مع
الأب شربل الناسك القديس غادرنا تلك البقعة الطاهرة التي اكتسبت
شهرتها من ناسكها ونحن نحمل لها في طيات قلوبنا أجمل الذكريات .

الفصل التاسع

في الطريق إلى مصايف المتن

انطلياس

أنطلياس ضاحية قديمة من أجمل ضواحي بيروت بما فيها من بساتين
يائعة ، ذات مناظر خلابة فاتنة قريبة من شاطئ البحر مكثنا فيها
يوماً وبعض يوم ، بعد عودتنا من كسروان ، تجولنا في متنزهاتها
المشهورة ، وجسنا خلال بساتينها العامرة بأشجار البرتقال والليمون والتفاح
والموز المشابكة الأغصان ، وقد غرست بشكل هندسي يسمح معه
زراعة الخضروات في المسافات الشاغرة بينها ، فكأن الناس في هذه البقعة
من الأرض أرادوا أن يستغلوا كل شبر فيها .

نبع الفوار

ويقع في الجهة الشرقية منها ، نبع الفوار الشهير ، وتنبثق مياهه من
رمال بيضاء اللون ، ترتفع في الجو على هيئة نوافير ، ثم تهوى إلى مستقرها ،
وتجري في قنوات وهي تترنم بين الأعشاب النامية على الجانبين ، وتهامس
مع الحصى الصغيرة حين تدفعها أمامها عند انحدارها ، لتروى الحدائق

والبساتين ، ناثرة رذاذها في الهواء ذات الشمال وذات اليمين ، حتى ليبدو كأنه لؤلؤ منثور . جلسنا في المطعم المقام أمام هذه النوافير الطبيعية التي ليس للإنسان يد في صنعها ، نمتع العين بروعة المناظر التي تكنفنا ، ونتناول ما تيسر لنا من طعام في ذلك الجو الساحر ، حتى إذا انتهينا ، غادرنا المكان وسلكنا طريقاً يوصل إلى رابية عالية بدت لنا منها بساتين أنطلياس ، كبساط أخضر اللون ، رصعته يد الطبيعة بخيوط من لجين ، وفرشته على أديم أرض تضرب إلى الحمرة في لونها ، لوفرة ما فيها من بساتين تجاور بعضها بعضاً ، يتخللها مجارى المياه العذبة التي تغذيها وتتخرج في كل شبر من أراضيها .

الشاطيء الجميل

هبطنا إلى الشاطيء الذى ينبسط تحت أقدام هذه الضاحية الفاتنة ويمتد في الطول إلى مسافات بعيدة ، فلم نر مع الأسف الشديد ، أثراً للحياة فيه ، فقد تركه ولاية الأمور على سببته وأهملوه ، ولم يمدوا إليه يد الإصلاح والتهديب ، بإقامة المقاهى عليه وإنشاء المطاعم في ضواحيه ، ليصبح متنزهاً عاماً ، وشاطئاً ملائماً للاستحمام يؤمه الناس في الصيف والشتاء على السواء ، لأن منطقة أنطلياس وما جاورها من المدن الساحلية من أجل مشاتى العالم ، لاعتدال الطقس فيها في فصل الشتاء ، وكم وددنا لو أن هناك مقهى أو مطعم نجلس فيه ، لتناول شيئاً من المرطبات ،

أمام زرقة البحر ومياهه الهادئة ، بل اكتفينا بالجلوس فوق كسبان الرمل
 الناعم ، نسرح الطرف في جماله الساحر ، ونشاهد مراكب الصيد ،
 تتنقل فوق سطحه وشباكها خلفها ، وبجارتها من فوقها يتنقلون بخفة
 ورشاقة ، كما تتنقل الطيور فوق الأفنان .

وكانت الأمواج تتسرب إلينا بخفة من غمرات الماء ، وتسرق
 إلينا ، وهي تهم بأن تنثر رذاذها الفضي علينا ، تريد مداعبتنا ، ولكنها
 لم تفعل ، بل كانت ترتد عنا إذا دنت منا ، حتى لا تعكر علينا صفو
 وحدتنا ونحن نتعبد في محراب نبتون إله البحر .

أيها الشاطيُّ ما أجملك برملك الناعم كالحرير ، الذي افترشه عبريت
 جنية البحار في غابر الأزمان ، وتفرشه اليوم أجسام الحسان ، تحت
 أشعة شمس لبنان !!

أيها الشاطيُّ ، ما أبهاك بصخورك التي تتوج هامتك وهي تتحدى
 الأنواء والأعاصير ، وتهزأ بالزوابع والعواصف ، فلا تقوى هذه جميعها
 على النيل منها ، بل ترتد عنها كليله ذليلة ، لأن في هذه الصخور الصلدة
 العزم والقوة ، وفي شموج قممها آيات النبل والعظمة !! ما أروعك أيها
 الشاطيُّ بخلجانك التي تباهى سائر خلجان العالم بشكلها الرائع ،
 ومنظرها المهيب ، وهي تحتضن مدن لبنان الساحلية ، ويتردد فيها نسيم
 لطيف يزيد طرباً صوت أمواج البحر ، التي ترتطم بصخور هي البقية
 الباقية من جبال راقدة في سفح جبل لبنان ، وكأنني بهذه الأمواج تعزف
 على تلك الصخور أنشودة الخلود على معزف الطبيعة !!

أيها الشاطيء أنك حقاً جميل بجبل لبنان الذي يشرف عليك من عل ،
بما فيه من مناظر خلابة فاتنة .

جورة الزيتون

كانت سيارتنا بالقرب من الشاطيء ، فأمتطيناها ، ودرجت بنا في
طريق تحف به الأشجار والبساتين ، ومجارى المياه على الجانبين ، حتى
بلغنا الساحة العمومية بعد دقيقتين ، أخذت سيارتنا بعدهما تمر في طريقٍ
متسعٍ معبد بالأسفلت ، إلى أن استقبلتنا جورة الزيتون ، فسمعنا لأول
مرة تلك الموسيقى الطبيعية التي لا تشنف آذان من لا يألف سماعها . إنها
موسيقى صرير الجنادب المستوية فوق أفنان الصنوبر آمنة مطمئنة . كانت
ترانا ولا نراها ، وتسمعنا صريرها رغم أنوفنا .

ويطمئن سكان الجبال إلى سماع مثل هذه الأصوات التي يألّفونها ،
كما يطمئنون إلى سماع الأغاني والأناشيد الممتعة ، وسماع عواء بنات آوى
والذئاب في الغابات سواء بسواء ، وهدير المياه المتساقطة من منحدرات
الجبال ، وتغريد الحساسين ، وزقزقة العصافير فوق الأفنان ، وتلاطم
الأمواج على الشاطيء الفاتن ، وقصف الرعد في أيام الشتاء ، ونقر الأمطار
فوق الأغصان العارية ، وتوقيع البرد فوق الجبال ، وعصف الرياح في
الوديان العميقة ، ورؤية الزهر المختلف الأشكال والألوان وهو يتفتح من
الأكمام فوق الهضاب والربى في الربيع ، ناشراً عييره الذكي بنجمل

وحياء ، على حين تنوع أشجار الفاكهة بما تحمله من ثمار في ركاها
الخير والبركات . كل هذا من مستلزمات جمال الطبيعة في لبنان ، تطالعك
به بتغير فصول السنة . ذلك هو سر الجمال في لبنان .

وجورة الزيتون ، ولعلها سميت بهذا الاسم لوفرة شجر الزيتون الذي
فيها قديماً ، هي بقعة ساحرة ، يملأ جمالها العين ، كسا رباهما شجر الصنوبر
الرائع ما بين كبير وصغير ، يرجع تاريخ غرس بعضه إلى عشرات السنين
يصطف بانتظام على جانبي الطريق ، كما يقوم بعضه فوق منحدرات
ليست بوعرة تهبط بالنظر إلى واد ليس بعميق ، وتبسط أوراق هذه
الأشجار الأبرية التي تملأ رائحتها المسكية الهواء ظلها الشفاف فوق منبسط
من الأرض تستطيع العيون أن تستشف منه زرقة السماء .

وقد أخبرنا أحدهم أن الأمريكان قد اشتروا قطعة كبيرة من الأرض
في بقعة جورة الزيتون ، لإقامة مستشفى عليها ، فإذا صح هذا ، فإن
أشد ما نخشاه ، هو قطع شجر الصنوبر الذي هو زينة أحراش لبنان .
استأنفت سيارتنا سيرها بعد أن تجولنا في هذه البقعة مدة بين أشجارها
وصخورها ، في طريق مفروش بالأسفلت ، كثرت منحنياته كباقي طرق
لبنان ، تفادياً من حوادث الصدام ، غرست أشجار الصنوبر على
على جانبيه ، فمررنا بقرى كانت مهمة في الماضي لا شأن لها ، غير أن
يد العمران اليوم قد مستها بعصاها السحرية فأحالتها إلى جنان ، فقد
شيدت فوق رباهما كثير من المباني الحديثة ، كما غرست في رحباتها
الحدايق الغناء المملأ بأشجار التفاح والكمثرى والبرقوق والمشمش ، وذلك

بفضل أموال المغتربين ، الذين هاجروا وأثروا وعادوا إليها ، وآثروا الإقامة فيها .

قرنة الحمراء والفريكة

ما زلنا نطعن إلى أن انبسطت عن يسارنا قرية قرنة الحمراء ببيوتها الجميلة المعممة بالقرميد الأحمر ، ومن حولها كروم العنب والحدائق والآكام المغطاة بالأشجار الباسقة ، ثم ما لبثت أن بدت لنا قرية الفريكة مسقط رأس المرحوم أمين الريحاني الكاتب اللبناني الشهير ، ورفيق جبران وميخائيل نعيمة في الغربية وواحد من اللبنانيين الذين حملوا مشعل الثقافة العربية في المهجر .

وقد أقيمت هذه القرية على شفير الوادي المشهور بمناظره الطبيعية الفاتنة ، وأشجاره السامقة وينحدر تدريجاً حتى نهر الكلب ، فيغسل فيه قدميه العاريتين .

أظهرت الأنسة سلوى رغبتها في زيارة ضريحه في قرية الشاوية ، فتوجهنا إليه سيراً على الأقدام ، في طريق معبدة ، فلما بلغناه ، ضفرنا إكليلاً جمعنا زهوره من الحقول المجاورة ، ووضعناه على الضريح القائم عند سفح رابية يكللها شجر الصنوبر الدائم الاخضرار في ظل السنديانات الثلاث التي تظله ، وبعد أن وقفنا أمامه صامتين نحو دقيقتين ، مترجمين على من يحويه ، أطرفنا العم أبو طنوس كعادته معنا ، بحديث قال لنا

إنه دار في الشتاء ، بين شجرة صنوبر كبيرة قديمة الأيام وأخرى صغيرة في وادي الفريكة ، يوم أن رأتا أميناً إثر عودته إلى لبنان ، بعد غيبة طال أمدها أعواماً .

— قالت الصنوبرة الصغيرة لأمها : من هذا الغريب ، الذي لا يخاف السكنى معنا في هذا الشتاء ؟

— أجابت الأم : ما هو بغريب يا ابنتي ، إنما هو من نبات هذه الأرض وصخورها ، ومن سنديان هذه الجبال ، هو من أبنائنا يا بنية ، وقد طالما حملته وحملته من ثماري لما كان صغيراً ، وطالما فرشت له من ورق ليسترىح عليه ، ونشرت له ظلي ، كي يتفياها ، ويزيل عنه تعب الجسد وهم الفؤاد ، وبعثت إليه من أرج نسيمي ، ما ينعش النفس ويحييها ، ومع ذلك فقد هجرنا زمناً ، وعاد اليوم إلينا ، ليكفر عن خطيئة هجره لنا ، وينعم في ظلنا . حبيه يا ابنتي ، فإنه يحبنا .

بهذا كانت تتحدث الشجرة عند ما عاد أمين إلى لبنان ، بعد غياب عدة أعوام .

وما قالت شجرة الصنوبر الوفية الأمينة المخلصة بالأمس لأمين ، تقوله اليوم لكل واحد من المغتربين اللبنانيين ، الضاربين في مشارق الأرض ومغاربها ، تهيب بهم : أن عودوا إلى لبنان وقد طالت غربتكم ، وانحنى ظهره من الحزن على فراقكم ، إنه اليوم في انتظاركم لتعمروه ، ولتجددوا شبابه بوجودكم فيه ، وبذلك يعود اللبنانيون يتنمون بذلك المثل القديم « هنيئاً لمن له مرقد عترة في جبل لبنان » .

منضدة اللينوتيب العربية

وقبل أن نهم بمغادرة الفريكة ، قال لنا العم أبو طنوس :
 — هل تعرفون لمن الفضل في اختراع منضدة اللينوتيب العربية ؟
 إنه اللبناني مغترب عن هذه البقعة ، قد عز عليه أن يرى منضدة اللينوتيب
 تنطق بجميع اللغات ، إلا لغة الضاد ، فأخذ يقدر زناد فكره ، ويفحص
 بعين الحبير منضدة اللينوتيب باللغة الإنجليزية ، إلى أن هداه فحصه وقوة
 ملاحظته إلى اختراع منضدة اللينوتيب العربية ، التي ينعم العالم العربي
 اليوم بفوائدها .

هذا اللبناني المغترب هو المأسوف عليه الكاتب الكبير المرحوم سلوم
 مكرزل شقيق المرحوم نعوم مكرزل مؤسس جريدة الهدى النيويوركية
 وواحد من اللبنانيين الذين نشرُوا لغة الضاد في العالم الجديد .

قرنة شهوان

انتهينا بعد زيارتنا لضريح الريحاني إلى قرية قرنة شهوان ، في طريق
 متصاعدة بين الأشجار . وهذه القرية جاثمة فوق هضبة تعلو سطح البحر
 بمقدار ٦٧٠ متراً وتطل على بيروت ، وقد بدا لنا منها مرفأها الداخل في
 البحر ، كأنه بارجة كبيرة تندفع بقوة نحوه لتمخر عبابه ، كما ظهرت

لنا قرى كثيرة متناثرة هنا وهناك ، غارقة بين الحمائل والغياض .
 وقرنة شهوان سميت بهذا الاسم نسبة إلى المدعو شهوان وقد أقطعه
 إياها أبو نوفل حصن بن فياض جزاء شجاعته ، وهى مقر كرسى مطرانية
 قبرص . زرنا فيها المدرسة اللبنانية الشهيرة التى تخرج فيها فى الماضى كثير
 من رجالات لبنان الذين يشار إليهم بالبنان ، أما اليوم فقد عفا عليها
 الزمان ، وشاخت بمرور الأيام ، ولا يقيم فيها إلا عدد قليل من الكهنة ،
 وكان عددهم فى الماضى كبيراً جداً .

عين عار

ولما بلغت بنا السيارة عين عار ، وهى مركز اصطياف جميل هادئ ،
 جوها ساحر فاتن صافى الأديم ، تحيط بها الغابات الكثيفة وكروم
 العنب ، سارت فى وسطها مخترقة الطريق القديم ، ولما بلغنا القنيطرة بدت
 لنا ضيعة بيت شباب المحبوبة الرابضة فوق صدر الوادى ببساتينها الياضعة
 وأشجار الحور والجوز والصفصاف التى تزينها وبيوتها الجميلة التى يعاوها
 القرميد الأحمر ، قد علفت فيها بعضها فوق بعض بشكل هندسى بديع ،
 يمتد فى الارتفاع حتى الجهة الشرقية منها ، فخفق قلبى لرؤيتها ، واغرورقت
 عينائى بالدموع بعد غياب ربع قرن من الزمان عنها من شدة فرحى .

بيت شباب

وبيت شباب كلمة آرامية معناها بيت الجيران ، وهى من أكبر

قرى لبنان ، وأعظمها شأنًا ، ومع ذلك يحلو لأهلها ولخيرانهم في القرى
المجاورة أن يسموها « الضيعة » ، ماؤها عذب سلسيل ، وهواؤها أبدًا
عليل ، وسمائها دوماً صافية الأديم ، أهلها دمثو الأخلاق لطيفو المعشر ،
يكرمون الضيف ، ويرحبون بالغريب .

وتحيط بهذه القرية البديعة ، منتزهات هي آية في الروعة والجمال ،
وتكتنفها غابات باسقة الأشجار ، ترينها آكام وربى متباينة الارتفاع .
ووصف صاحب دائرة المعارف قرية بيت شباب فقال فيها :

« . . . صهر أهل بيت شباب المعادن فصبوها أجراساً ، وطبخوا
الرمل فأخرجوه فخاراً ، وغزلوا القطن فصيره نسيجاً ، فما رن جرس على
قمة جبل ، أو طن في بطن الوادى ، إلا ورددت رناته العذبة ذكر
بيت شباب ، وما رأيت جرة على كتف قروية ، أو مقلاة يففق
البیض فيها إلا ذكرت بيت شباب ، وما لقيت طائفة من اللبنانيين
يرتدون الديما إلا ذكرت بيت شباب . . . »

فسلام عليك يا بيت شباب القرية المحبوبة ، سلام عليك أيتها
القرية الهادئة الوادعة المستقرة في بطن الوادى كقفير النحل ، سلام على
مسقط رأسى ، ومهوى فؤادى ، ومحط آمالى ، ففبك أيتها القرية الفاتنة
أبصرت النور ، حتى إذا عن الطوق دببت وشبيت ، خرجت إلى دروبك
وطرقاتك لعبت ، وتحت ظل أشجار حراجك الباسقة في أيام القيظ
تفیات ، ومن مياه ينابيعك العذبة الباردة شربت وارزوت .

دخلنا القرية ، ونحن في أشد الشوق إلى لقاء من فيها ، فقابلنا الأهل

والأقارب والأصحاب بمجالى الإكرام والترحاب ، وأنزلونا بينهم على الرحب والسعة مدة جاوزت عدة أيام زرنا فيها مصانع صب الأجراس ، وصنع الفخار ، وحياكة الديما ، بأنوال بدائية ، فأعجب زملائي بما شاهدوا ، غير أن سلوى لاحظت في أثناء زيارتنا لمصانع صب الأجراس ، أن آل نفاع ينفردون دون سواهم في لبنان بهذه الصناعة ، فسألت العم أبا طنوس عن السر في ذلك .

فأجاب قائلاً : نفردت قرية بيت شباب بسبك الأجراس وانحصرت هذه الصناعة في آل نفاع ذلك لأن أحد أجدادهم القدامى ، كان أول من تعلمها من صناع أوربيين قدموا خصيصاً إلى لبنان ، سنة ١٧٨٠ لسبك جرس لكنيسة مار عبدا في بكفيا ، ثم أخذ أولاده وحفدته من بعدهم ، يزاولون هذه الصناعة في لبنان ، ويدخلون عليها التحسينات بمرور الأيام ، وبقي أمرها سرّاً بينهم لا ييوحون به لأحد ، فلا عجب إذا كانت جميع أجراس لبنان ، بل جميع أجراس الشرق العربي ، هي من صنع بيت شباب .

ويكيف آل نفاع صناعة صب الأجراس ، كما يشاء لهم ففهم ، فيجعلون الجرس الواحد ، يختلف عن الآخر في رنينه ، وتباين مدى صوته وقوته .

أسواق بيت شباب

تجولنا في أسواق هذه الضيعة المقامة في ساحاتها الثلاث : السفلى

حيث توجد معامل صنع الفخار التي أبقت عليها المهاجرة ، والوسطى (محلة البلاطة) والعليا (النبع) يصلها بعضها ببعض طريق هو أردأ ما وقعت عليه عيوننا ، فلم نر في تلك الأسواق ، سوى بضعة حوانيت ، هي أفرغ من جراب أم موسى ، يتردد عليها نفر من الشيوخ والأطفال والنساء ، أما الشبان فحسبك أن تبحث عنهم بمصباح ديوجينوس ، فقد استهوتهم الغربية ، وسلبت لهم أفريقيا تلك الزنجية الساحرة فأوقعتهم في شرك هواها ، فتركوا من أجلها أهلهم ، وهجروا ضيعتهم المحبوبة ، فارتموا بين أحضانها ، فتلقفتهم بشوق ، ثم ما لبثت أن كفرت بهم ، وتنكرت لهم ، فذهب الكثير منهم ضحية تلك الزنجية الماكرة ، فلقت أفريقيا بحق « مقبرة بيت شباب »

مسكينة أنت يا بيت شباب ! ! فقد أقفرت اليوم من شبابك ، وكانوا بالأمس القريب ، زينتك وبهجتك وتاج على مفرق جبينك تباهى به سائر الضيعات ، فما أحراهم اليوم أن يخلعوا عليك لقب « بيت الشيوخ »

وفي أسفل هذه الضيعة المنكودة الحظ فندق هو الوحيد فيها يطل على مصايف كسروان وعلى الوادى المملوء بالمناظر الطبيعية الفاتنة ، ويقع فيه صاحبه من حين إلى حين حفلات لرواده القليل العدد ، وقد أنسنا في أثناء وجودنا في حفلة من تلك الحفلات بلقاء أسرتين مصريتين كانتا تصطافان في بيت شباب ، لهدوئها ولروعة المناظر التي تحف بها ، وغابات الصنوبر التي تحيط بها فتعطر بأريجها الذكى جوها . .

وقد أقيمت في الساحة العليا منها بجوار النبع بعض مقاه وسط الأشجار الباسقة وأمام المناظر الطبيعية الباسمة .

صناعة الديما

كان في قرية بيت شباب ومزارعها قبل الحرب الكبرى الأولى أكثر من ألفي نول لحياكة الديما ، النسيج الوطني اللبناني ، وكانت هذه الأنوال مصدر رزق لكثير من العائلات ، ورمزاً للتحرر من نير الفاقة والعوز ، ودرعاً واقياً ضد الاغتراب ، وكان لا يخلو بيت في بيت شباب وفي مزارعها من نول ، يتعاون على العمل فيه جميع أفراد الأسرة ، كل في حدود طاقته ، أما اليوم ، فقد أمست صناعة حياكة الديما في حكم العدم ، لأن الجيل الجديد يترفع عن العمل فيها ، كما يترفع عن لبس منسوجاتها بعد أن غزت الأقمشة الأوربية جميع أسواق لبنان ، وبينما نحن نجتاز الساحة السفلى مشياً على الأقدام ، سرى إلى آذاننا صوت نول منبعث من منزل متواضع صغير ، فوق كنيسة سيدة الجوزة ، وقد سميت بهذا الاسم ، نسبة إلى شجرة جوز كبيرة ، كانت مغروسة في ساحتها أمامها ، حيث كان الشدياق متى الشهير في الزمن القديم ، أستاذ صاحب مجمع البحرين الشيخ ناصيف اليازجي والكاتب الكبير المرحوم أمين الريحاني ، ونعوم مكرزل مؤسس جريدة الهدى في نيويورك وغيرهم ، يعلم أطفال قرية بيت شباب وما جاورها مبادئ القراءة والكتابة .

وقفنا أمام هذا البيت نجيل الطرف فيه ، فإذا بصبية بقامتها المشوقة ،
وقدها المياس ، تعلى خشبة نول ، كما يعتلى الفارس صهوة جواده ، فكانت
تدفع دفته بيسارها وتقبض على عنان المكوك بيمينها ، وتوجهه إلى غايته
برشاقة وبراعة ، وهى تنشد أغاني العتابا وغيرها بصوتها الرخيم ، وكانت
قدما تلك الحسنة فى الوقت ذاته ، ترتكز على دواستين ، كانتا بين
هبوط وصعود يسمع لها أزيز ، فيه انسجام مع صوت المكوك ، وهو يروح
ويجىء فى مجراه ولا يتعداه .

وكانت هناك عجوز شمطاء ، محدودة الظهر ، جالسة على كرسى
صغير ، أمام دولاب تدير عجلته بيمينها ، وتعالج خيطاً آتياً من شلة
غزل موضوعة حول إطار من القصب ، بيسراها فتلفه على بكرة مستطيلة
الشكل ، كانت الفتاة تضعها فى المكوك .

ذكرتنا رؤية هذا الدولاب ، والنول ، بمغزل غاندى الزعيم الهندى
الشهير ، الذى كان مغزله أول لبنة وضعها فى بناء صرح بلاده الاقتصادى ،
حتى باتت الهند اليوم ، من أكبر الأمم الصناعية ، ومن أعظمها شأنًا ،
هذا فى الهند ، أما فى لبنان فجميع الصناعات التى كان يزاوها الأجداد
أصبحت اليوم فى كف القدر ، تلك هى سيئة أخرى من مساوئ
الاغتراب .

لاحظ علينا العم أبو طنوس دهشنا ونحن جلوس تحت شجرة التوت
الوارفة الظل ، أمام المنزل ، ننصت إلى نقر دقة النول ، وعيوننا ترمق
الشبابية الحسنة ، وكانت لاهية عنا ، منصرفة بكل قواها إلى مراقبة

نولها ، وهى تشنف آذاننا بصوتها العذب ، وتتحكم فى عنان نولها الذى هو سياج عزتها وكرامتها ، كما يتحكم الطفل فى لعبته فقال :
 - إن لسماع صوت الأنوال وهى تعمل عند الفجر وقعاً فى النفس أروع فى فصل الشتاء منه فى الصيف ، حين يتجاوب صدى نقر المكوك ، وصوت دفقة النول ، وأزيز الدواسات مع هطول الأمطار فى الخارج ، ووقعها على سطوح المنازل ، ودقها على الأبواب والنوافذ ، فكأن كل هذا جوقة موسيقية ، قد اشتركت فى عزف سيمفونية ، هى من وحي الطبيعة . سيمفونية ما أجملها ، وما أعظم وقعها فى النفس ! ! كم وكم من المغترين اللبنانيين الذين تبتلعهم المدنية الصاخبة ، ويستهوهم زخرف الحياة ، قد نسوا تلك الأصوات ، أو تناسوها ، وحرموا من لذة سماعها ! ! كم وكم من أولادهم لا يعرفونها ، بل ربما لم يسمعوا عنها ، أجل تلك هى صورة أخرى من صور الجمال فى لبنان .

الفاخورى

تركنا تلك الشبابية الفاتنة اللطيفة الظريفة ، تواصل عملها الذى هو عنوان كرامة ضيعتها وتاج فخر على مفرق جبينها ، وهبطنا فى طريق ، نريد الحى الذى فيه معامل الفخار ، فلما بلغناه ، راعنا أن نراه مقفراً ، وكان فى الماضى يعج بصناعه الماهرين ، وكانت آنية الفخار تملأ ساحاته الرحبة ، وقوافل الدواب يجلاجلها وزينتها فى انتظار حملتها .

هناك نفر قليل لا يتجاوز عددهم أصابع اليد ، لم تستهوهم الغربة ،
مكثوا مخلصين لضيعتهم ، محبين لفنهم ، رأينا منهم رجلاً مسنّاً ، يعمل
في معمله المتواضع بصبر وجلد نادرين ، فكان يتناول الطين بيديه ،
ويكفيه كما يريد له فنه ، ويدير بقدمه الحافية في الوقت ذاته دولاباً
من خشب ، وقفنا نراقبه في عمله ، بعد أن حييناه ، ورد لنا تحيتنا
بأحسن منها ، فكان منظر الطين وهو يتحول بين يديه من شكل إلى
شكل من أمتع المناظر ، وأعظمها وقعاً في النفس ، وبعد مدة ، رأينا
قطعة الطين ، تخرج من بين يدي الفاخوري الماهر البارِع إناء جميلاً
لطيفاً التفت إلينا العم أبو طنوس وقال :

— هذا هو الفاخوري المسلط على طينه يسحره بفنه الرفيع فيخرج
منه إناء للكرامة ، وآخر للهوان .

هنيئاً لك بيت شباب بصناعك الذين حفظوا جميلك وآثروا الإقامة
في ربوعك ولم يتركوك .

وأخيراً هل تولى الحكومة مثل هذه الصناعات الوطنية عنايتها ، وهى
اليوم في طريق الزوال ، لقلة الإقبال عليها والأيدى العاملة التى تعمل فيها؟

المعهد اللبناني

تكرم أحد الآباء الأفاضل ودعانا لزيارة المعهد الوطنى للذكور ،
المشيد في محلة « المرجه » على رابية تواجه مصايف كسروان ، وتنسبط

تحتها تدريجاً القرى الصغيرة بيوتها المتوجة بالقرميد الأحمر ، وأمامها الحدائق الياض ، إلى أن تتصل بالشاطئ الرائع الذى تبلغ مياه البحر الزرقاء رماله الناعمة البيضاء ، كما تشرف فى الوقت ذاته على الوادى السحيق ، الذى تنتصب فوق رباه أشجار الصنوبر والسنديان ، فتملاً الجو عبيراً ، فيه قوة وفيه نشاط ، فلما وصلنا إليه ، أخذ يشرح لنا كل كبيرة وصغيرة عنه . ونحن نطوف بردهاته الواسعة النظيفة الفاخرة الأثاث المستوفاة لجميع الشروط الصحية .

وقد أعجبنا بالقائمين بأمر هذا المعهد الناشئ ، الذين يبذلون كل ما وسعهم الجهد فى ترقيته ، ليكون فى مصاف أكبر المعاهد العلمية ، لا فى لبنان فحسب ، بل فى الشرق العربى بأكمله ببرامجه الشائقة ، وأساليب التعليم الحديثة المتبعة فيه .

وقد أخبرنا الأب المرافق لنا ، بأن كثيراً من اللبنانيين المغتربين يرسلون أولادهم إليه ، حيث يتلقون العلم مع الفضيلة . ويستقبل المعهد اللبناني فى فصل الصيف ، الناشئة الصغار من الأقطار الشرقية والعربية ، حيث يقضون فصل الصيف ، لقاء أجر ضئيل جداً ، ولا شك فى أن هذه فكرة حسنة ، ودعاية طيبة للمعهد ولقرية بيت شباب وللبنان .

منتزه عين الحشيمة

وبعد أن أكملنا جولتنا فى هذا المعهد ، شكرنا للأب حسن رعايته

لنا ، وجميل احتفائه بنا ، ثم ودعناه وركبنا سيارتنا ، فانطلقت بنا في طريق يتفرع منه طريق آخر يوصل إلى منتزه عين الحشيمة الفاتن ، تحف به حدائق الفاكهة ، وكروم العنب ، وجلول التين ، على الجانبين ، ويمتد هذا الطريق إلى دير القديس بطرس الذي تقوم على مقربة منه صومعة صغيرة انتصبت أمام مدخلها أشجار السرو والصنوبر الجميل المنظر ، ويتمتع تحتها على مدى البصر كرم واسع الأرجاء ، كما يوصل هذا الطريق إلى قرى عين الخروبة ووادي شاهين وحملايا وسواها من القرى الأخرى التي لا تقل في روعة مناظرها وجمالها عن بقية قرى لبنان .

وكان يقيم في هذه الصومعة إلى عهد قريب ، ناسك عاف العالم وما فيه من متعة ولذة ، فقضى حياته كلها منظوياً على نفسه ، لا يقابل أنثى حتى ولو كانت ملاكاً هابطاً من السماء ، ولا يختلط بالناس إلى أن مات شهيد المحبة للرب ولأوليائه الصالحين لا للعبد .

تلك هي قصة هذا الناسك ، متضربة قد قصها علينا العم أبوطنوس ، ونحن جلوس في المقهى بالقرب من عين الحشيمة ، نستمتع إلى تغريد الطيور فوق الأفنان ، وننصت إلى حفيف الأشجار ، وإلى أصوات صبية كانوا ينشدون الأغاني اللبنانية وهم يتجولون طليقين فرحين في الحقل ، والحدائق والكروم القريبة بدون رقيب ولا حسيب ، حتى إذا انتهوا من النشيد الوطني اللبناني الذي مطلعته « كلنا للوطن . . » أخذوا ينشدون نشيد « على الإله القوى الاعتماد . . » وكانت الوديان تردد صدى أصواتهم

العذبة ، وقد هزنا الطرب لدى سماعنا متطوعة « فانهضى يا مصر . . . » ،
هزنا الطرب ودب الحنين إلى مصر في قلوبنا ، واغرو رقت من شدة الفرح
بالدموع عيوننا ، فأخذ العم أبو طنوس علينا ذلك من تغير ملامح
وجوهنا فقال :

— إلى هذا الحد بلغ بكم التأثير لدى سماعكم كلمة مصر في النشيد؟

— قلنا وأكثر يا عم أبو طنوس .

قالت سلوى : إن للقطعة مصر وقعاً على الآذان خفيفاً يفيض بالركة
والحنان .

— أجاب السائق حسن وهو من الشباب المثقف : أجل لا يضارعهما

فيها سوى لبنان .

— قال العم أبو طنوس : أى والله يا إبنى لقد صدقت .

وكان إذ ذاك قد هبط علينا أرنك الصبية ، فأنسنا بمرآهم وفرحنا
بوجودهم بيننا ، ولا سيما عندما عرفنا أنهم من مصر ويصطفون في بيت
شباب ويتمون في المعهد اللبناني ، فدعوناهم والآنستين المرافقتين لهم إلى
الجلوس معنا فلبوا الدعوة شاكرين ، وجلسوا الترفضاء على الأرض الرملية
فقدمنا لهم تفاحاً شهياً وتيناً أبيض اللون لذيذ الطعم من منتجات بيت
شباب ، فأكلوا وشربوا من العين ثم دار الحديث بيننا عن لبنان فراح
كل طفل من هؤلاء الأطفال الأبرياء يعبر عن محاسن الطبيعة في لبنان ،
وفاكهته اللذيذة ، ومياهه العذبة المثلجة ، بما يوحيه إليه أفق خياله الضيق .
وقالت لنا إحدى الآنستين في النهاية : إن لبنان جنة الله في أرضه ،

بل هو سجل خالد كتبت يد الطبيعة كل سطر من سطره بمداد الجمال .
 — فأجاب السائق حسن : شكراً يا آنسة هذا شعور نبيل ، لا يوجد
 مثله ، إلا بين أبناء العروبة .

قالت سلوى : لا عجب إذا كان النبل من شيم العرب .
 كنا نود أن نطيل جلستنا مع أولئك الصبية لولا ارتباطنا بموعد في
 بكفيا ، فودعناهم وغادرنا تلك البقعة الفاتنة ونحن نلوح لهم من نوافذ
 سيارتنا بأيدينا ونقول لهم إلى اللقاء .
 — فأجاب الصبية في مصر إن شاء الله قريباً .
 — قال حسن :

— وفي لبنان السنة القادمة إن شاء الله .

منتزه السناد

كان الوقت ظهراً عندما غادرنا منتزه عين الحشيمة ، فاجتازت
 سيارتنا بمنتزه السناد وقد أقيمت فيه اليوم بعض مبان حديثة ، أحاطها
 أصحابها بالحدائق وكروم العنب ، وكم تمنينا لو أن في هذه البقعة الهادئة
 ذات الموقع الجميل ، والمناخ الصحي ، والهواء العليل ، فندقاً نقيم فيه
 بضعة أيام ، أو مقهى نستريح فيه بعض الوقت ، نستمتع بجمال المناظر
 التي تحف بنا ، ورؤية القرى والديساكر التي تنبسط تحت نظرنا ، ولكن
 مع الأسف الشديد فإن أهالي بيت شباب قد أهملوا هذا المنتزه ، كما

أهملوا غيره من المتنزهات الرائعة ، التي تكتنف قريتهم الهادئة الوادعة .
 متى يا ترى نرى فندقاً في بقعة السناد ! ! فهي تاج على مفروق قرية
 بيت شباب . يا لها من بقعة فاتنة يهز جمال المناظر فيها القلوب ! !

الحاووز

وبينما سيارتنا تتابع سيرها في طريق السناد ، شاهدنا فوق رابية على
 منبسط من الأرض ، أحواضاً واسعة ، بنيت بالحجر والجير كانت قد
 أعدت لاستقبال ماء نبع الجماجم الواقع في جبال صنين تحت بسكنتنا ،
 وتوزيع مياهه على القرى القاطع ، لاستعماله في الشرب والرى بواسطة
 مواسير ضخمة كانت قد أحضرتها الشركة التي أنيط بها إنجاز هذا
 المشروع الحيوى الهام ، ولكن نشوب الحرب الكبرى الأولى ، حال دون
 إتمامه ، فاستولى الأتراك على المواسير ، ولم يبق اليوم سوى الأحواض وقد
 تهدمت أجزاء كثيرة منها ، تلك هى المباني التي يطلقون عليها « الحاووز » .
 وقد أخبرنا أحدهم ، أن النية متجهة إلى بعث هذا المشروع الحيوى من رسمه
 تمشياً مع سياسة التعمير التي تتبعها الحكومة اللبنانية في الوقت الحاضر .

بكفيا

أشرفنا على بكفيا الفاتنة التي ترقد مع ضواحيها الأربع المتجاورة

وهي : بحرصاف ، وساقية المسك ، وبكفيا ، والمحيدثة ، تحت ظلال الأشجار الباسقة تطوقها كروم العنب والمروج الخضراء ذات المناظر التي تأخذ بمجامع القلوب .

وتعتبر بكفيا وقد حرف اسمها من بيت كيفا الآرامية التي معناها بيت الصخرة ، من أجمل قرى المتن ، وأحسنها موقعاً ، وألطفها مناخاً ، وأرقها نسima ، وأعذبها ماء . شوارعها واسعة نظيفة معبدة بالأسفلت ومضاءة بالكهرباء ، ودورها رحبة واسعة ، قد تأنق أصحابها في جعلها جميلة الهندسة ، متناسقة البنيان ، حسنة المظهر ، أنشأوا حولها حدائق نسقت فيها أشجار الفاكهة والزهور المتنوعة الألوان .

وتعلو بكفيا عن سطح البحر بمقدار ٩٠٠ متر وتبعد عن بيروت بمقدار ٢١ كيلو مترا ، تقطعها السيارة في نصف ساعة تقريباً ، في طريق مفروشة بالأسفلت واسعة قد انتصبت الأشجار على جانبيها ، تتدرج في الارتفاع إلى أن تصل إليها فتقطعها في وسطها ، مارة بين البيوت الجميلة والحدائق الياضنة .

دير سيدة النجاة

زرنا في الجهة الشرقية منها دير سيدة النجاة للأباء اليسوعيين الأفاضل ، الذين لهم فضل لا ينكر على تربية الناشئة في قرى لبنان الكثيرة ، وهو دير جميل البنيان ، حسن الموقع ، تحيط به كروم العنب وأشجار الفاكهة

وقد شيد على رابية تمتد تحتها غابات واسعة يتوسطها دير القديس نوهرا لرهبان
الموارنة يذهب إليه مرضى العيون يلتمسون الشفاء من صاحب هذا المقام .

دير القديس نوهرا

هبطنا إلى هذا الدير مشياً على الأقدام في طريق منحدر ضيقة قد
عبدتها الأقدام وسط غابة ملأى بأشجار السنديان والبلوط الكثيفة .
ولما بلغناه وطفنا في أرجائه ، لم نر أحداً فيه ، فقد أقفر من رهبانه وخدمه
كما أقفرت سواه من أديرة لبنان الجميلة وكانت في الماضي عامرة بأفاضل
الرهبان .

دخلنا الكنيسة فإذا هي خالية خاوية من كل شيء إلا من مقعدين
اثنين ، قد نخرهما السوس وعلاهما التراب ، أمامهما صندوق حديدي
محكم القفل يقذف الزائرون فيه ما تجود به نفوسهم من النذور .
وشهدنا ونحن نطوف في أرجاء هذا المعبد الجميل ، تصدعاً في سقفه ،
وشقوقاً في جدرانها ، فشرعنا في قرارة نفوسنا بحسرة وأسى للحالة التي وصل
إليها هذا الدير ذي الموقع الجميل . ولم نسمع أثناء تجولنا في أرجائه وفي
أروقته الخارجية التي تستقبل الشمس كل صباح فتلقى عليها وشاحاً
ذهيباً ، سوى صوت نواح الطير فوق الأفنان ، وكان النسيم العليل يهب
عليها ، فيسمع لحفيفها ألحان هي أشبه شيء بالأنات الخزينة منها
بالنغمات الشجية المطربة ، ومن تحتها نبع قد نبت الأعشاب على

جانيه كان يسجل خريير مائه نغمًا يقبض القلب ، فكأن كل شيء
في ذلك المكان كان يشارك الدير في حزنه لخلوه من ساكنيه ، الذين
كانوا يعمرونه في الماضي ، ويخلعون عليه الحياة .

وبينما نحن نهم في مغادرته ، إذ بنا نرى راهباً مقبلاً نحونا ، قد ألقى
عباءته على كتفه ، ونشر مظلمته البيضاء فوق رأسه ، وما كادت عيناه تقع
علينا حتى رحب بنا ، بدون سابق معرفة وبالغ في إكرامنا ، ودعانا
للاستراحة في ردهة رحبة في الدير فتح لنا بابها ، فليينا الدعوة
شاكرين .

ولما استقر بنا المقام ، وتم التعارف بيننا أصبنا فيه راهباً حلو الحديث
لطيف المعشر ، واسع أفق النظر ، فرحنا نتبسط معه في الكلام بدون
تكليف ، كأننا نعرفه من قبل ، إلى أن أبدت الأنسة سلوى دهشها من
خلو الدير من الرهبان برغم حسن موقعه ، وطيب مناخه ، وسط المناظر
الطبيعية الفاتنة الساحرة ، والهدوء الشامل ، حيث يحلو للمرء أن يقيم على
الدوام ، يملأ رثتيه من نسيمات الصباح التي تمتزج برائحة الصنوبر
والأعشاب البرية التي تنبت من بين الصخور .

اغرورقت عينا هذا الراهب الفاضل بالدموع وبدا عليه التأثر ،
وكأن قلبه قد خفق بالذكريات القديمة واهترت نفسه لسحر المكان فقال :
— صدقت يا ابنتي ، إن كل ما في لبنان جميل ، فلبنان والجمال
لفظتان مترادفتان ، ولكن قاتل الله الأيام ، وحب المال الذي أعمى
الإنسان ، فهافت عليه تهافت الفراش على النار ، وركب في سبيل

الحصول عليه متن البحار ، وتجشم من أجله كثيراً من الأخطار ، فنحن قد بعنا كثيراً من ممتلكات أديرتنا بل وأديرتنا ذاتها ، لحاجة أمنا الرهبنة إلى المال ، وإننا على وشك أن نبيع هذا الدير أيضاً الذي أثر ضعف الرهبنة فيه وفي غيره من ديورة لبنان .

سكت الراهب برهة وأردف ما تقدم بلغة عربية فصحي قائلاً :
 — لا يطيب للشباب اليوم إلا العيش الهنيء ، أما معيشة الرهبنة ، فهي عيشة تقشف وحرمان ، لا يستطيع أن يتحملها كل إنسان . إني اليوم في العقد الثامن من عمري ، وقد مضى علىّ في الرهبنة ستون عاماً كان الدخول فيها في ذلك الوقت ، يقترن بكثير من العقبات التي تتلوها الاختبارات القاسية .

كان العمل المشترك بين الرهبان في الماضي ، الصلاة في الصباح الباكر ، فيها كنا نبدأ نهارنا ونختتمه ، وبعدئذ كان ينصرف كل راهب منا إلى عمله يؤديه . فكان بعضنا يرعى بهائم الدير ، والبعض الآخر يتعهد زراعته ، وبعضهم كان يعنى بشؤون الرهبان المادية ، فيقضى لهم حاجتهم ، كما أن الفريق الرابع كان يعنى بالكتابة والتأليف والطباعة والتعليم . أولئك الرهبان الذين عافوا العالم وملذاته ، وكفروا بالمال وجمعه ، وتحرروا من أنقال هذه الحياة وحطموا أغلالها الاجتماعية فنبذوا أهواءها الذميمة وتغلبوا على شهواتها الدنيئة ، قد اتخذوا لهم العمل بعد الصلاة شعاراً ، فكان خير مسكن لآلامهم ، وأنجع دواء لتضميد جراحات صبرهم ، يعقدون عليه رجاءهم ، ويعلقون عليه آمالهم في الحياة الآتية . تلك كانت الفلسفة التي

درج عليها الرهبان في الماضي . الفلسفة التي تقوم على العمل والعزلة والانطواء على النفس وخدمة القريب .

أجابت سلوى ، أرجو المَعذرة يا أبت ، يفهم من منطوق كلامك ، أن الراهب لا قبل له بمواجهة الالتزامات التي تتطلبها الحياة ، فيعتزل العالم وينطوي على نفسه . إن فلسفتكم هذه حسب ما أعتقد ، هي فلسفة لا تستقيم مع المنطق السليم ، بل كان الواجب يحتم على الراهب أن يخرج إلى العالم ، ويكون كالشمعة المضيئة فوق المنابر ، ليرى الناس نوره ، فيستضيئوا بمثله الصالح ، وتعاليمه القويمة .

— اعلمي يا ابنتي أنك فهمت كلامي على غير حقيقته ، وحملت حديثي على غير محمله فإن مهمة الراهب شاقة جداً ، ورسالته التي يؤديها في الحياة بالغة في الصعوبة إذ الواحد منا كالشمعة يحرق نفسه ليضيء لغيره . إن لنا معاشر الرهبان رسالة إنسانية لا تقتصر على الصلاة فحسب ، كما تتوهمين ، وإنما تقوم على الخدمات الاجتماعية التي تؤديها للبشرية . فالراهب منا يكفر بنفسه ويحمل صليبه الثقيل بصبر وتسليم لإرادة الله ، وذلك كي يحقق قول السيد المسيح « من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني . . . » رسالة الراهب الإنسانية بقدر ما هي جسيمة ، بقدر ذلك هي صعبة ومحفوفة بالأخطار .

لاحظنا أن الراهب قد تأثر من كلام الآنسة سلوى وآلمه حديثها ، فراح الدكتور خليل يطيب خاطره ، والعم أبو طنوس يعتذر له بعد ما سلمنا بالمهمة الشاقة التي تناط بهؤلاء الرهبان الأفاضل .

براد بكفيا

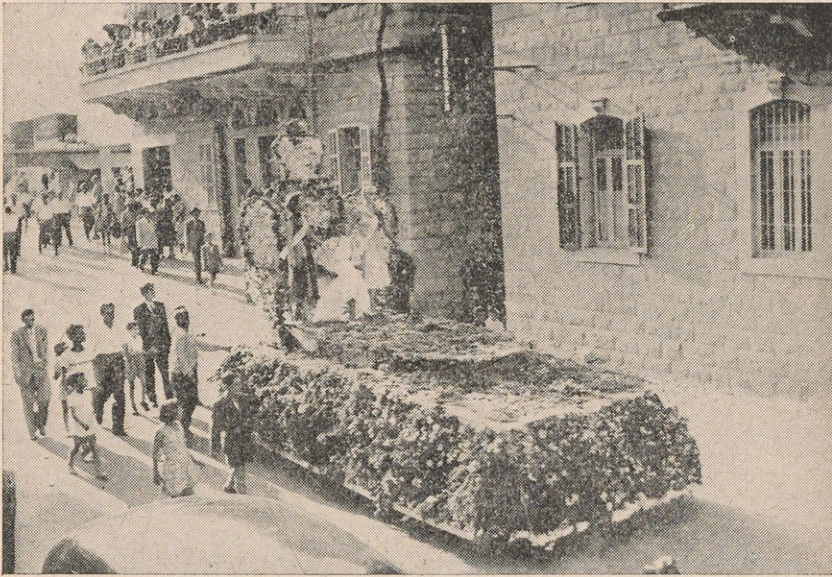
ودعنا هذا الراهب الذى يحمل على منكبيه عدا ثقل السنين التى قد جاوزت الثمانين ثقل الحياة ومتاعبها ، وعدنا أدراجنا فى الطريق المتصاعدة إلى بكفيا ، فرزنا برادها ، الذى يقع فى وسطها بناء على إشارة العم أبى طنوس ، وهو عبارة عن مبنى ضخم واسع قد جهز بالآلات الكهربائية الحديثة ، وتتسع أدراجه لحفظ آلاف الأطنان من مختلف أنواع الفاكهة كالتفاح والكمثرى والبرقوق والخوخ والبطيخ والشمام وسواها من أنواع الخضروات . وقد شرح لنا المهندس المشرف عليه عملية حفظ الفاكهة فى الخزائن والحصول على أية فاكهة فى غير أوانها فى أى وقت .

عيد الزهور

ويقام فى بكفيا فى شهر أيلول (سبتمبر) من كل سنة عيد الزهور يشرفه رئيس الجمهورية بحضوره ومعه كبار الشخصيات ، فحالفنا الحظ وشهدنا العيد ، فراعنا منظر الفواكه والخضروات المعروضة فى ساحة واسعة أقيمت خصيصاً لهذا الغرض ، كما حضرنا بعد ظهر ذلك اليوم المهرجان العظيم الذى أقيم فيها ، فاخترقت المركبات المزينة بالأزهار الشوارع وعاليها لافتات تحمل عبارات مختلفة ، كلها إعلان عن هذه البلدة ، الفاتنة التى

ظل أثر جمالها عالقاً في قلوبنا .

ويتولى تنظيم هذه المهرجانات أبناء بكفيا أنفسهم ، فهم يؤمنون إيماناً صادقاً بفائدتها ، لأنها دعاية طيبة لبلدتهم ، وإعلان حسن عنها ، وهكذا قضينا ذلك اليوم وقد كان في الحقيقة من أجمل وأمتع الأيام التي قضيناها في ربوع لبنان .



عيد الزهور في بكفيا

قرية بحر صاف

دعانا أحد الأصدقاء لزيارة قرية بحر صاف ، وهي منتزه جميل

متربع على أكمة مرتفعة تمتد حتى جهة العالى فى الطرف الغربى من بكفيا ، وتشرف على غابات وكروم وجلول ملأى بأشجار التين ، وقد كانت بحرصاف فى الماضى مركزاً حصيناً فيها كثير من القلاع التى أقيم على أنقاضها اليوم دير كبير ، يعرف باسم دير مار يوسف ، يزدھر برهبانه الأفاضل .

نبع النعص

عدنا إلى بكفيا قبيل الظهر ، فآثرنا أن نتناول طعام الغداء على نبع النعص ، ويقع فى وسط غابة ملأى بأشجار الصنوبر الكثيف الأغصان ، وكان النسيم العليل يداعب أوراقها الأبرية فتحدث حفيفاً لطيفاً خفيفاً يطيب سماعه ، وكان صوت خرير الماء وهو ينساب من النبع الذى فى مائه شفاء للناس وقع على السمع خفيف ، ورأينا الناس قد تفرقوا حوله واحتلوا الأماكن المحيطة به تحت ظل الأشجار . إن جلسة إلى جانب نبع النعص الجميل ، فوق الهضبة المرتفعة التى تكسوها الأعشاب السندسية فى أحضان الطبيعة المشرقة الضاحكة ، التى تمتزج بأغاني الطيور ، توحى بأسمى معانى الجمال التى تسحر القلوب .

وبكفيا الساحرة الغارقة فى الحداثق والرياض الخضراء ، حافلة بالمقاهى والفنادق الفخمة ، والأندية والملاهى التى ينشدها المصطفون ، هذا إلى جانب محلاتها التجارية الكبرى ، التى يجد المرء فيها من أنواع البضائع ما يضارع فى جودتها وتعدد أصنافها أحسن المحلات التجارية

وأرقاها . أما في الليل ، فيرى المرء أفواجا من الناس قد بهرتهم أنوار هذا المصيف الجميل ، فخرجوا يلتمسون في الشوارع والطرق أسباب التسلية ، ويمتعون أبصارهم بجمال ما يحيط بهم من مناظر ، هي مصدر وحي وإلهام لعشاق الطبيعة وطلاب المسرات . تلك هي بكفيا البلدة التي يغار أهلها على صالحها ، فأرادوا لها هذا الرقي ، فكان لهم ما أرادوا .

المحيثة

كان الهواء العليل يرقع في آذاننا ألحان الجمال ، فيتجاوب صداها بين الأشجار المغروسة على جانبي الطريق فتبته إلى عشاق الطبيعة الذين تحتضنهم في ظل أفنانها الفيحاء ، في مثل هذا الوقت من النهار الذي كادت تنحدر فيه الشمس مسرعة إلى مغربها ، سارت سيارتنا الهوينا بين هؤلاء القوم حتى لا تعكر عليهم صفو راحتهم ، إلى أن بلغنا المحيثة ، وهي قرية حديثة العهد كما يستدل عليها من اسمها ، وتقع على هضبة متدرجة في الارتفاع تطوقها غابات الصنوبر والسنديان ، فتبعث من عيبرها الذكي الرائحة نسيما عليلا منعشاً .

والمحيثة مكلمة لبكفيا من الجهة الشرقية ، كما أن ضاحية بحر صاف مكلمة لها من الجهة الغربية ، وهي لا تقل عن بكفيا روعة في هندسة مبانيها ، واتساع شوارعها ونظافتها ، وتنسيق الحدائق فيها . ويأتي إليها المغرمون بجمال الطبيعة في فصل الصيف فيلتمسون الهدوء في ظل روابيها .

ضهور الشوير

وبعد أن اجتازت سيارتنا في وسط قرية المحيدثة ، أخذت ترقى بنا الطرق الجبلية ، بين الربي والآكام ، فمررنا بمتنزه عين الحاج إلياس المشهور بفكاكته الشهية ، ومياهه العذبة ، فجلسنا فيه بعض الوقت ، ولما وصلنا إلى ضهور الشوير ، وهى تصغير كلمة شير ، معناها الصخرة ، كان بياض النهار أخذ يذوب بسواد الليل ، فقصدنا فندقاً وضعنا فيه أمتعتنا الخفيفة وخرجنا في جولة ليلية في الشوارع والطرقات . وكانت تعج بعشاق الملاحى ، وقد أتوا إليها من بيروت وسواها من القرى القريبة لقضاء سهرة ممتعة ، لانفراد هذا المصيف بطابع خاص ، يشيعه في جوه أمل الحياة الباسم ، الذى تخلعه عليه أضواؤه البهيجة ، وجمال المناظر التى يتصف بها ، وهو طلق الهواء ، طيب المناخ ، مياهه عذبة باردة ، تهب عليه رياح صنين فتعبر في طريقها إليه غابات ملأى بشجر الصنوبر الذى يكثُر وجوده في قرى المتن ، فيعطر أريجها الذكى جميع أرجائها .

وتقوم ضهور الشوير على منحدر يشرف على وادى نهر الكلب ، كما تطل في الوقت ذاته على مصايف كسروان وجبال صنين المشححة قممها بثوب قشيب من الثلج ، ويبلغ ارتفاع هذا المصيف عن سطح البحر بمقدار ١٢٥٠ متراً ، ويبعد عن بيروت بمقدار ٢٦ كيلو متراً ،

وهى مسافة قصيرة جداً إذا قيست بطرق المواصلات الحديثة التى شملت اليوم جميع أرجاء لبنان ، وتغلغل فيه تغلغل الشرايين فى جسم الإنسان .

غابة بولونيا

غدونا مع الطير فى الصباح إلى غابة الصنوبر الشهيرة ، ويطلق عليها القوم هناك « غابة بولونيا » ، تشبهاً بغابة بولونيا بباريس ، فلما بلغناها ، طفنا فى أرجائها الفسيحة ، فإذا هى من أروع الغابات منظرًا ، وأجملها مظهرًا ، وكانت الطبيعة إذ ذاك ، قد فكت الشمس من عقلاها ، فبرزت من وراء الجبال تختال تيهًا فى الأفق اللانهائى ، إلى أن ألقى خيوطها الذهبية فوق الربى والهضاب ، فاستقبلتها الطبيعة بابتسامة ، شاركتها فيها الطيور بتغريدها فوق الأفنان ، ما أبدع الطبيعة فى ذرى لبنان ! ! وما أروعها فى الصباح الباكر ، وهى تستقبل الشمس فى هيكل الخالق ، بتغر باسم ضاحك ، حقًا إن لى ذلك السحر والجمال .

قرية شويا

قصدنا مطعمًا أنيقًا قائمًا على مرتفع فى تلك الجهات ، تناولنا فيه طعام الإفطار ، ثم قمنا بنزهة إلى شويا التى تقع غربى ضهور الشوير ، حيث يوجد ديران متلاصقان باسم النبى إلیاس عليه السلام ، أحدهما

للموارنة ، والآخرون للروم الأرثوذكس ، وقد شيد الاثنان على أكمة مرتفعة تحيط بها أشجار الصنوبر والسنديان ، وتشرف على قرى القاطع والبحر الأبيض المتوسط ، ويفصلها الوادي عن مصايف كسروان ، التي تقوم أمامها على منحدرات تتدرج في الارتفاع ، هي آية في الروعة والجمال ويقع في فناء مدخل دير الموارنة متنزه جميل ، طاب لنا الجلوس فيه تحت ظلال شجر السنديان القديم الأيام ، الكثيف الأغصان ، وبينما نحن نجعل الطرف بالمنظر الطبيعية الفاتنة التي تحف بنا ، وإذا براهب في مقتبل العمر وميعة الصبا يهبط علينا ، ويرحب بنا ، ثم ما لبث أن أخذ يتجاذب أطراف الحديث معنا ، فلمسنا فيه حلاوة المعشر ، وغزارة العلم ، وسعة أفق الاطلاع ، فكان يتحدث معنا بلباقة حديث الخير العارف بكل موضوع كنا نظرقه ، ويجول في كل بحث كنا نخوض غماره ، وكان ينم أسلوب هذا الراهب عن شيء قليل من اللهجة المصرية ، عرفنا منه أنه قضى في مصر زمناً في ديرهم الكائن بشبرا في القاهرة ، كما عرفنا أنه تلقى علومه العالية في مدرسة رهبنته الكائنة بروما في إيطاليا وتعرف بمدرسة « البروبوجانده » .

ألح علينا هذا الراهب الفاضل أن نتناول الطعام على مائدة الدير ، فاعتذرنا بضيق الوقت ، وودعناه وتابعنا سيرنا إلى الشوير ، فاجتزنا بعين ماء تنفرد في بقعة تظللها أشجار الصفصاف الباسقات ، وتحيط بها أشجار السنديان وكروم العنب وحدائق الفاكهة ، فاتخذنا لنا مجلساً تحت شجرة من تلك الشجرات الوارفات الظل نتناول ما معنا من طعام (١٢)

على خرير ماء العين ، وتغاريد الحساسين ، وحفيف الريح اللطيف الخفيف ، الذى كان يداعب الأفنان الفارعة الطول . تلك هى الحصائص التى يتميز بها لبنان ، وبعد الأكل استلقينا على الأرض الجرداء فأخذتنا شبه غفوة من سحر المكان .

الشوير

ولما استيقظنا انتقلنا إلى الشوير ، وهى قرية كبيرة آهلة بالسكان ، يرجع عمرها إلى خمسمائة سنة تقريباً ، وكانت قبل ذلك حافلة بغابات السنديان والبلوط التى لم يبق من آثارها اليوم ، سوى أشجار قلائل جداً ، منها سندية كبيرة باسقة الأغصان شاهدناها أمام مدرسة فيها . وبيوت الشوير من أجمل ما وقعت عليه عيوننا ، فهى على بساطتها ، جميلة الشكل ، حسنة الهندسة ذلك لا عجب لأن فن البناء هو صناعة أهلها . وقد أخبرنا أحدهم أنه يوجد فى الشوير بعض الآثار القديمة . واسم هذه القرية مأخوذ من اللفظ السريانية « شورو » ومعناها بالعربية السور نظراً لما كان يحيط بها من الآكام المملأى بالغابات .

الخنشارة

اجتازت سيارتنا الخنشارة الواقعة فى أعلى المتن ، وهى قرية تمتاز

بهذه وئها ، وطيب مناخها ، وجمال هندسة مبانيها ، تعلو سطح البحر بمقدار ١١٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بـ ٣٣ كيلو مترا ، تحيط بها غابات الصنوبر الشاسعة ، وتكثر فيها الحداثق ، وكروم العنب ، التي يعصر منها الخمر المشهورة بجودتها ، ولذة طعمها ، وقد شاهدنا فيها آثار مناجم ، قيل لنا إن القدماء كانوا يستخرجون منها الحديد .

وقبل أن نغادر الخنشارة ، زرنا فيها دير مار يوحنا الصابغ للروم الكاثوليك ، فشاهدنا مطبعته التي تعتبر من أقدم المطابع في الشرق العربي ، كما زرنا مكتبته الشهيرة الفريدة في بابها ، التي تحتوى على كتب خطية قديمة ، يحافظ عليها أولئك الرهبان الأفاضل ، محافظة البخيل على درهمه ، ولا يسمحون لكل طارق أن يطلع عليها ، خوفاً من العبث بها .

وادی الجماجم

تركنا الخنشارة ، فدلقت سيارتنا في طريق معبد بالأسفلت ، حافل بالمشاهد الطبيعية الفاتنة ، إلى أن أطل علينا واد عميق مهيب ، قد اجتمعت فيه مناظر رائعة ، تمثلت في صخوره عشرات النقوش الغريبة ، كأنها من صنع فنان حاذق ، ينطق الفن الذي يتجلى فيها ، بأسمى معاني الجمال ، فيجعل المرء يلمس بعض آيات المجد والروعة والجلال ، الذي خلدته العوامل الطبيعية فوق تلك الصخور النائية ، البعيدة عن العمران .

قال العم أبو طنوس :

— هذا وادى الجماجم المهيّب ، وقد سمي بهذا الاسم ، لأن معركة نشبت فيه في قديم الزمان ، فترأّمت في مجراه جثث القتلى ، حتى سدت مسالك الماء الجارى فيه .

قد أفزعنا ذكر هذا الاسم ، وراعنا ما سمعنا عن جثث القتلى والجماجم ، التي لم نر لها أثراً في بلد مثل لبنان ينتشر في ربوعه الأمن ، ويخيم عليه السلام .

قالت سلوى : يلوح أن وادى الجماجم اسم على غير مسمى ، فليس فيه أثر لأية جمجمة ، ولا محل لأية جثة ، بل نراه على النقيض من ذلك ، يتيه فخراً بمناظره الطبيعية الخلابة ، وينور بزهوره البرية الجميلة ، التي تبرز في كل مكان من ثنايا صخوره ، التي تزينها نقوش من أبدع ما وقعت عليه عيوننا .

أجاب العم أبو طنوس : صدقت يا ابنتي إن المناظر في وادى الجماجم فائنة ، وسيخرج منه مشروع حيوى يأتى في ركابه الخير العميم ، والرزق الوفير ، لكثير من القرى اللبنانية التي تنبسط تحته عند جر مائه الغزير إليها .

بسكنتا

بلغنا بسكنتا ، القرية المنعزلة ، الهادئة في سفح جبل صنين الذى يطل عليها عند الضحى ، وهى تشرف على وادى الجماجم العميق وتحيط بها الجبال الشاخنة من الشرق والشمال ، وتحف بها غابات الصنوبر

الرائعة وتعلو عن سطح البحر بمقدار ١٤٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٥٠ كيلو متراً ، وتكثر فيها حدائق الفاكهة والخضروات وكروم العنب ، مياهها عذبة ، ومناخها جبلي جاف .

وقد أخذت بسكنتا اسمها من سنكن يتن رأس المؤرخين الفينيقيين وأشهرهم وقد استقى منه كثير من المؤرخين القدامى منهم والمحدثين ، معلوماتهم التاريخية القديمة عن الفينيقيين الذين ضربوا بسهم وافر في العلوم ، وساهموا مساهمة فعالة بنقل الحضارة القديمة من موطنها من الشرق ، إلى جميع الأقطار التي كانوا يتعاملون معها .

جبل صنين

ويقوم على مقربة من بسكنتا ، جبل صنين بمهابته وجلاله وهو أحد الجبال القديمة في العالم التي قدسها الأقدمون وعبدوها ، وبنوا بالقرب منها هياكل لآلهتهم ، وكانوا يطلقون عليها اسم جبل الوحي والإلهام . سلكنا من بسكنتا طريقاً حافلاً بالمناظر الفاتنة إلى نبع صنين الشهير ، الذي يتفجر مائه من صخور صماء غاية ما يكون في البرودة والصفاء ، وقد نبتت الأعشاب من حوله وعلت الأشجار الكثيفة الأغصان رباه . تجولنا في هذه الربوع الجميلة وجسنا خلال تلك المرتفعات التي تملأ العين بهجة والنفس سروراً ، حيث تكثر بساتين الفاكهة ويتردد نسيم عليل فتحنا له صدورنا المتعطشة إلى استنشاق مثل هذا الهواء الذي فيه الصحة والعافية .

ناسك الشخروب

رغبت الأدبية سلوى أثناء وجودنا في بسكتنا في أن تزور أديب لبنان الكبير ميخائيل نعيمه ، صديق جبران الحميم ، فسألنا عنه ، فقيل لنا إنه يقيم في فصل الصيف في بقعة صغيرة من الأرض اسمها الشخروب ، في الجهة الشرقية من بسكتنا ، وتبعد عنها بمقدار ٧ كيلو مترات ، ففي هذه البقعة الهادئة من لبنان وكانت إلى ثلاثين سنة خلت نكرة لا يعرفها غير الرعاة ولا يحوس خلالها سوى الفلاحين . يعيش ميخائيل نعيمه الفيلسوف ، معيشة روحية عميقة بعد ما غادر نيويورك المدينة الصاخبة ، وعاد إلى مسقط رأسه في لبنان ، بعد غياب عنه دام قرابة عشرين سنة .

شددنا الرحال إلى ناسك الشخروب ، كما يسميه أدباء لبنان ، بصحبة شاب أديب يتلقى علومه في الجامعة الأمريكية ، ولما بلغنا مشارف البقعة التي يقيم فيها ، سألنا عنه فقيل لنا إنه غير موجود الساعة في منسكه ، فحز الألم في نفوسنا لأنه كان بودنا أن نرى الرجل الذي يقبض اليوم بيده على المعول بدل القلم ، ويستبدل الأرض بالقرطاس ، ليخط عليها أسطورة الحياة الخالدة ، ويخرج من كنوزها الدفينة خيرات بارك الله فيها ، وفي لبنان خيرات كثيرة تطلب الأيدي لاستغلالها ! !
وبينما نحن نجيل الطرف فيما حولنا ، ونأمل ذلك الجو الهادئ

الذى يقيم فيه فيلسوف بسكنتا ، و تمتع النظر بجمال المناظر التى تحف بنا ،
 رأينا شاباً مقبلانحونا وقد لمس من مظهرنا أننا غرباء ، حتى إذا اقترب منا
 أخذ يتبسط فى الحديث معنا ، ولما جاء ذكر نعيمه قال :

— إن ميخائيل نعيمه ناسك الشخروب بعد عودته من الولايات
 المتحدة الأمريكية ، يعيش بيننا معيشة طابعها الهدوء والسكينة ، يقضى
 يومه بين بهائم يطعمها ويسوسها ، وفى وسط حديقته يتفقد غرسها ،
 ويشذب أشجارها ، ويقوم ما اعوج من أغصانها ، ويدراً عنها غائلة
 الآفات الزراعية . ويزور ناسك الشخروب فى فصل الصيف جميع الأدباء
 الذين يفدون إلى لبنان .

زادنا كلام صاحبنا الشاب شوقاً إلى رؤية أديب لبنان الكبير ،
 لنستمع بحديثه وفلسفته بالحياة ، ولكن ضيق الوقت حال بيننا وبين
 رغبتنا ، فتركنا تلك البقعة الساحرة فى انتظار عودة ناسكها إليها وقفلنا
 راجعين إلى بسكنتا .

وميخائيل نعيمه هو مؤسس الرابطة القلمية فى المهجر ، وقد انحللت
 بموت جبران ، وعودة ميخائيل نعيمه إلى لبنان ، لأسباب ذكرها فى
 كتابه رداً على رسالة كان قد أرسلها إليه أديب من البرازيل ، أودع فيها
 فلسفته فى الحياة ، وسبب تركه الولايات المتحدة الأمريكية ليرتقى فى
 أحضان صين وقد جاء فيها :

« تسألنى لماذا هجرت الولايات المتحدة وآثرت الحياة عليها فى حضن
 صين ، فأقول لك إنى من بعد عشرين سنة قضيتها فى الولايات المتحدة ،

شعرت بحاجة روحى إلى الاستجمام فى نور البساطة العادية العارية من زخرف المدنية ، وغشها ، وتشويشها ، فقد أبصرت الحياة حقيقة بسيطة عارية ، ورأيت الناس فى كل ما يعملون ، ويقولون ويؤمنون ، إنما يسترون عرى الحياة بأكسية لا تحصى من أوهام وتقاليد ومعتقدات ، فيخسرونها من حيث لا يعلمون ، ولذلك يتألمون ويشقون ، وقد وجدت أن وجه الله يبدو سافراً فى هذه الجبال السافرة ، حيث إنه فى مدينة كنيويورك تحجبه طبقات من ضباب الأوهام والتقاليد الكثيفة ، فلا تلمحه البصيرة ، حتى يخفيه البصر ، ولا تقترب منه الروح حتى تقصيه أهواء الجسد ونزعات النفس ، هنا أستطيع أن أقبل الحياة كما هى ، وأن أحبها بكليتها ، أما فى نيويورك ، فمع علمى بأن الحياة وحدة لا تتجزأ ، كنت أحاول تجزئتها ، ومع علمى أنها فوق المقاييس والموازن كنت أنسى ذلك فى بعض الأحيان ، فأحاول أن أقيسها وأزنها .

« لا أقول إن صنين أطهر من نيويورك ، فكل ما فى الأرض طاهر ، بل أقول إن الطهر فى صنين أسهل منه فى نيويورك . . . »

تلك هى فلسفة نعيمه ورأيه فى لبنان ، حيث تبدو الحياة سافرة فى جباله الشاخنة ، التى يتوجها الثلج الأبيض علامة الطهر والعفاف . وهل هناك على وجه البسيطة أطهر من أرض لبنان ؟

المتين

عدنا من زيارتنا لناسك الشخروب إلى المتين ، القائمة على منحدر

سفوح جبال صنين وتشرف على وادى صليبا وترتفع عن سطح البحر بمقدار ١٠٨٠ متراً وتبعد عن بيروت بمقدار ٣٩ كيلو متراً .
ومناخ المتين معتدل جبلى ، وهواؤها جاف ، وعلى مقربة منها غابة من شجر السنديان هى منتزه طبيعى يقصدها المصطافون للتمتع بمنظرها ، ولاستنشاق الهواء الذى يمتزج بأوراق أشجارها ، فتنتشره عبيراً ذكياً ، وتكثر فى المتين كروم العنب المتنوع الأشكال .
جلسنا فى مقهى على الطريق العام نشاهد السيارات الغاديات الرائحات تمر أمامنا فى طريقها إلى زحلة وسهل البقاع الحصيب .

المروج

كان وصولنا إلى المروج المصيف الجميل ، ليلة عيد القديسة تقلا الشهيدة ، ويحتفل اللبنانيون بهذا العيد ، على اختلاف شيعهم ومذاهبهم ، احتفالاً شائقاً . اقترح علينا العم أبو طنوس أن نحضر ليلة العيد فى هذا المصيف الهادىء ، لنأخذ فكرة عن الأعياد الدينية فى لبنان ، ولنشاهد فى الوقت ذاته عادات القوم فى مثل هذه المناسبات .
قصدنا فى المساء الكنيسة ، فألفيناها حافلة بالناس وقد تقاطروا إليها من جميع القرى المجاورة ، والسرور يطفح على وجوههم للاحتفال بهذا العيد ، فاتخذ الباعة الجائلون لهم ركناً فى ساحة الكنيسة الفسيحة ، يعرضون فيه بضاعتهم ، وقد التف حولهم أطفال بملابس العيد الزاهية النظيفة ،

ليفرغوا ما في جيوبهم من قروش معدودات ، في شراء ما تيسر لهم من أنواع الحلويات ، وقد أثار إعجابنا منظر الشبان المفتول السواعد ، الأقوياء العضلات ، وقد ضربوا نطاقهم حول حبل تدلى من جرس معلق فوق قبة الكنيسة ، فكان كل واحد من هؤلاء الشبان ، يباهى زميله بطول المدة التي يستغرقها في قرع الجرس الكبير ، إلى أن اقترب شاب فارغ الطول ، رشيق القوام ، يرتدى الملابس اللبنانية الوطنية ، ويتعمم بعقال تحته كوفية ، تناول الحبل من زميله ، وأخذ يقرع الجرس قرعاً متواصلاً بيد واحدة زهاء ثلث ساعة ، كان يدفع عنه في أثناءها كل من يحاول أن ينتزع الحبل منه ، وظل كذلك حتى إذا ظهرت عليه علامات التعب ، ترك لزميل له الحبل . اقتربنا من الشاب وهنأناه على براعته ورشاقته في قرع الجرس ، غير أن الشاب تبذل تهنئتنا بخجل وحياء ، ولما عرف أننا غرباء قال :

إن قرع الأجراس في لبنان ، ودوى رنينها في قباب الكنائس ، وتردد اهتزازاتها في بروج الأديرة المنزوية وسط الأحراش والأدغال ، هو من صميم تقاليدنا الوطنية ، وعاداتنا القومية فنعتقد له الحلقات في شتى المناسبات والاحتفالات ، يشترك فيها الشبان اللبنانيون على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ، فيسطرون بسواعدهم القوية عليها أنشودة الحياة ، فيتجاوب صداها حراً طليقاً في الفضاء اللانهائي ، فتطرب لسماعه الآذان الذي تعشق مثل هذا الرنين الذي تتتابع صدى تموجاته حتى تمس شغاف القلوب . إن رنين الأجراس في لبنان ، برقيات غامضة ، يحملها الأثير بين طياته ، لا يستطيع أن يفك رموزها ، أو يحل أحاجيها سوى الآذان

اللبناية الصميمة . حقاً لقد صدق هذا الشاب فيما وصف ، إن رنين
الأجراس واهتزازاتها يبعث في النفس ذكريات ، فيها رهبة وفيها خشوع ،
تتعاقد فيها الأسباب التي تربط الإنسان في الحياة الذي جاء إليها رغم أنفه ،
وتحله منها رغم إرادته .

رقصة الدبكة

انتقل بصرنا إلى ناحية أخرى من الساحة ، فرأينا جماعة من الناس ،
قد عقدوا حلقة حول نخبة من الشبان يرتدون الزي العربي الجميل ، وقد
أمسك كل واحد منهم بيد الآخر ، واصطفوا على شكل نصف دائرة ،
وأخذوا يرقصون رقصاً إيقاعياً بديعاً ويأتون بحركات هادئة متزنة على نفخ
مزمار من القصب ، بدائي الصنعة ، رقيق النغم ، وكان أولئك الشبان
ينشدون بمصاحبة المزمار ، أناشيد تفيض بالشوق والحنين إلى لبنان ، وإلى
مائه العذب ، وهوائه العليل ، وجداوله الرقراقة الصافية ، ووديانه الرائعة ،
ومناظره الطبيعية الفاتنة ، وكان رائدهم وهو في طرف الحلقة أشدهم طرباً ،
وأكثرهم حماساً ، يلوح بمنديل أبيض اللون في الهواء بين كل دبكة ودبكة ،
ليذكى في نفوس رفقائه الحماس .

وكان النافخ بالمزمار الذي يتوسط الحلقة ، يحن رأسه حيناً ، ويرفعه
حيناً ، وهو ينفخ بمزمارة نغمات شجياً ، فيه عذوبة ، وفيه روعة ، يتمشى
مع انسجام الأصوات ، وكان الراقصون يتمايلون بأجسامهم ذات اليمين

وذات الشمال ، وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، وقد سحرتهم رقة النغم ،
التي كانت تضيء على نفوسهم لونا من ألوان جمال تلك الرقصة الإيقاعية البديعة .
أجل إن رقصة الدبكة اللبنانية ، هي رسالة من الفن الرفيع ، تخط
سطورها الأرجل اللبنانية ، على صفحات الفن بمداد نغم المزمار الرقيق .
أعجبنا أيما إعجاب بهذه الرقصة ، التي يزينها طابع الاحتشام
والوقار ، والبعد عن الحركات المثيرة المريبة .

سألنا العم أبو طنوس عن هذه الرقصة ، فقال : إنها رقصة الدبكة
اللبنانية ، وهي من رقصات أهل جبل لبنان القديمة ، يرجع تاريخها إلى
عهد الفينيقيين ، فكانوا يرقصونها في المواسم والأعياد أمام هياكلهم المشيدة
في أحضان الطبيعة ، فوق الرابي والآكام ، وقد نقلها عنهم اليونان واتخذوها
رقصة وطنية لهم ، بعد أن أدخلوا عليها بعض تعديلات يسيرة .

ورقصة الدبكة التي يشترك في أدائها الراقصون والراقصات في نظام
وترتيب ، هي الوحيدة التي احتفظت بما لها من وقار وروعة وجلال ، فلم
يدخل عليها أي تبذل أو استهتار ، وبقيت وقفاً على أصحابها اللبنانيين القدامى
منهم والمحدثين ، يؤدونها في المناسبات القومية ، والأعياد الدينية بحيث إذا
انتقلت إلى خارج موطنها لبنان ، فإنما تنتقل على أيدي أبناءها اللبنانيين أنفسهم .
وتصاحب رقصة الدبكة عادة موسيقى خاصة بها ، وأغاني معينة لا
يمكن أن تؤدي إلا معها تعرف عند اللبنانيين « بالعتابا » .

ويتفنن الرجال اللبنانيون في نظم هذا اللون من الأغاني التي تعبر
عن الحنين إلى لبنان ووصف مفاتن الطبيعة فيه .

الرقص بالسيف والترس

وما كاد رقص الدبكة ينتهى ، حتى انبرى شبابان من بين الحاضرين وأخذوا يلعبان بالسيف والترس ، على قرع الطبول ، ونفخ المزمار ، وكان منظر هذين الشابين وهما يكران ويفران بخفة ورشاقة ، من أجمل المشاهد وهكذا بقينا فى ذلك الجو الساحر نتنقل من مكان إلى مكان حتى ساعة متأخرة من الليل .

عينطورا

فى الصباح الباكر ، استأنفنا رحلتنا ميممين شطر زحلة ، فسارت بنا السيارة فى طريق ممهد أملس ونحن نستمع إلى الأغاني اللبنانية من مذياعها حتى بلغنا عينطورا ، وهى قرية هادئة صغيرة يعيش أهلها على زراعة الحبوب والخضروات ومنتجات الألبان .

وشاهدنا فى الجهة الجنوبية الشرقية منها آثاراً قديمة قلما يعيرها سكان هذه القرية اهتمامهم يرجع تاريخها إلى العهد الرومانى .

وتقبل بعض الأسر على الاصطياف فى عينطورا المغمورة بكروم العنب لهدوئها ولبساطة المعيشة فيها

أوقفنا سيارتنا أمام مطعم بسيط فيها على الطريق العام ، فدخلناه وجلسنا

على مائدة غاية ما تكون من النظافة ، وتناولنا طعام الإفطار ، وكان مؤلفاً من الزيتون الأخضر والأسود اللذيذ الطعم ، والطماطم والبصل الأبيض اللون الحلو الطعم ، واللبن الزبادى ، فتذوقناه فإذا هو دسم بمادته تشوبه حموضة يسيرة تزيد في لذة طعمه . مع الخبز المرقوق الأشقر اللون كجناح الدبور وقبيل الظهر أخذنا نقطع بسيارتنا طرقاً شقت وسط الجبال تحيط بها الغابات من جميع نواحيها تارة والجبال الجرداء أخرى ، غير أننا لم نصادف في طريقنا وهاداً وودياناً عميقة .

وجميع هذه البقاع تلبس في فصل الشتاء حلة بيضاء من الثلج الذى يتراكم فوقها ، فتسد المسالك والطرق ، وتنعزل القرى الواقعة في هذه البقاع بعضها عن بعض ، ويصبح الوصول إليها متعذراً ، فيقبع جميع سكانها في دورهم طول فصل الشتاء ولا يغادرونها إلا لقضاء حاجة ملحة ، يعيشون على ما اختزنوه لأنفسهم في فصل الصيف من مؤونة وزاد.

زحلة

سارت السيارة في طريق السهل الجبلى وشق بين جبال تكاد تكون جرداء وإنما ليست بارتفاع وروعة الجبال التى شاهدنا في الشمال ، إلى أن بلغنا زحلة ، عروس لبنان وأكبر مدنه وأعظمها شأنًا .

وسميت زحلة بهذا الاسم نسبة إلى الإله زحل ، وتشاهد آثار هيكله فوق الأكمة الجنوبية التى تطل على المدينة .

وتختفي زحلة في منخفض من الأرض تحيط بها الجبال من جهاتها
الثلاث ، ويحترقها في وسطها نهر البردوني الشهير الذي ينبع من
مغارة في وادي صنين القريب ، فيشطرها إلى شطرين ، أقيمت على
ضفتيه المتنزهات والمقاهي والمطاعم والفنادق ، يتردد إليها المصطفون
لاستنشاق الهواء ، ولتمتع بجوها اللطيف ، ومناظر الوادي الفاتنة .

وأهم تلك المتنزهات ، متنزه وادي العرايش ، تحف به المقاهي على
الجانبين تظللها أشجار الصفصاف والخور الشامخ الارتفاع ، فتخلع على
المكان منظرًا من أروع مناظر لبنان البهيجة الساحرة ، يزيد في روعته
وجماله صوت خرير الماء المنساب في مجراه ، وحفيف أغصان الأشجار
التي يداعبها نسيم العليل وقد استوت الطيور فوقها مغردة بألحان تستمددها
من روعة المكان وجماله .

وقد ألهم سحر وادي العرايش وجماله المرحوم شوقي أمير الشعراء قصيدته
العصماء التي مطلعها :

يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراك
وزحلة مشهورة بكرومها التي تنتج أصنافاً كثيرة من العنب اللذيذ
الطعم ، الذكي الرائحة ، الجميل المنظر ، ويقطرون منه العرق الزحلاوي ، وهو الذ
عرق في العالم طعمًا ، وأنتى صنفًا ، ويصدرونه إلى جميع بقاع العالم لشهرته .
وشوارع زحلة نظيفة واسعة ومفروشة بالأسفلت ، ومضاءة بالكهرباء ،
فيها كثير من الحوانيت الكبيرة التي يجد المرء فيها جميع ما يطلبه .

وزحلة هي مصيف سهل البقاع الجبلي الفسيح وهو من أخصب سهول

الدنيا ترويه مياه الأمطار شتاء ، والينابيع الغزيرة التي تتفجر من الجبال التي على جانبيه صيفاً ، وقد كان هذا السهل الذي ينتهي عند جبل حرمون فيما مضى مصدر ثروة للبنان وأعظم إهراء غلال للرومان .

تعنايل

مكثنا في زحلة يومين ، زرنا فيهما جميع ضواحيها ومنتزهاتها الجميلة ، والأماكن الأثرية فيها ، ثم استأنفنا رحلتنا في طريق معبد بالأسفلت تحف به الأشجار على الجانبيين ، ومن خلفها السهول الفيحاء إلى تعنايل ، وهي ضاحية هادئة فيها دير الآباء اليسوعيين الشهير وأراضيه الواسعة ، وقد أقطعهم إياها الإمبراطور نابليون الثالث بعد أن أخذها من الحكومة التركية تعويضاً لهم عن مقتل خمسة من رهبانهم في حوادث سنة ١٨٦٠ المشؤومة .

وقد اعتنى هؤلاء الآباء الأفاضل بهذه الأراضي حتى أصبحت جنة من الجنان تكسوها كروم هي بهجة للناظرين دواليها غير متعالية تخفي تحت أوراقها عناقيدها البهيجة .

مرصد كساره

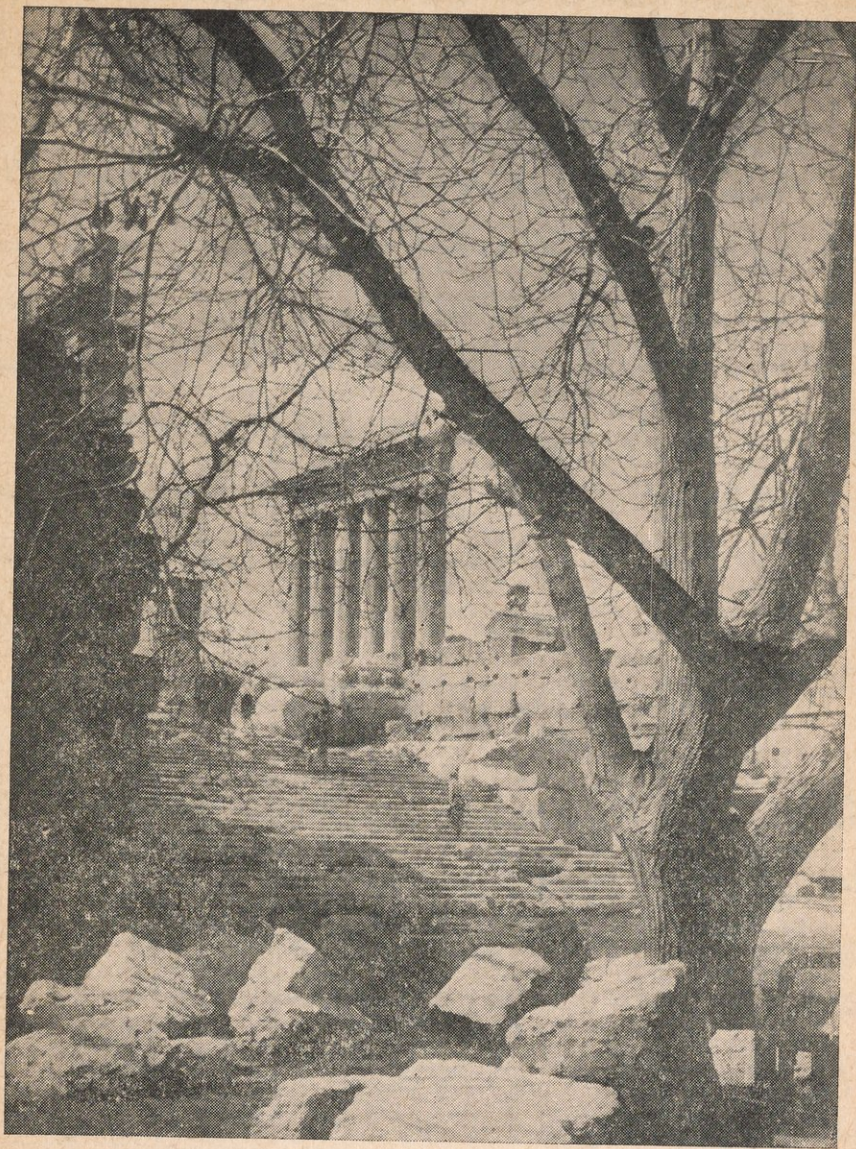
وقد أبدى الدكتور خليل رغبة في أثناء وجودنا في تعنايل في رؤية

مرصد كساره الجوى ، وكنا قد سمعنا عنه أنه أعظم مرصد فى لبنان ، فذهبنا إليه يرافقتنا أحد الآباء الأفاضل ، فلما بلغناه قدمنا بدوره إلى الأب المشرف عليه ، فأخذ يشرح لنا كل ما تقع عليه العين من الآلات والأجهزة الدقيقة المزود بها المرصد ، وكان الدكتور خليل شديد الإعجاب بشرح حضرة الأب الذى ختم حديثه معنا بقوله : إن الحكومة اللبنانية تعتمد على هذا المرصد فى معرفة التقلبات الجوية من النشرة اليومية التى يصدرها .

وبعد أن طفنا فى أرجاء هذا المرصد العظيم القائم فى تلك البقعة النائية الهادئة ، شكرنا لحضرة الأب الفاضل ما زودنا به من معلومات ، وما أظهره نحونا من لطف ثم ودعناه وانصرفنا .

فى الطريق إلى بعلبك

كانت السيارة تسابق الريح فى سيرها عندما تركنا كساره ، ولم تكن نخشى سرعتها ، لأن الطريق ممهد سهل لا وديان عميقة فيه تقع تحت أبصارنا ، ولا وهاداً مخيفة نمر عليها ، أو جبلاً شامخة نشق لنا طريقاً فيها ، وبقينا على هذه الحال ونحن نقطع دروباً تحف بها الأشجار الباسقة حتى بلغنا بعلبك ، وهى مدينة فينيقية قديمة ، من أقدم مدن العالم ، تبعد عن بيروت بمقدار ٨٢ كيلو متراً وتعلو سطح البحر بمقدار ١١٥٠ متراً .



هذه الأعمدة الجارية رمز لعظمة الماضي

وتقع بعلبك في الجهة الشمالية الشرقية من سهل البقاع الحصب ،
واسمها مركب من لفظتين : بعل ومعناها رب وبك ومعناها الوادى أى رب
الوادى ، وقد كانت هذه المدينة في الماضى ، مركزاً دينياً مشهوراً ، ومحطاً
للقوافل لحسن موقعها ، كما كانت قبلة جميع الفاتحين الغزاة الذين تعاقبوا
على حكم لبنان .

وبنى الفينيقيون فيها معبداً لإلههم بعل ، أحاطوه بسور من الحجارة
الكبيرة الحجم ، أدخلت عليه الشعوب التى تولت الحكم فى لبنان كثيراً من
التبديل والتغيير ، ولما احتل اليونان بلاد فينيقية ، وبسطوا سلطانهم عليها ،
أطلقوا على بعلبك اسم « هليوبوليس » أى مدينة الشمس ، لحسن موقعها ،
وطيب مناخها ، وخصوبة الأراضى التى تحيط بها .

قلعة بعلبك

كانت بعلبك أهلة بالسكان قبل حدوث الطوفان ، وقد عاش فيها
أبونا آدم عليه السلام زمنًا بعد طرده من الفردوس الأرضى ، ثم انتقل منها
إلى دمشق ، حيث مات ودفن فى الزبدانى على مقربة منها ، ذلك هو
اعتقاد القوم فى تلك البقاع ، ثم إن قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل توارى
من وجه الرب وهرب إلى بعلبك يطلب له ملجأ فيها ، فأمره الرب أن يبنى
له هيكلًا ، فبناه وهو المعروف بقلعة بعلبك .

غير أن رواية أخرى تقول إن سيدنا سليمان الحكيم عليه السلام ، هو

الذى بنى هذه القلعة التاريخية ، وقدمها مهراً لبليقيس ملكة سبا ، التى جاءت من أقاصى الأرض لتسمع حكمته ، بيد أن هاتين الروايتين تفتقران إلى ما يؤيدهما .

البعثة الألمانية وقلعة بعلبك

بقيت هذه القلعة التى هى من أروع الآثار اللبنانية زمناً طويلاً فوق قمم الجبال ، تغط فى سبات عميق ، تنبئ أطلالها الدارسة البكماء عن ماض مجيد اكتنفه الجهل ، وأحاط به الغموض ، ودفنت فيه كثير من ذكريات أسرار الآلهة التى عبدتها الأمم القديمة ، إلى أن جاءت بعثة ألمانية إلى لبنان فى مستهل هذا القرن ، فأيقظتها من سباتها ، ورفعت الأنقاض المتركمة فوقها ، وأظهرت هياكلها على ما كانت عليه من روعة فى الفن ، وجلال فى البناء ، قبل أن تنال منها عصف الرياح العاتية ، وتلك مبانيها الزلازل الغاشمة سنة ١٧٥٩ ، فحملت تلك البعثة معها من تلك الآثار ما استطاعت حمله فى ذلك العهد ، الذى كانت الفوضى ضاربة أطنابها فيه ، وتركت الباقي مكانه ، عرضة للتلف والضياع والنهب والسلب . ذلك كان مصير جميع الآثار التى اكتشفت فى لبنان ، قبل إنشاء المتحف الوطنى فى عهد النور والاستقلال .



قلعة بعلبك تحدث الزمن

شهرة بعلبك

اكتسبت بعلبك شهرتها من قلعتها العجيبة الغريبة ، التي تعتبر من أروع ما بناه الرومان في عصر مجدهم ، وسط حدائق غناء ، وهي تتكون من بهوين واسعين ، وهياكل عديدة لجوبيتر ، وباخوس ، وفنيس وغيرها ، يأتي إليها السائحون من جميع أنحاء العالم لرؤية أطلالها الدارسة ، وأعمدتها الستة الضخمة ، التي تذهب بالارتفاع حتى لتناطح السحاب ، وقاعاتها الأنيقة التي تبهر الأبصار بعظمتها ، وجمال هندستها ، وروعة

النقوش التي تحليها ، وضخامة الحجارة التي وضعت في مبانيها ، ويبلغ طول بعضها ١٩ متراً بارتفاع ٤ أمتار وسمك ٣ أمتار ، ويزن الواحد منها ٦٥٠ طناً وهي مبنية على مساحة من الأرض تبلغ ٤٠٠٠ متر مربع . هذا ما رواه الدليل المرافق لنا عن هذه القلعة العظيمة التي ملكت علينا مشاعرنا .

وقفه أمام القلعة

أمام هذه الهياكل المتداعية التي هي صدى الماضي ، وعنوان على عظمة العصور الغابرة ، وأمام أجمل أثر تركه الرومان في ربوع لبنان خالداً على الزمن ، يهزأ بعاديات الدهر ، بعد ما عشت به أيدي الفاتحين الغزاة من عرب وترك وفرنسيين ، وقفنا قبيل الغروب نجيل الطرف فيها ، ونتأمل في محراب باخوس إله الخمر الحافل بالذكريات وهو يصب عصير ابنة الكرم في الكأس يتوج رأسه إكليل من اللبلاب قد أسكرنا جمال هندسته ، وروعة فن البناء في أعمدته ، ودقة استدارة هيكله بأعمدته الستة التي تحيط به ، وما حليت به من نقوش هي آية في الروعة .

وفي داخل صومعة فنييس إلهة الحب والجمال وقفنا خاشعين ، أنها اليوم يخيم على هيكلها سكون الموت ، وكانت في الماضي تزخر بالحياة ، بما كان يرتكب فيها باسم الدين من الموبقات والمحرمات في المواسم والأعياد . أجل كان كل شيء حولنا يشعرنا برهبة المكان وروعته ، ويملاً قلوبنا

وحشة ، ولكن برغم كل ذلك فإن قلعة بعلبك ما فتئت قبلة السائحين ، ومحط أنظار عشاق الآثار القديمة ، يأتون إليها ليرتووا من فيض معين ذلك الفن الذى لا ينضب .

ولما دخل الدين المسيحى لبنان اعتنق سكان بعلبك النصرانية ، فنهج الإمبراطور قسطنطين العبادة فى هذه الهياكل ، وبنى على أنقاض معبد الزهرة (فينوس) كنيسة تحمل اسم العذراء مريم عليها أشرف السلام ، كما بنى الإمبراطور تيودوسيوس من بعده كنيسة أخرى على أنقاض الهيكل الكبير ، كان المسيحيون يقيمون فيها شعائرهم الدينية حتى الفتح الإسلامى سنة ٦٣٥ ميلادية ، فحول العرب البناء بأكمله إلى قلعة حصينة نظراً لموقع بعلبك الحربى ، بأن عمدوا إلى نزع الأعمدة الأثرية من مكانها ، ودكوا الدرج وبنوا بحجارته سوراً كبيراً فوق قواعد تلك الأعمدة ، وقد كشفت البعثة الألمانية آثار الكنيسة عند التنقيب .

انتقلنا من هذه البقعة التاريخية إلى بركة ، لا لترشف منها الماء الزلال وإنما لنسمع نبذة عن تاريخها القديم والحديث من العم أبو طنوس ، وكله يدور حول قصص هى أشبه شئ بالأساطير الخرافية منها بالقصص الواقعية ، إلى أن قال ، إن للنساء نصيب الأسد من هذه القصص ، لزعمهن أن النزول فى مأها ، يجلب لهن السعد وينيلهن ما يشتهين ، ثم إن كثيراً من السائحات الأجنبية ، يقصدنها خصيصاً لهذا الغرض قالت سلوى : وهل هذا قاصر على النساء فقط .

أجاب العم أبو طنوس ، هذا أمر لا يرتقى إليه شك .

فللحال خلعت سلوى حذاءها ، وشمرت عن ساقها ، ونزلت تخوض
 عباب ماء البركة وهي فرحة جدلة .
 أثار منظرها وهي على هذه الصورة ضحكنا جميعاً وآمنا بأن الخرافات
 لا تزال تسيطر على عقول بعض الناس مهما تبلغ درجة ثقافتهم .
 فقال لها العم أبوطنوس : أتمنى لك حظاً سعيداً يا آنسة .

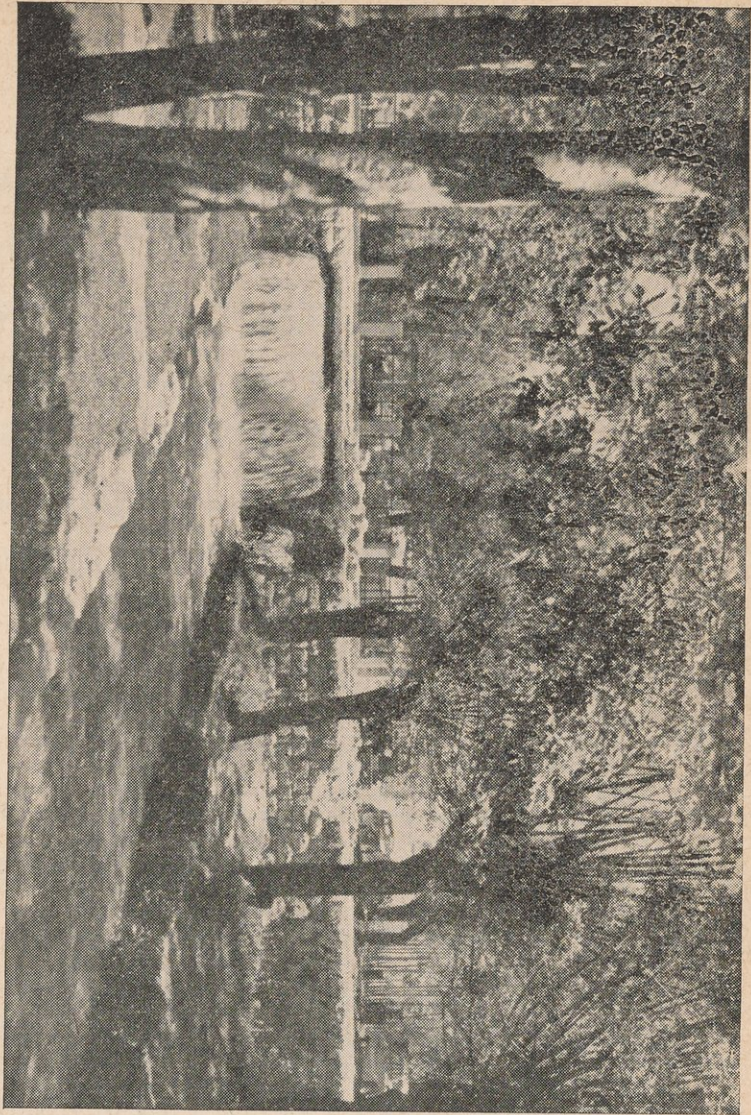
منتزه رأس العين

بعد أن قضينا في تلك القلعة التاريخية زهاء ساعتين برفقة الدليل ، وهو
 يشرح لنا كل ما خفي عنا بشأها بأسلوبه اللبناني الطريف ، غادرناها إلى
 منتزه رأس العين الشهير ، وهو أجمل منتزه في تلك البقعة ، فرأينا جموعاً من
 الناس محتشدة في تلك المروج الفيحاء حول العين ، وقد افترشوا الأعشاب
 وتقيأوا ظل الأشجار ذات الرائحة الذكية .

وقد شاهدنا هناك أطلال آثار جامع قديم يرجع تاريخه إلى سنة ١٢٧٧
 قضينا ليلتنا في فندق بجوار العين في ذلك الجواهدي ونحن نستعيد ذكريات
 تاريخية قصها علينا الدليل وأساطير غريبة رواها لنا لا تخلو من الطرافة .

رياق

عدنا من منتزه رأس العين الحافل بآيات الجمال في الصباح الباكر



جالسة على فئحة رأس العين تزيتل عن النفس الحزن

وسرنا في طريق وسط سهل البقاع الحبيب ، الذي أبرز ما فيه من
مظاهر الجمال ، انبساطه على مدى النظر ، وقد تناثرت الأشجار الباسقة
فوقه في كل مكان بدون نظام ، إلى أن وصلنا إلى رياق ، وهي ملتقى عدة
طرق حديدية كان لها شأن كبير في الماضي قبل أن تغزو السيارات جميع
طرق لبنان .

وقد اكتسبت رياق شهرتها من مطارها الحربى القديم ويقوم على
مساحة واسعة من الأرض وهو من أحسن مطارات الشرق العربى مزود
بالأجهزة والآلات الحديثة التى تحتاج إليها المطارات الحربية اليوم وقد
لعب مطار رياق فى الحرب الكبرى الثانية دوراً هاماً فى محيط الأعمال
العسكرية والحربية .

اشتوره

هبطنا اشتورا الفاتنة وكانت الشمس فى أوج السماء ، وتقع فى
الجهة الشرقية من مدينة زحلة على ارتفاع ٩٠٠ متر من سطح البحر ،
وتبعد عن بيروت بمقدار ٤٧ كيلو متراً ، فسارت سيارتنا تتهادى على
طريقها الأملس الرحب النظيف بين أفواج من الناس ، غلب عليهم روح
المرح والسرور ، إلى أن حططنا رحالنا أمام نبعها الذى يتفجر من صخور
صلدة فاتخذنا لنا مجلساً بالقرب منه ، وحوالنا الحمائل الوارفة الظل وقد حمتنا
أغصانها التى لم تقو العواصف على إحناء هامها من نظرات الشمس

التي كانت تسرق إلينا ، فكنا نحقق النظر في ماء هذا الجدول البارد وهو يترنح في سيره فوق الحصباء في قناة تضيق حيناً وتتسع حيناً آخر ، لتروى البساتين والحدائق التي يكثر وجودها في تلك البقاع .

وتلعب اشتوره دوراً هاماً في توجيه دفة الشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية في الشرق العربي ، فيلتقي فيها كبار رجالات العرب ، ويعقدون اجتماعاتهم في فندق مسابكى الشهير ، للتشاور في الأمور التي تهم الشرق العربي ، ولإبرام المعاهدات ، وللمبحث في غير ذلك من الشؤون ، كما يقصدها العرسان وينزلون في هذا الفندق المليء بالذكريات .

وتطالعك في اشتوره في كل صباح ، صور تنطوى عليها حجرات هذا الفندق ، التي لا تخلو من قصص طريفة ، يقصها عليك خدمه بأسلوبهم التهكمي من حيث لا تدري .

زرنا هذا الفندق زيارة خاطفة ، فتنقلنا في أرجائه بإذن من المشرفين عليه ، إلى أن وصلنا إلى بهو واسع حافل بأفخر الأثاث والرياش ، كست جدرانه صور كثيرة تمثل جميعها ذكريات اجتماع رجالات العرب فيه .

وليس بغريب على بلد مثل اشتوره ، هي ملتي عدة طرق لا ينقطع فيها سيل السيارات الغاديات الرائحات ، في ساحتها التي تظللها أشجار الصفصاف ، أن تتعدد فيها المقاهي والمطاعم والفنادق والخوانيت التي تغص بروادها في فترات معينة من السنة ، تبلغ أشدها في فصل الربيع والصيف اللذين يشيعان فيها جواً مليئاً بالفرح والسرور ، حتى لتمتد السهرات والحفلات في ملاهيها التي تقام فيها في شتى المناسبات إلى مطلع الفجر .

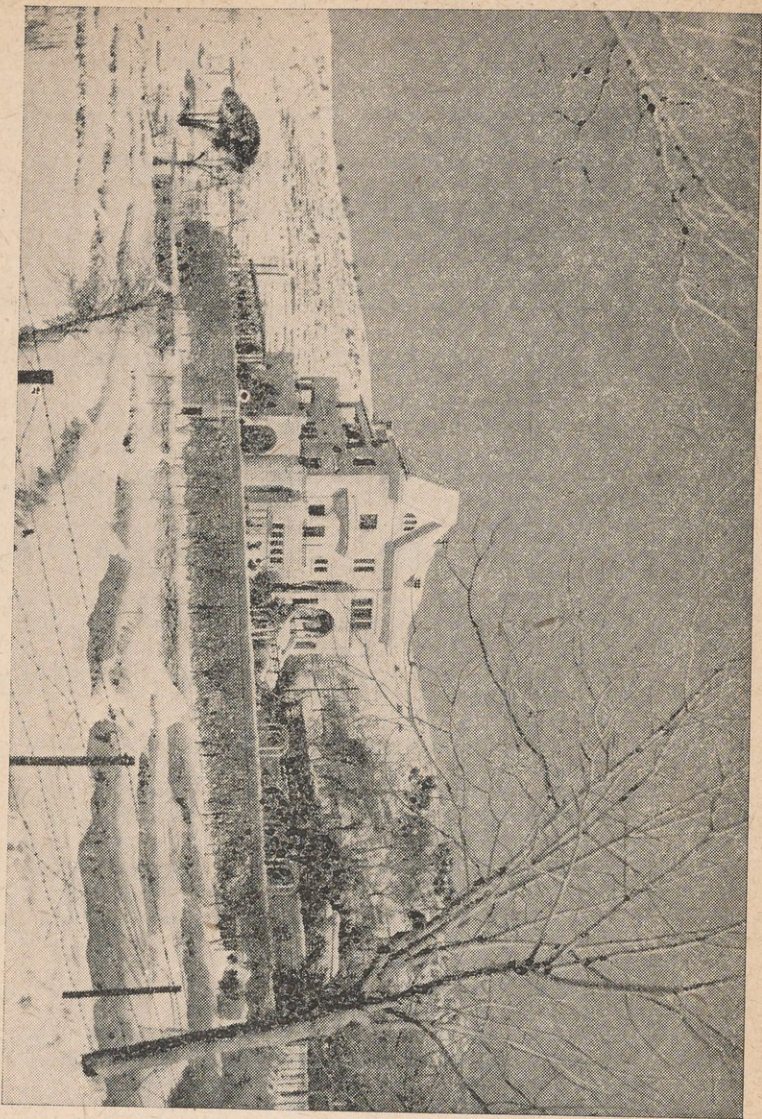
جديتا

لبشنا ما يقرب من ثلاث ساعات ونحن ننتقل في أرجاء اشتوره التي
تكتظ بالذين تطيب لهم الإقامة فيها إلى أن انصرفنا عنها إلى جديتا ، وهي
قرية صغيرة ليست بذات شأن يذكر ، وإنما تكثر فيها كروم العنب
المختلف الألوان والأشكال ، ويقطرون من عناقيده الكبيرة الحجم ، الشهية
المنظر ، اللذيذة الطعم العرق الفاخر ، ويعصرون منه النبيذ الحلو المذاق .

المريجات

كانت السيارة تزحف فوق طريق أملس بطيء الانحدار ، في منطقة
تعلو سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ متر ، من مناطق لبنان التي تطيع في
النفس ألواناً بهيجة من ألوان الجمال . في طريقها إلى أمتع مصايف لبنان
وأكثرها ازدحاماً بالملاهي والمقاهي والكازينات .

ولما أشرفنا على رابية تطل على المريجات — وهي تصغير مرج ، سميت
كذلك لوجود مروج خضراء نضرة فيها ، تسرح فيها قطعان الماعز وفي
الجهة الشرقية منها كروم العنب ، لايشوب جوها الصافي الأديم الغيوم ،
التي تحجب ما يحيط بتلك البقاع من جمال — أخذت عيوننا تطاول إليه ،
وإلى ما حولنا من الأحراش التي هي زينة الجبال وبهجتها . ولكن يا ترى



منزل تحاصره الشوارع وشجرة عارية تتقشر من البرد ! !

هل يرى الناس هذه الصور البهيجة ويلمسون فيها آيات الفن التي يعجز
أكبر فنان أن يأتي بمثلها !!

ضهر البيدر

تلك تصورات جالت في خاطرنا ، ونحن نواصل سيرنا في طريق
خفيفة الانحدار إلى ضهر البيدر ، وهو محط رياضة الترحلق على الثلج
في فصل الشتاء ، يقصده المبتدئون في هذا الضرب من الرياضة لقربه من
بيروت ، إذ يبعد عنها بـ ٣٥ كيلو متراً فقط . ويبلغ ارتفاعه ١٥٠٠ متر
أوقفنا سيارتنا في النادي الرياضي حيث استرحنا بعض الوقت ، فعلمنا من
بعض النازلين فيه أن الثلج في فصل الشتاء يغدر تلك البقاع ، فيسد
المسالك والطرق ، ويتعذر مرور السابلة والسيارات . وشاهدنا في أثناء
سيرنا نفق السكة الحديدية وقد شق في جوف جبل انتصبت الصخور فوقه
كالقلاع الجبارة وقد قلت أهمية هذا النفق اليوم ، بعد أن تغلغت الطرق
الحديثة في جميع بقاع لبنان ، لتفسح لها مجالا للسيارة الأنيقة المريحة .

حمانا

بدت لنا حمانا المتربعة في صدر الوادي الذي يحمل اسمها في المساء
كعروس مجلية فوق عرشها ، تختال وسط الأنوار الكهربائية ، التي تنبعث

فيها من كل مكان ، فتبدد جحافل الظلام التي كان ظلها قد بدأ يترأخى على الأشياء .

وكانت شوارعها تعج بالمصطفين الذين يستهويهم ما فيها من متعة ، وفتنة ، وقد خرجوا في مثل هذا الوقت لاستنشاق الهواء العليل ، والتمتع بملاهيها الساحرة .

ويقع في أعلاها الشاغور ، وقد خلد ذكره كثير من الكتاب والشعراء الذين زاروا لبنان ، كما تغنى بجماله الشاعر الفرنسي لامرتين ونعمته بالوادي الحزين .

شاقنا أن نشاهد الشاغور ، فذهبنا إليه في اليوم التالي مبكرين ، وكان الناس قد سبقونا إليه ، وانتشروا في المقاهي والمطاعم القائمة حول حافتيه تظللهم الأشجار الباسقة ، التي قامت أجواق الطيور فوق أفنانها تستقبل الصباح البهيج بأغاريدها الحلوة ، وكأني بها ترحب بالقادمين ، وترجو لهم طيب الإقامة في هذا الوادي الفاتن الجميل .

ولشد ما أثار إعجابنا منظر الماء ، وهو ينحدر في هوة سحيقة ، نقر له في قلب صخورها بمرور الأيام ، مجرى يسيل فيه إلى غايته ، وكان الجالسون حوله لا يسلمون من رذاذه الذي ينشره على الجانبيين ، وهو يترنم في أثناء انحداره بألحان الخلود ، يستلهم معانيها من الطبيعة الضاحكة التي انتصبت فوق رباهها الأشجار الباسقة ، والتي تسترسل أغصانها في التصفيق طرباً كلما هزها النسيم .

لقد اجتمع لوادي حمانا جمال الشواطئ ، وروعة الجبال ، وجلال

السهول ، فهو أروع منظر يرى الإنسان فيه بديع صنع الباري ، إذ لم نر فيه أثراً من آثار الحزن التي ألصقتها فيه لمرتين زوراً وبهتاناً ، بل كان كل شيء حولنا يشعرنا بالجمال الإلهي ، ويملاً قلوبنا بالبهجة والسرور ، ولا سيما في الليالي القمرية عندما يبرز القمر من خدره زاحفاً على أطلال النهار ، ويتسلل نوره من بين أفنان الأشجار ، إن لفي ذلك آيات الجمال في لبنان .

تسلقنا رابية فوق الشاغور وأجلنا الطرف منها ، فبان لنا قمم الجبال والوديان والقرى المنتشرة في كل مكان ، وغابات الصنوبر التي يكثر وجودها في تلك البقاع ، فيمر الهواء خلالها فتنقله بدورها إلى هذا المصيف الجميل نقياً ، فيه شفاء للصدور ، التي يمزجها اليأس برجاء الشفاء ، والصحة الكاملة بعد طول المرض والعناء .

فالوفا

تكاد القرى اللبنانية تكون متلاصقة ، لا يفصلها عن بعضها ، إلا حدود وهمية تواضع عليها الناس . فهناك بالقرب من حمانا تقع قرية فالوفا على السفح الغربي لجبل الكنييسة ، على ارتفاع ١٢٠٠ متر عن سطح البحر وتبعد عن بيروت بمقدار ٣٣ كيلو متراً .

اجتازت سيارتنا في وسط هذه القرية ، وكانت تكتظ بالمصطافين الذين يستهويهم ما فيها من غابات الصنوبر الجميلة القديمة الأيام ، وهي تحيط بها إحاطة الهالة بالقمر .

ولا يقل مناخ فالوفا في جودته عن باقي القرى اللبنانية التي تجاورها ،

فهواؤها عليل ، وماؤها عذب بارد غزير ، وفاكهتها شهية ، وخضراواتها
نضرة ، ومنتجات ألبانها لذيذة دسمة مغذية ، وأشهر ما فيها نبع الصحة ،
يرشدك إليه أى شخص ، ويقول لك والفخر يملأ فؤاده ، إن مياهه معدنية
تليس أنفع منها للذين يشكون من أمراض الكلى . حقاً إن ينابيع لبنان التي
تفجر من الصخور لا مثيل لها في العالم في شفاء الأجسام .

صوفر

وتقع وراء فالوغا قرى كثيرة معلقة فوق الجبال ، أخذ العم أبو طنوس
يسرد أسماءها على مسامعنا ، فإذا كل واحدة منها تحمل طابعاً خاصاً من
طوابع الجمال ، فاكتفيها بوصفها دون زيارتها ، وعدنا أدراجنا إلى صوفر
التي تعلو سطح البحر بمقدار ١٣٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بـ ٢٧
كيلو متراً ، وكان الليل على وشك أن يوغل في التقدم فقصينا ليلتنا في فندق
فيها ، وفي اليوم التالي سرنا في شارعها الرئيسي الذي تحيط به الأشجار
الباسقة على الجانبيين ، وهو بمثابة منتزه يكتظ دائماً بالمصطافين ، على أن
صوفر مصيف هادئ ، هواؤها جاف ، ومناخها صحى ، رائع ، ودورها فخمة
نظيفة ، تتمثل فيها أيضاً المناظر الطبيعية الفاتنة التي قلما تخلو قرية لبنانية منها .

بحمدون

كان مرونا ببحمدون التي تعلو على سطح البحر بمقدار ١١٥٠ متراً ،
(١٤)

وتبعد عن بيروت بمقدار ٢٥ كيلو متراً في الأصيل ، وكانت الشمس قد ألفت خيوطها الذهبية على الجبال والوديان التي تطل عليها ، وكروم العنب المتعددة الأصناف التي تحيط بها إلى مسافات شاسعة ، وحدائق الفاكهة التي تزين كل بقعة فيها ، فتخلع عليها ألواناً من الجمال ، تبعث في القلوب فيضاً من الإحساس بسحر تلك المناظر التي تشيع في جمالها الروعة والجلال ، وتنشئ في النفوس صوراً تمثل لك مدى ما بلغه هذا المصيف ذى المناخ الجاف من الشهرة ، وما امتازت به المناظر الطبيعية فيه من سناء أحسنا بها ونحن نطوف في تلك الضواحي الفاتنة ونمتع النظر بقطوفها الدانية قضينا بقية يومنا ونحن نتجول في بحدون المحطة ، فرزنا فيها فندق الامباسادور وهو من أشهر فنادقها ، وأفخمها ، ويقف على قدم المساواة في روعته ، وجمال موقعه ، وحسن استعداده ، مع فنادق الدرجة الأولى في المصايف اللبنانية الشهيرة . ويلتقي في هذا الفندق وفي سواه ، كبار الشخصيات والأثرياء وسواهم من المصطافين الذين يفدون إلى هذه البقعة الجميلة ، ليستمتعوا بسحر مناظرها وطيب هوائها ، وفاكهتها الشهية وبخاصة أعنابها .

وقد أعجبنا بشوارع بحدون النظيفة الواسعة المعبدة بالأسفلت ، والمضاءة بالكهرباء ، وعلى جانبيها المقاهى والملاهى والخوانيت ، رأينا السكة الحديد وهي تخترق بحدون المحطة متسلقة الجبال ، فكان منظر القاطرة وهي تلهت متواثبة فوق القضبان الحديدية ، وسحب دخانها القاتم يملأ الجو في طريقها إلى سهل البقاع الحصيب ودمشق ، لمن أروع المناظر

قد قلت اليوم أهمية هذه السكة الحديدية بعد ما عرفت السيارة طريقها إلى جميع قرى لبنان .

عاليه

استقبلتنا عاليه المدينة اللعوب الطروب بعد الغروب ، فبدت لنا وهي رابضة على الجبل المطل على شاطئ البحر بدورها الجميلة ، وفنادقها الفخمة ، وحدائقها الغناء ، وملاهيها العديدة الفاتنة ، كغادة هيفاء تميمس في ثوب أرجواني قشيب ، خلعتة عليها الأنوار الكهربائية الساطعة التي تسبح فيها وتشع من منتدياتها في أنتظار عشاق الليالي الحمر الذين يستهوهم ما في هذا الصيف من جمال ومنتعة ولذة .

قصدنا فندقاً استرحنا فيه بعض الوقت ، ولما تقدم الليل صحبنا العم أبو طنوس في جولة في الشارع الرئيسي الذي يخرقها ، فشهدنا على جانبيه المقاهي ، والملاهي ، وصلالات الرقص ، والكباريات ، والفنادق الفخمة ، التي لم نألف رؤية مثلها في قرى الاصطياف الأخرى التي مررنا بها ، وقد اكتظت بالوافدين عليها في صدر الليل ، لقضاء سهرات ممتعة متحررين من قيود هذه الحياة إلى حين ، وليعودوا إلى منازلهم أو أعمالهم خالين الوفاض مع الصباح البهيج .

وقد لاحظنا أن هذه الملاهي وأكثرها ينتقل من بيروت إلى عاليه في فصل الصيف ، تقدم للمتكردين عليها برامج مسلية ، وحفلات شائقة ،

ورقصاً خليعاً ماجناً ، يظهر الراقصات فيه على المسارح بأثواب شفافة تفصح عن كل شيء تحتها . إنها المدنية الزائفة ، بل الحرية الغالية التي ينشدها طلاب المسرات عن هذا الطريق المليء بالأشواك ، ما أفدح الثمن وما أرحب الطريق !!

وتبعد عاليه عن بيروت بمقدار ١٥ كيلو متراً فقط ، تقطعها السيارة في طريق متصاعدة واسعة مفروشة بالأسفلت ، تحف بها الأشجار على الجانبين ، في أقل من ربع ساعة ، ولذا اتخذتها الحكومة مقراً رسمياً لها في فصل الصيف ، ومعها رجال السفارات والقنصليات وكبار رجالات الدول العربية كما يصطاف فيها أيضاً رئيس الجمهورية .

ملاهي عاليه

وتجتذب ملاهي عاليه في فصل الصيف أشهر المغنيين والمغنيات ، والفنانين والفنانات ، والممثلين والممثلات ، والراقصات لإحياء الحفلات على أشهر مسارحها ، للترفيه عن أصحاب الثروات الذين يضيقون ذراعاً بما معهم من مال لا يعرفون كيف ينفقونه . وهكذا تذوب الثروات الطائلة في عاليه المصيف الفاتن ، الذي يفوق بملاهييه وبما تقدمه من برامج شائقة أعظم الملاهي في العواصم الكبرى ، أما سبل السيارات ، فلا ينقطع بين بيروت وعاليه ، لا ليلاً ولا نهاراً ، ولذا تظل طرقها مكتظة بالسيارات التي تلاقى صعوبة بالغة في شق طريقها إلى الجهة التي تقصدها .

أشهر فنادق عاليه

تضارع فنادق عاليه بفخامتها وحسن موقعها ونظافتها أعظم الفنادق العالمية ، غير أن أشهرها فندق طانيوس . من لا يعرف هذا الفندق الذي هو ملتقى كبار رجال المال والأعمال ، ومحط رجال السلك السياسي والقنصلي ، وكبار موظفي الدول العربية ، يتسامرون فيه ويتشاورون في شتى الأمور التي تهم الشرق العربي ، وإلى جانب فندق طانيوس يقوم فندق الجبيلي وفندق شاهين ، وقد حرص أصحابها على أن يجعلوا منها أحسن الفنادق العالمية وأكثرها راحة للنازلين فيها . زرنا هذه الفنادق فإذا هي تكتظ بكبار الشخصيات الذين يستهويهم ما فيها من أسباب الراحة وضروب التسلية .

البيسين

كان لزاماً علينا أن نزور البيسين ، وقد شاقنا في معرض الحديث عنه ما سمعناه من أحد الصحفيين الذين قابلناهم في فندق طانيوس صدفة ، فقصدناه في المساء لنقضي سهرة ممتعة فيه ، فإذا هو بحق مفخرة الملاهي العالمية ، لسعة مساحته ، وحسن تنسيقه ، وجمال هندسته ، التي اشترك في تصميمها كبار المهندسين ، الفرنسيين والإيطاليين واللبنانيين .

و يشرف البيسين على الشاطئ اللبناني الفاتن ، فتنبسط تحته بيروت
وما يحف بها من القرى والدساكر بمناظرها الطبيعية الفاتنة .
اتخذنا لنا مجلساً في الحديقة الجميلة التي يزينها حوض السباحة
نتناول طعام العشاء على أنغام الموسيقى ، وكانت الحديقة تموج بالوافدين
عليها ، وقد تدلت فوق مقاعدهم الأنوار الكهربائية الساطعة ، وكانت
تمتزج بأضواء القمر وبريق النجوم ، فتحيل الظلمة الحالكة إلى نهار وكان
النسيم يداعب صفحات الماء ، فيتماوج بدلال تموجاً فيه سحر وفيه جمال .
ولما تقدم بنا الليل ، انتقل الناس إلى المسرح ، فانتقلنا معهم ، فشاهدنا
على خشبته تمثيليات يقوم بأدوارها كبار الفنانين والممثلين من الجنسين ،
وهكذا قضينا سهرتنا في جو البيسين الفاتن ، حتى مطلع الفجر ، فغادرناه
وسجر المناظر التي هيمنت علينا لم تغب عن مخيلتنا .

سوق الغرب

كان انفصالنا عن عاليه في صباح هادئ ، تعطره النسمات المنعشات ، فسارت
بنا السيارة في طريق واسع مفروش بالأسفلت ، تكتنفه الأشجار على الجانبين
شأنه شأن جميع طرقات لبنان الجبلية الحديثة ، ذات المناظر الخلابة الفاتنة ،
التي شقت وسط الجبال الشاخمة ، وكانت الشمس إذ ذاك في صدر
بزوغها ، ترقص فوق تلك الرابي ، تحجبها عن العين من حين إلى حين ،
غيوم شفاقة عابرة ، كانت ترافقنا في سيرنا ، وكان النسيم العليل يزجي

إلى أنوفنا الروائح المسكية ، وهو يهدد الزهر الذى ينور بين الصخور والأدغال .

كانت أول قرية مررنا بها هى سوق الغرب ، ولعلها سميت بهذا الاسم ، لأن سوقاً كانت تقام فيها للمنتجات اللبنانية ، وتعالو سوق الغرب عن سطح البحر بمقدار ٨٠٠ متر، وتبعد عن بيروت بمقدار ٢٣ كيلو مترا ، وهى ذات مناخ صحى ، وموقع جميل ، تشرف على بيروت والبحر الأبيض المتوسط ، تكسو رباهها أشجار الصنوبر ، وتزين أرجاءها دوالى العنب الجاثمة فوق الأرض وقد أخفت تحت أوراقها حملها الثقيل ، وترصعها حدائق الفاكهة بما فيها من أشجار يغمرها الصباح بفيض من نوره الوضاء ، كان يملأ قلوبنا نشوة ورضى .

ويقوم على جانبي طرقات هذه القرية المضاعة بالكهرباء ، والمفروشة بالأسفلت ، الحوانيت والفنادق الفخمة ، وأشهرها فندق كامل الذى تقام فيه مسابقات انتخاب ملكة الجمال فى لبنان ، كان بودنا أن نحضر حفلة من تلك الحفلات ، لنشاهد فتيات لبنان وهن يرفلن بملابسهن الشفافة ، التى تفصح عن كل عضو من أعضاء أجسامهن ، وهن واقفات أمام هيئة المحكمين ومن حولهن الناس يشاهدون هذا المنظر الفريد فى نوعه ، ولكن العم أبو طنوس وهو الصحافى المخضرم ، قد أراحنا من مشاهدة مثل هذه الحفلات ، فراح يصف لنا حفلة شاهدها بنفسه فقال :

حضرت مرة انتخاب ملكة الجمال فى لبنان ، فرأيت المحكمين وهم بشر مثلى ومثلكم ، قد وقفوا يتغزلون فى الأبدان ، وهى تمايل فوق المنصة

كأغصان البان، وقد تربع في صدر كل واحدة من الحسنات المتسابقات حقان، كأنهما رمانتان، ويفحصون الوجوه وقد طليت بطبقة من الأصباغ والمساحيق التي هي من مستلزمات الجمال، ثم راحوا في النهاية يتلمسون الجمال في ناحية أخرى من الأجسام، ألا وهي السيقان وكانت كأنها نضيد الجمال، وكان المحكمون يدققون النظر في تلك التماثيل الحية، ويتحسسون بعض الأعضاء ولا لوم عليهم، ويسيرون البعض الآخر، وقد مكثوا على هذه الحال مدة وهم يقلبون الصفقة على جميع الوجوه، وأولئك الفتيات صامتات باسمات الثغور وهن في معرض الجمال متعة للناظرين. ولا تقتصر إقامة مباريات انتخاب ملكة الجمال على سوق الغرب فحسب، وإنما تتعدها إلى بعض قرى الاصطياف الأخرى، التي تنفرد بالمنتديات ودور اللهو، فيغشاها عشاق الجمال، وطلاب المسرات. ويقع وراء سوق الغرب واد خصيب، يتسع جانباها حيناً، ويضيق حيناً، وأشهر متنزهات هذا المصيف الفاتن، عين السيدة، والحرش، ويذهب إليهما الناس للتمتع بما فيهما من جمال، قد خطته يد الطبيعة على تلك الربوع.

شمالان

وتقع جنوبي سوق الغرب قرية «شمالان» وهي قرية صغيرة، تشرف على البحر الأبيض المتوسط وتنسب تحتها مدينة بيروت، وكثير من

القرى والدساكر ، اجتازت سيارتنا شوارعها بدون أن ننتبه لها ، غير أن العم أبو طنوس لفت نظرنا فيها إلى معهد جميل الهندسة ، حسن الموقع ، تحيط به حديقة غناء ، يدل مظهره على عظم أهميته ، يتخرج فيه كبار رجال السلك السياسى البريطانى ، الذين يعملون فى الشرق الأدنى فقال :

أنشأ الإنجليز فى فلسطين سنة ١٩٤٤ يوم أن كانت تحت الانتداب البريطانى معهداً أطلقوا عليه «مركز الدراسات العربية فى الشرق الأوسط» وقبيل انتهاء الانتداب البريطانى فى فلسطين ، نقلت وزارة الخارجية البريطانية مركز هذا المعهد ، الذى هو تحت إشرافها إلى قرية شمالان ، بعدموافقة الحكومة اللبنانية ، ولم نعلم لماذا اختار البريطانيون قرية شمالان بالذات ، مع أنها قرية صغيرة لا شأن يذكر لها .

وترسل وزارة الخارجية البريطانية إلى هذا المعهد شباناً من جميع أنحاء المملكة المتحدة ، من كندا ، وأستراليا ، ونيوزيلندا وغيرها ، فيتعلمون اللغة العربية قراءة وكتابة ، وتاريخ البلدان العربية والإسلام ، فى مدة الدراسة التى لا تتجاوز سنة ، يتحتم على الطالب فى أثناءها ألا يتكلم سوى العربية . وقد تخرج فيه عدد كبير من الدبلوماسيين ، يشغل اليوم أكثرهم ، مناصب هامة فى السلك السياسى فى الشرق الأوسط .

الفصل العاشر

دير القمر

تركنا شمالان ومعهدا الزاهر ، واستأنفنا سيرنا في طرق معبدة بالأسفلت
فمررنا بكثير من القرى ، وبعد مسير ساعة من الزمان ، وسيارتنا في هبوط
وصعود ، ولف ودوران ، حول الأكواع والمنحنيات ، بدا لنا واد واسع
العرصات ، يذهب في الغور إلى مدى بعيد ، تفيض جوانبه نضرة وخضرة ،
تشرف عليه رابية جميلة ، يقصدها الناس للنزهة ، فما كدنا نجتازها ، حتى
ظهرت لنا دير القمر ، ببيوتها المشيدة على منحدرات رائعة ، تطوقها غابات
الصنوبر وكروم العنب ، وتعلو دير القمر عن سطح البحر بمقدار ٨٣٥
مترا ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٤٥ كيلو مترا .

طفنا في هذا المصيف الجميل ، فشاهدنا القصر المعروف بقصر
الخرج الذي بناه الأمير فخر الدين المعني الثاني بدهاليزه الخفية ،
وسراديه العجيبة التي تشبه بغرابتها أساطير ألف ليلة وليلة ، كما رأينا الجامع
الذي بناه الأمير يونس أخى الأمير فخر الدين ، وهو من الآثار الجلييلة
التي تركها الأمراء المعنيون الذين حكموا لبنان .

مررنا بعدئذ بمنشية البلدية ذات الموقع الطبيعي الفاتن ، وقد غرست
 في أرجائها أشجار من الصفصاف الفارع الطول تدلت أغصانها فوق بركة
 ماء، خلعت على المكان منظراً بهيجاً يفتن كل من يراها ، وبعدئذ انتقلنا
 إلى ميدان فسيح الأرجاء قيل لنا إن الفرسان كانوا يتبارون فيه في أيام
 الأمراء المعننين والشهابيين .

شوارع دير القمر نظيفة واسعة ، مفروشة كلها بالأسفلت ومضاءة
 بالكهرباء ، وقد أقيمت على جانبيها المقاهي والفنادق من الدرجة الأولى
 والحوانيث التي يجد المرء فيها جميع ما يشتهي . أما نبع الشالوط فهو أشهر
 ينابيعها ، يتدفق مأؤه بغزارة من أفواه مواسير واسعة . ذقنا هذا الماء فإذا
 هو بارد عذب مثله مثل بقية مياه لبنان .

غابة الشربين

زرنا في أعلى هذا المصيف غابة الشربين التي يبلغ عمر بعض أشجارها
 مئات السنين ، وقد تعانقت أغصانها لقدم عهدها ، ولا تقل عنها جمالا
 وروعة غابة الصنوبر الكثيفة الأغصان ، ذات الرائحة العطرية التي تنبعث
 منها عندما يلامسها النسيم .

دير سيدة التلة

سلكنا بعدئذ طريقاً تحف به الأشجار ، يوصل إلى دير سيدة التلة
لرهبان الموارنة ، القائم في مكان مرتفع عن يمين الطريق المؤدى إلى بيت
الدين في وسط البلدة ، في جداره القبلى حجر كبير عليه صورة تشبه
القمر في شكلها ، قيل لنا إنهم وجدوه في دير قديم ، ولذا أطلقوا على
هذه القرية ، التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ لبنان السياسى ، دير القمر .
وفي رواية أخرى قصها علينا أحد شيوخ البلدة ، أنه عندما تولى الأمراء
المعنيون الحكم في قضاء الشوف ، عثر النصارى على أنقاض دير في غابة ،
فأخذوا يعيدون بنيانه في الليل على ضوء القمر فقبل لها دير القمر ، نسبة
إلى هذا الحادث .

ودير القمر مناخها جاف صحى ، ويفصلها عن بيت الدين التي تعلو
سطح البحر بمقدار ١٠٠٠ متر وبعقلين واد جميل ، طوت سيارتنا طريقه
المتماوج بين الأشجار ذات الرائحة الذكية ، إلى أن برز أمامنا بناء على
الأركان ، شرق الهندسة ، شيد فوق رابية تشرف على الوادى ، وحوله
القرى والدساكر القائمة فوق الروابي والمرتفعات تحيط به صخور قد نبئت
الأعشاب بين شقوقها حتى نمت وطالت .



قصر بيت الدين مقر رئيس الجمهورية

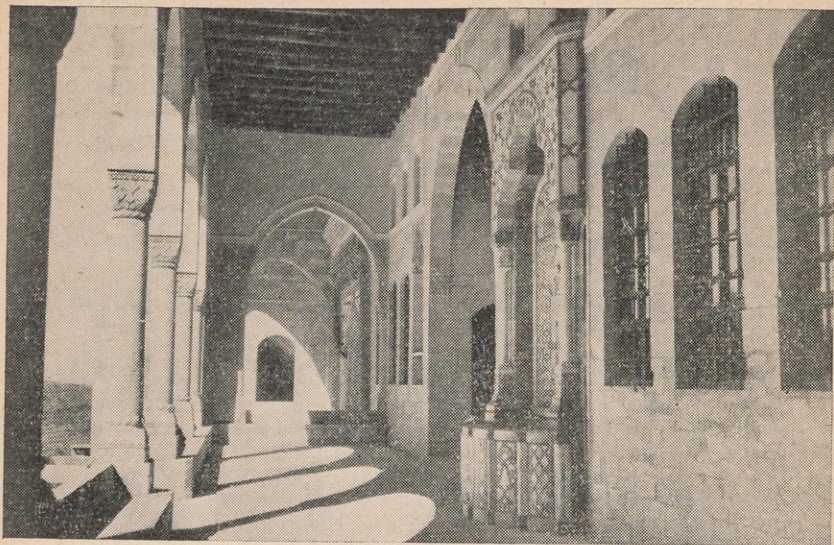
بيت الدين

نالت بيت الدين شهرتها من قصرها التاريخي الشهير الذي عهد الأمير بشير الشهابي الكبير في أوائل القرن التاسع عشر بتشْييده إلى فنّانين من دمشق ، وقد قضوا في بنائه حوالي عشرين عاماً ، حتى جاء هذا القصر المنيف بأروقته المنضدة ، وقبابه المرفوعة عليه ، وأعمدته الملساء ، وأبراجه المربعة ، تحفة في فن البناء ، وآية في حسن الهندسة ، وممتعة للعين ، يزيد في جماله الأعشاب المتداخلة في شقوق جدرانها . ويعتبر هذا القصر

على حداثة عهده من الآثار اللبنانية الخالدة التي يفاخر بها اللبنانيون .
وقد اتخذت الحكومة اللبنانية جزءاً من الجناح الخارجى فى هذا
القصر ، وجعلت منه شبه متحف ، رأينا فيه كثيراً من أنواع الأسلحة
والصور والأزياء وسوى ذلك من الأدوات التى يرجع تاريخها إلى عهد
الأمراء المعنيين والشهابيين .

وقد اعتزل الأمير بشير الحكم فى لبنان سنة ١٨٤٠ بعد مؤتمر أوربا ،
حين أجبرته الدول الأوروبية على ذلك ، فشد رحاله إلى مالطه ، ولذا
يطلقون عليه الأمير بشير المالطى ، ونزل فى حانة أنطونيو مصيف حاكم
الجزيرة مع ولديه الأمير أمين والأمير خليل اللذين رافقاه إلى منفاه ،
ثم تركها بعد سنة تقريباً إلى الإستانة حيث مات فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٥٠
وعمره ٨٧ سنة ، ودفن فى مقبرة الأرمن الكاثوليك فى بيرا .

طفنا بداخل هذا القصر برفقة شاب من أهل القرية بإذن خاص ،
فإذا هو يتألف من ثلاث بنايات غاية فى الروعة وحسن البناء ، وقد لفت نظرنا
الميدان الفسيح الذى كان يتبارى فيه الفرسان بألعاب الفروسية ، والشعراء
والزجالون بما تجود به قريحتهم من بديع النظم ، وحسن الإلقاء بحضرة
الأمير وحاشيته وكبار الشخصيات ، ثم المبنى الخارجى ، والمبنى الوسطى ،
وجناح الحريم والإسطبلات التى كانت تأوى مئات الجياد المطهمة العربية ،
وقاعات الحمام التركية وغيرها فعدنا بذاتنا إلى الماضى القريب ،
يوم أن كان هذا القصر قبلة الأنظار وملتقى الرجال العظام الذين زاروا
لبنان .



قصر بيت الدين من الداخل

وقرأنا على رتاج بابه الخارجى الكبير بيتاً من الشعر ، قال لنا العم
ابو طنوس إنه من نظم الشاعر بطرس كرامه شاعر الأمير :
وعلى باب الحمى قد أرخوا دار عدل فادخلوها بسلام

كما قرأنا فى القاعة الكبرى ، المعروفة بقاعة العمود والمزدانة بالنقوش
العربية البديعة ، تلك القاعة التى كان الأمير يقابل فيها ضيوفه من أجنب
ووطنيين العبارة الآتية :

« رأس الحكمة مخافة الله »

كما كتب فوق الباب من الداخل :

يفي الإله جزاء من بالعدل يرفع عباده
فساعة العدل خير من ألف شهر عباده

وهناك نقوش عديدة منقوشة على الجدران المحلاة بالفسيفساء كلها آية في الجمال . وقد ابتاعت الحكومة اللبنانية هذا القصر من ورثة الأمير بشير ، وأصبح المقر الصيفي لرئيس الجمهورية منذ سنة ١٩٤٤ بعد أن رمته مصلحة الآثار اللبنانية وأعادت إليه رونقه وجماله .

وقد أخبرنا الشاب المرافق لنا ، أن السياح الذين كانوا يزورون هذا القصر في الماضي ، كانوا يحملون معهم على سبيل التذكار ، قطعاً من الرخام التي كانت تزين قاعة العمود .

وشاهدنا في إحدى حجرات هذا القصر متحفاً للأزياء والعادات اللبنانية التي كانت شائعة في عهد الأمراء وعهد المتصرفية .

ويحيط بقصر بيت الدين حدائق غناء ، رأينا في ركن منها ضريح الست شمس زوجة الأمير بشير الأولى وأم أولاده الثلاثة الذكور قاسم و خليل وأمين ، وقد وضعت بجوارها رفات زوجها الأمير بشير بعد نقله من مقبرة الأرمن الكاثوليك في شهر أكتوبر سنة ١٩٤٧ .

وقد أثارت زيارتنا لهذا القصر التاريخي ذكريات ماضيات ، كانت تدور كلها حول ما كان عليه من ابهة وعظمة وجلال ، أيام حكم الأمير بشير للبنان ، وقد أراد أن يخلق منه بلداً كبيراً ، ولكن المطاعم الأوروبية

والأهواء الشرقية تألبت على هذا الأمير ، وأقصته بعيداً عنه ، حيث مات
ولسانه يهجس بذكر لبنان الذي أحبه ومات بعيداً عنه .
وقبل أن تغادر بيت الدين وقف العم أبو طنوس في ساحة القصر
وأخذ يقص علينا القصة التالية عن الأمير فقال :

في اليوم الثالث لوصول الأمير بشير إلى إسطنبول بعد أن أرغم على
أن يتخلى عن الامارة اللبنانية أرسل رؤوف باشا الصدر الأعظم يدعوه
إلى مقابلة الباب العالي وأرسل إليه في الوقت ذاته خيولا مطهمة له ولحاشيته .
وقبل أن يتشرف الأمير بشير بالمثل أمام الباب العالي ، سأل كبار
رجال الديوان الصدر الأعظم ، وكان متغطرسا ، ينظر إلى العرب نظرة
الأسياء للعبيد ، هل نقوم للأمير للسلام عليه ، فأجابهم : كلا لا نقوم .
ولما حل ركاب الأمير في ساحة السراي ، وأهل بطلته الموقرة ،
وعينيه البراقتين ، ولحيته المسترسلة على صدره ، وقد خطها الشيب ، وظهر
بزيه اللبناني العربي ، يشد وسطه مأزر من الكشمير كان قبلة جميع
الأنظار ، ترجل الأمير عن جواده وأنبى الصدر الأعظم بقدومه ، فدخل
عليه الأمير ، فما كاد الصدر الأعظم يراه ، حتى تهيبه فنهض من مكانه
إجلالا واحتراما ، واقترب منه مسلما ، فنهض جميع الحاضرين عندئذ وقد
تملكهم العجب ، وأخذهم الدهش من كل ما حدث ، ولا سيما عندما
أعطى الأمير بشير مكان الصدارة في المجلس ، وبعد انصرافه سأل بعض
رجال كبار ديوان الصدر الأعظم ، لماذا نهضتم للأمير بشير بعدما كنتم قد
أصدرتم أمركم بعدم الوقوف ، فأجاب الصدر الأعظم ، شعرت أن في هذا
(١٥)

الرجل قوة أنهضتني ، فإنني لم أر في حياتي هيبة مثل التي رأيته في هذا الرجل
فقد رأيت في جلال منظره وقوة شخصيته وعظمتها أكثر مما سمعت عنه .

بعقلين

جمعنا رفقة الطريق إلى بعقلين ، وسميت كذلك لوقوعها بين جبليين ،
بشباب من شباب الطائفة الدرزية الكريمة ، التي تعيش مع الطائفة المارونية
في جبل لبنان الأشم ، على أحسن ما يكون من حسن التفاهم والوثام ،
طرقنا أثناء الطريق مع هذا الشاب موضوعات عدة ، حتى إذا عرجنا
في نهايتها على موضوع الغربة والمغتربين ، انتفض الشاب من مكانه وقال :
— إن داء الهجرة الذي استشرى في لبنان هو الذي قتله في الصميم ،
وإن ما يتشدد به الناس من أن جبل لبنان يضيق بساكنيه ، فهذا كلام
هراء لا يستقيم مع المنطق السليم ، فقد كان هذا الجبل يستوعب في
القديم عدداً من السكان ، يفوق عددهم الحالي بمراحل ، ومع ذلك
كانوا يعيشون قانعين ، وبقناعتهم كان غناهم وكانت راحتهم .
أذكر أن الرومان لقبوا لبنان بأهراء روما ، فكانت سهوله الحصبة
الساحلية منها والجبلية ، تمد روما بأنواع الحبوب في تلك الأيام ، التي كانت
فيها طرق المواصلات صعبة شاقة .

ونحن الدروز لا نميل إلى الهجرة كثيراً ، فأراضينا تمدنا بما نحن في
حاجة إليه . فمن كرومنا نصنع الدبس « العسل » ، ومن حقولنا نخزن

الغلة وأنواع الحبوب ، ومن ماشيتنا نصنع «القورما» وكنا إذ ذاك قد بلغنا بعقلين ، وهى مصيف هادئ ، مناخها صحى ، وهواؤها جاف ، ومائها بارد غزير ، وهى تعلو سطح البحر بمقدار ٨٥٠ مترا .

وقد أخبرنا العم أبو طنوس أن أول من نزل فى هذه القرية واتخذها سكناً له ، قبائل بنى الفوارس وقد وفدوا عليها من معرة النعمان ، كما اتخذها الأمراء المعينون مقراً لسكناهم بعد انتقالهم من دير القمر .

وتحيط ببقلين حقول أشجار الزيتون الواسعة ولذا تكثر فيها معاصر الزيوت ، ومصانع الصابون ، التى تكاد تكون بدائية فى معداتها وأدواتها . وتشتهر ببقلين بصناعة السجاد والعباءات التى يلبسها الفلاح اللبناني ، وتصنع من وبر الماعز التى تربى قطعانه فى الجرود ، غير أن هذه الصناعة اليوم فى طريق الزوال ، لتغلغل روح المدنية فى قرى لبنان كما هو شأن صناعات كثيرة فيه .

ويقيم فى بعقلين أحد مشايخ عقل الدروز الثلاثة وقد قابلناه مقابلة خاصة فإذا هو شيخ جليل الهيبة حلو الحديث رحب بنا وأكرم وفادتنا .

الطائفة الدرزية الكريمة

قال لنا رفيقنا الشاب وهو يحدثنا عن طائفته التى ينتسب إليها ، أن لبنان هو منبت هذه الطائفة التى يرجع تاريخ نشأتها إلى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وذلك حين عهد الحاكم بأمر الله صاحب الآراء الغريبة ،

والمعتقدات الشاذة ، إلى أحد أتباعه المدعو « محمد إسماعيل الدرزي » أمر رعاية التنوخيين الذين نزحوا من اليمن بعد سيل العرم إلى سوريا ، ومكثوا فيها ، ولم يغادروها مع الذين غادروها إلى مصر ، فكان هذا من شأنه أن يغلب هذا الإسم عليهم ، وأصبحوا يلقبون « بالدروز » نسبة إلى هذا الشخص ، في حين أنهم يتبرأون منه ، ويقبحون سيرته ، ويناهضون تعاليمه التي تخالف معتقداتهم .

ولما دالت دولة الفاطميين ، شد التنوخيون المقيمون في حلب رحالهم إلى لبنان ، وأقاموا بجهة الشوف ، وما زالوا حتى اليوم يقيمون في هذه البقعة وما جاورها .

المختارة

وتقوم على مقربة من بعقلين قرية المختارة ، تحيط بها الغابات الشاسعة ذات الأشجار الباسقة ، زرنا في هذه القرية قصر الأمير كمال جنبلاط . الزعيم الدرزي الشهير ، وهو قصر قديم غاية في الروعة ، يشرف على واد يزيد في جماله ، ويحيط بهذا القصر شجر السرو الدائم الاخضرار الفارع الطول .

والأمير كمال جنبلاط ، رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي في لبنان ، مثقف ثقافة عالية ، وقد وزع جميع ممتلكاته الواسعة التي ورثها ، على أفراد قريته ، ولم يحتفظ لنفسه منها إلا بما يقوم بأوده .

الباروك

انتقلنا بعدئذ إلى منطقة الباروك ، وهي مصيف جميل تعلو سطح البحر بمقدار ١١٧٠ متراً وتبعد عن بيروت بمقدار ٥١ كيلو متراً ، مناخها صحى ، وجوها جاف ، وفيها النبع الشهير المعروف بنبع الباروك ، يتفجر مائه العذب الغزير من صخور تكتنفها الأشجار . ويقصد منطقة الباروك ، كثير من الناس للتمتع بجوها الجميل ، وهدوئها الشامل ، ومناظرها الطبيعية الفاتنة ، فمن جبال عالية تكسوها الأشجار ، وصخور جميلة الشكل تنبت فوق رباهها الأعشاب النضرة ، إلى غابات كثيفة يزيناها شجر الأرز الذى يبعث فى النفس أسمى صور الروع بالجمال ، نبتت حوله زهور متنوعة الأشكال والألوان .

اتخذنا لنا مجلساً فى تلك البقعة الهادئة ، تحت شجرة تميل أغصانها مع الريح حيث مال ، وتشدو الطيور فوقها ألحاناً تستمد جمالها من روعة المكان ، فتناولنا طعامنا فى ذلك الجو الساحر على أديم أرض نثرت الأشجار فوقها أوراقها الصفراء ، وشربنا من ماء نبع الباروك البارد العذب ، وكان الناس قد اجتمعوا تحت الأشجار والمنتزهات التى حوله يرقصون ويطربون ويترنمون بالأغاني العذبة ، وكانت الطبيعة تشاركهم أفراحهم ومسراتهم بجوها الساحر ، وشمسها الدافئة وهوائها العليل .

عين زحلتا

ما كدنا نترك نبع الباروك الشهير ونقطع طريقاً جبلياً ممهداً للأسفلت ،
حتى بلغنا عين زحلتا ، وتعلو سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ متر ، وتبعد
عن بيروت بمقدار ٤٦ كيلومترا ، فإذا هي محاطة بغابات باسقة الأشجار ،
جوها جاف ، ومناخها صحي ، ومياهها غزيرة عذبة باردة . وقد شاهدنا
فيها آثار هيكل قديم قيل لنا إنه كان لأحد آلهة الأشوريين الذين كانوا
يقيمون في تلك البقاع في العهد القديم .

عين الحلف

وقد اجتزنا في هذا المصيف الفاتن بعين ماء بأعلى القرية يقال لها
عين الحلف ، وهي نبع ماء بارد عذب ، وقد سميت كذلك لأن الأمير
بشير الشهابي الكبير كان يلتقي بأعدائه عندها ويعقد الصلح معهم .

نبع الصفا

أفضت بنا إلى قرية نبع الصفا الغارقة في الرياض الخضراء ، طريق
معبدة للأسفلت ، تحف بها المناظر الطبيعية الفاتنة ، فزنا فيها نبعها

الشهير البارد العذب ، وقد جر مياهه الأمير بشير الشهابي الكبير في الماضي
إلى بيت الدين ، وقد رأينا الآلات الحديثة التي أقيمت على شلالاته لتوليد
التيار الكهربائي الذي يغذى شركة ترام بيروت ، كما شاهدنا حول النبع
فندقاً مبنياً على الطراز الحديث ، قضينا فيه ليلتنا في ذلك الجوال الساحر ،
وكان صوت شلالات النهر يدوي في آذاننا لشدة انحدار مائه فيطربنا .

فصل الحادي عشر

مصايف الجنوب

أراد العم أبو طنوس كعادته قبل القيام برحلتنا إلى لبنان الجنوبي ، أن ينقل إلى مسامعنا نبذة تاريخية عن المناطق المزمع زيارتها ، حتى نكون على بينة من أمرها ، وفي جلسة على نبع الباروك ، تحت ظلال الأشجار الباسقات ، وفي ذلك الجو الساحر الفاتن ، وعلى نغمات خرير الماء المنساب من ذلك النبع الجميل ، ومداعبة النسيم لأغصان أشجار الأرز الخالد قال :

كان لبنان الجنوبي عظيم الأهمية في العصور القديمة ، فأبحرت من موانئه مراكب الفينيقيين موثوقة بأنواع البضاعة ، إلى الموانئ والبلدان الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط وفيما وراء المحيط الأطلسي ، وكان سبق لهم أن ارتادوها واختلطوا بأهلها ، وتاجروا معهم ، وقد ساعدتهم هذا الاختلاط ، على أن يلعبوا دوراً هاماً في اقتصاديات تلك البلدان ، وأن يكونوا رسلاً لنشر المدنية والمعارف والعلوم بينها .

ولبنان الجنوبي ، سهل فسيح محصور بين البحر ، وسلسلة الجبال الساحلية ، التي كانت الغابات ذات الأشجار السامقة تكسو رباها ،

وكانت تلك الجبال تؤلف في الماضي خطأً دفاعياً آميناً ، اتخذها الفينيقيون درعاً
 قهيمهم رد غارات الأعداء . وينقسم هذا السهل إلى قسمين . ففي الشمال سهل
 صيدا وهو مكمل لصحراء الشويفات التي تمتد من نهر الأولى ، والجزء الأعلى
 من نهر الباروك إلى نهر القاسمية ، وقد تغنى كثير من الشعراء في ذكر نهر الأولى
 الذي أطلق عليه العرب نهر الجنة لأنه يروى حدائق وبساتين الفراديس .
 وفي الجنوب سهل صور ، ويمتد حتى نهر القاسمية ، إلى رأس الناقورة ،
 نهاية الحدود اللبنانية ، وهذا الجزء من لبنان الجنوبي ، يكمل لبنان الشمالي .
 وترجع خصوبة التربة في لبنان الجنوبي إلى وفرة المياه ، ولا سيما في
 السهول المحاذية للشاطئ ، فهي من أخصب بقاع العالم ، وأوفرها محصولاً ،
 وتنتج الحبوب بأنواعها والتبغ الجزيئي الذي هو أجود تبغ في العالم ،
 والليمون والبرتقال والموز والمشمش والتفاح والتين والزيتون .

وقد ساعدت خصوبة التربة سكان لبنان الجنوبي على الأعمال الزراعية ،
 وجعلتهم من أمهر زراع العالم ، كما خلقت منهم موانئهم صيادين ماهرين ،
 وتجاراً بارعين حاذقين ، وقد ورثوا جميع هذه الصفات عن أجدادهم
 الفينيقيين .

تلك هي نبذة يسيرة ، سردها على مسامعنا العم أبو طنوس ، ونحن
 جلوس بجوار نبع الباروك ، ولما غادرناه ، سرنا في طريق معبدة تحف
 بها الأشجار ، وتنتصب من ورائها غابات الصنوبر الشاسعة ، وكان
 النسيم العليل يهب عليها ، فيوقع على أفنانها ذات الأوراق الأبرية ألحان

الخلود ، وهي من وحى الطبيعة فترقص لرقتها البلابل والشحارير . التي قامت تصدح عليها بالحنان يتجاوب صداها بين القمم والوديان ، فإذا كل تلك البقاع ترنيمه هادئة اشتركت في إخراجها الطبيعة وما حوت .

جزين

طوبنا في أثناء الطريق إلى لبنان الجنوبي كثيراً من القرى والدساكر ، المغمورة بالمناظر الطبيعية ، إلى أن بدت لنا من بعيد جزين القرية الساحرة التي تعلو سطح البحر بمقدار ٨٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٨٢ كيلو مترا ، وهي جاثمة فوق منحدرات صخرية ، فيها روعة ، وفيها جمال ، تستريح فوقها الأشجار الباسقة ناشرة أغصانها الخضراء كالأعلام في الفضاء ، كما انتصبت فوقها المنازل التي تحمل طابعاً خاصاً بشكلها الهندسي البسيط البديع ، تحيط بها الجلول وقد اختطها القوم وغرسوا فيها حدائق الفاكهة .

ما أجمل تلك الجلول ، وهي تمتد بالطول على مدى البصر ، وتتدرج بالارتفاع فوق الشاغور !! وقد وقفنا أمامه خاشعين ، فراعنا منظر الماء المنساب من رأس الجبل الذي ترصع هامه الأشجار ، وهو يهوى بقوة من علو ٤٠ مترا من فوق تلك الصخور الأزلية التي تتيه فخرأً وكبرياء لتطاولها على الدهور ، فيسمع لسقوطه دوى شديد ، ثم يتناثر رذاذه على الجانبيين ، ولا يلبث أن يجري الماء فوق الحصباء في واد لا قرار له ، قد



أشجار اللوز بجانب الطريق وقد نورت أزهارها ترقب المارة

اخضرت حافتيه ، وانبسطة تحته الرياض الخضراء التي يتغلغل فيها فيرويه .

ما أجمل شلال جزين ! ! وما أعذب الماء الذي يسيل في واديه ! !
إن جزين هي فخر مصايف الجنوب باعتدال جوها ، ورقة هوائها ، وعدوبة
مائها ، وبرودته الطبيعية ، وكثرة فاكهتها الشهية .

ويقع في الجهة الشمالية من الشلال غابة الصنوبر الفيحاء ، وهي من
أجمل منتزهات جزين ، يواجهها من الجهة الشرقية الجنوبية كروم العنب ،
التي تمتد إلى مسافات بعيدة فيها .

تنقلنا في جزين ، وطفنا في شوارعها بين المطاعم والمقاهي الفاتنة وقد
حرص أصحابها على أن يقيموها حول ينابيع الماء التي تكثر في تلك الجهات
يظللها أشجار السرو الشامخ الارتفاع .

مغارة الشقيف

وتقع على بعد قليل من جزين قرية الشقيف ، وهي ضيعة صغيرة
ليست بذات شأن ، غير أن أشهر ما فيها مغارتها العجيبة المنقورة في قلب
الصخور ، وتعرف بمغارة الشقيف ، أو مغارة فخر الدين ، لأن الأمير
فخر الدين المعني ، قد اختبأ فيها من وجه الأتراك الذين كانوا يطاردونه ،
ولما ألقوا القبض عليه ، قاده إلى الإستانة حيث قتلوه سنة ١٦٣٠ .

بكاسين

أما قرية بكاسين القريبة من جزين فلا تقل روعة عنها فهي محاطة بغابة صنوبر شاسعة تشرف على وادي جزين .
 قضينا في هذه البقاع يومين كاملين ، لم يحجب عن عيوننا فيهما شيء من جمال المشاهد الطبيعية الرائعة ، التي تقترن بلطف قوم ، ليس أيسر من أن تتعارف معهم ، وأن يحلوك في ديارهم على الرحب والسعة ذلك لا عجب لأن صفاء نفوسهم مكتسب من صفاء جوهم .

مرجعيون

غادرنا تلك البقاع الفاتنة ، في طريق تناثرت حولها قرى مغمورة بالغياض والرياض ، إلى أن وصلنا إلى مرجعيون ، وتقع على ارتفاع ٧٨٠ مترا ، عن سطح البحر ، وسط سهل خصيب ترويه عدة ينابيع عذبة . سارت سيارتنا في وسط هذه المدينة المكتظة بالسكان ، الطيبة المناخ ، المشهورة بشجاعة رجالها ، وقد سجلت لهم بطولتهم المعارك التي دارت بينهم وبين جنود فرنسا الحرة الذين هاجمهم في الحرب الكبرى الثانية .

حاصبيا

ولما أشرفنا على حاصبيا وهي قرية قديمة تقع في أسفل وادي التيم ، حيث عاش محمد إسماعيل الدرزي ، مؤسس الطائفة الدرزية ، أخذ العم أبو طنوس يسرد على مسامعنا نتفاً عن تاريخ هذه القرية وما جاورها من القرى الأخرى ، وكيف كانت في الماضي مسرحاً لحوادث أليمة . وتعلو حاصبيا عن سطح البحر بمقدار ٧٥٠ متراً ، ويكثر فيها شجر اللوز والزيتون وكروم العنب ، وقد شاهدنا الكثير منها مغروساً على المنحنيات الجبلية .

انتقلنا بعدئذ إلى خلوات البياض ، وتقع على رابية مرتفعة فيها ، وهي مكان مقدس عند الدروز يحجون إليه في أوقات معينة من السنة .

راشيا

وبعد أن تجولنا في حاصبيا ، وشاهدنا بعض الأماكن الأثرية فيها ، زایلناها إلى راشيا القريبة منها ، وتقع على ارتفاع ١٣٥٠ متراً عن سطح البحر ، وهي تشرف على وادي التيم مهد الطائفة الدرزية ، زرنا في هذه القرية قلعتها الشهيرة التي اعتقل فيها الشيخ بشاره الحوري ورياض الصلح والوزراء كميل شمعون (رئيس جمهورية لبنان الحالي) وسليم تقلا وعادل

عسيران وعبد الحميد كرامى .

وينتصب فوق تلك البقاع جبل حرمون الذى جاء ذكره فى التوراة ، وقد أطلق عليه العرب جبل الشيخ ، لأن الثلج يتوج قممه العالية التى يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر بمقدار ٣٧٦٠ مترا ، على مدار السنة . كان القدماء ينظرون إلى هذا الجبل نظره إلى آلهتهم . ، وهذا ما دعاهم إلى أن يقيموا المعابد والهيكل على سفوحه ، وكان أشهرها هيكل بعل حرمون .

صيدا

استمتعنا بليلة هادئة فى حاصبيا ، حتى إذا تنفس الصباح ، نهضنا من نومنا ، واستأنفنا رحلتنا هابطين إلى صيدا ، فى دروب وطرق كنا نرى فيها الفلاحين المفتول السواعد ، الأقوياء الأجسام ، قد انتشروا فى حقولهم ، وانكبوا على أراضيتهم بهمة ونشاط ، يتعهدونها بالفلاحة والزراعة والرى ، بوسائلهم الخاصة .

بلغنا صيدا قبيل الظهر ، وقد أسسها الفينيقيون على الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، جنوب غربى مدينة بيروت ، وتبعد عنها بمقدار ٤٨ كيلو متراً ، وقد كانت هذه الميناء فى غمرة التاريخ ، جنة الصيادين ، لكثرة السمك المختلف الأشكال والألوان الذى يأوى إلى مياهها ، ولذا أطلق عليها الفينيقيون لفظة « صيدون » الفينيقية ، ومعناها « صيد » وقد حرف اسمها بمرور الأيام ، وصارت تعرف « بصيدا » كما يقال إنها سميت

بهذا الاسم ، نسبة إلى صيدون بن كنعان بن حام بن نوح ، الذى أسسها .
وقد غزا الفينيقيون بسفن صيدهم الصغيرة ، من هذا الميناء التاريخي
القديم ، جميع أصقاع العالم التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، كما استعان
الفاثحون من المصريين القدامى والأشوريين والبابليين واليونان والرومان
والفرس بهؤلاء الصيادين فى الأعمال الملاحية ، والحروب البحرية التى
خلدت اسمهم فى بطون التاريخ .

وإلى هؤلاء القوم يرجع الفضل فى اكتشاف الزجاج ، وذلك عن
طريق المصادفة . كان جماعة من الصيادين الفينيقيين ، جالسين على
شاطئ البحر للاستراحة بعد تعب من صيد كثير ، فتناولوا سمكاً وشووه
على الرمال الناعمة البيضاء ، وبعد أن أكلوا واستكفوا شاهدوا للرمل بريقاً
غريباً ، فهدتهم قوة ملاحظتهم إلى شئ ما ، كان بداية اكتشاف الزجاج
الذى ننعم اليوم بفائدته ، ونجنى ثمار مزاياه ، ونزين به منازلنا ،

بقيت صيدا مهملة مدة طويلة من الزمان ، إلى أن أدرك الأمير
فخر الدين المعنى ، فى القرن السابع عشر ، أهميتها ، وما كانت عليه
من العظمة فى العصور التاريخية القديمة ، فاتخذها مدينة تجارية وقد
ضمت إلى لبنان بمقتضى معاهدة الصلح فى سنة ١٩١٨ .

قضينا يوماً كاملاً فى هذه المدينة التى تقوم اليوم على أنقاض مدينة
صيدون القديمة ، فتجولنا فى بساطينها الياقة وحدائقها الغناء العامرة بأشجار
الفاكهة التى تكتنفها من جهتيها الشرقية والشمالية ويروىها نهر الباروك
وتنحدر مياهه من أعالي الجبال . وما يزيد فى جمال صيدا ، مناظر تلال

وربى جبل الريحان ، القائمة وراء الحدائق والبساتين فى الجهة الشرقية منها ، ولعلها سميت بهذا الاسم لكثرة أشجار الريحان التى كانت تكسوها فى الماضى ، وتعطر جميع الأرجاء التى تحيط بها بشذى رائحتها الذكية . وقد رأينا كثيراً من آثار هذه المدينة من فينيقية ورومانية ويونانية و صليبية وهى تنطق بعظمتها ، وتذكر من يراها فى ذلك الماضى البعيد يوم أن كانت مزدهرة نامية ، يخطب جميع الفاتحين الغزاة ود أهلها ، للاستفادة منهم ، ومن مواهبهم الملاحية ، وتعتبر صيدا اليوم بمبانيتها الجميلة الهندسة ، وبساتينها المزدهرة الياقة ، وساحلها الفاتن ، من أجمل المدن الواقعة على شاطئ البحر المتوسط .

وصيدا غنية بجوامعها الأثرية القائمة فى مختلف أرجائها ، وأهمها الجامع الكبير وجامع البحر وجامع البطاح وجامع المصلية وجامع المجذب ، وكلها آية فى الفن الذى ألبسه القدم ثوباً من القداسة والوقار .

وقد أخبرنا العم أبو طنوس فى سياق حديث دار بيننا ونحن جلوس على شاطئ البحر ، نستعيد ذكريات أولئك القوم الغابرين ، أنه فى سنة ١٨٨٦ قد استخرج حمدى بك مدير المتحف العثمانى ، من مدافن صيدا - وكانت فى ذلك الوقت ولاية عثمانية - أربعة نواويس من المرمر الخالص ، البديع الشكل ، الغالى الثمن ، الجميل الصنع . وكان قد اكتشفها المسيو آدمون دوريجلو ، ونقلتها الحكومة العثمانية إلى متحف الأستانة وعندما شاهد بعض علماء الآثار الإنجليز ، هذه النواويس ، أوعزوا إلى حكومتهم أن تعرض على تركيا أن تتنازل لها عن جميع ديونها (١٦)

مقابل أن تتنازل لها تركيا عن هذه النواويس الأربعة الأثرية، ولكن الحكومة التركية رفضت هذا العرض، وهذه النواويس هي تحفة رائعة تزين متحف الأستانة اليوم .

صور

كانت نيتنا متجهة إلى زيارة صور ، التي تقع في الجنوب الغربي من صيدا في ذات اليوم ، ولكن ضيق الوقت ، حال بيننا وبين رغبتنا ، فبارحنا صيدا إلى صور في اليوم التالي مبكرين ، في طريق جميل معبد بالأسفلت ، يشرف على شاطئ البحر الهادئ . إن لفظة صور ، معناها الصخرة ، أنشأها الملك حيرام الفينيقي ، على شبه جزيرة صخرية ، وأوصلها بهيكل هاملكار ، بطريق معبدة ، وكان في هذا الهيكل عمود من الذهب الخالص ، أهده إليه سليمان الملك ، الذي كان مرتبطاً معه برباط الود والصدقة ، مكافأة له على إرسال العمال وخشب الأرز ، لتشيد هيكل أورشليم في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد .

ويحيط بصور من جهاتها الثلاث الشمالية والجنوبية والغربية ، البحر ، وتقع في الجهة الشرقية منها ، حدائق البرتقال الشاسعة . كانت هذه الميناء في الماضي على مبلغ عظيم من الأهمية والعظمة ، وقد أحرز لها بحارتها مجداً تالداً ، لقبت من أجله « بملكة البحار » . ويرجع الفضل إلى صور ، في اكتشاف اللون الأرجواني الجميل ،

الذى جاء ذكره فى الكتب القديمة . وقد هدتهم إليه الصدفة .
 كان جماعة من سكان صور الفينيقية ، جالسين بالقرب من
 الشاطئ الممتد بين صور وعكا ، فرأى أحدهم أصدافاً ، حلزونية الشكل
 سال منها سائل يضرب لونه إلى الحمرة ، وكانت الأمواج قد قذفت بها
 إلى الشاطئ ، وخلفتها وراءها فوق كثبان الرمل ، تحت أشعة الشمس .
 وقف ذلك الفينيقى يحدق النظر فى هذه الأصداف البحرية ، ويتأملها
 بعين المكتشف ، وقد خضب السائل المنساب منها الرمال التى حولها باللون
 الأحمر ، فحمل بعضها إلى بيته ، وأخذ يجرى فيها أبحاثه ، بأن استخراج
 الحيوان الموجود فى داخلها ، وسحق رأسه ، وأخذ منه مادة صفراء اللون ،
 مزجها بماء البحر ، ثم عالج المزيج بوضعه فوق نار هادئة فى إناء من
 الرصاص ، فكان هذا أول اكتشاف للون الأرجوانى ، الذى ينعم العالم
 اليوم بجماله ، فكما هدت الصدفة سكان صيدا الفينيقيين إلى اكتشاف
 الزجاج ، هدت كذلك سكان صور إلى اكتشاف اللون الأرجوانى .

كانت تملك صور فى الماضى أسطولا بحرياً عظيماً ، اغتصبه منها
 ملك صيدا بعد حروب طاحنة وأبحر به إلى شمال أفريقيا ، حيث أسس
 مدينة قرطاجنة الشهيرة التى نافست روما فيما بعد ردها طويلاً من الزمن .
 وقد خاض قائدها المغوار هانيبال ، حروباً دامية مع الرومان وغزاهم فى
 عقر دارهم ، بأن عبر جبال الألب ، ووقف على أبواب روما يدقها ،
 ويهددها ، ولكن سوء الطالع وقف له بالمرصاد فخانه الحظ فكانت الغلبة
 فى النهاية للرومان .

قضينا يوماً كاملاً في صور أم قرطاجنة المدينة التاريخية العظيمة ، ثم
رحلنا عنها في الصباح الباكر فمررنا بكثير من القرى التي تشرف على
الشاطئ ، ولما بلغنا هضبات الشوف ، بدت لنا أشجار الزيتون الرصاصية
اللون ، ذات الأغصان الكثيفة ، وهي تضارع في عظمتها وقدمها ،
أشجار زيتون الكورة في الشمال ، ولما وصلنا إلى الدامور احترقت سيارتنا
طريقاً تنتصب على جانبيها أشجار التوت التي يعنى بها الفلاحون اليوم
لتربية دودة القز والتي تشتهر بها الدامور ؛ وكان محصول الحرير منها في الماضي
وافراً في لبنان قبل أن تتخلص كثير من القرى من شجر التوت ، وتزرع
مكانه أشجار الفاكهة .

الفصل الثاني عشر

بيت مري

يعتقد اللبنانيون وهم على حق في اعتقادهم ، أنه ليس على وجه البسيطة أجمل من لبنان ، ويتجلى هذا الجمال في كل بقعة من بقاعه التي تقع عليها العين ، فجميع قرى المتن هي لوحات حية ، رسمتها يد الطبيعة ، فامتدت إليها يد الإنسان فرصعتها بأشجار الصنوبر الفاتن ، الذي يطل على البحر بقامته الممشوقة ، ويصطف صفوفاً متناسقة فيها روعة وفيها انسجام على لجوانب الطرق المعبدة بالاسفلت ، المتصاعدة في وسط الجبال ، في هذا الطريق سارت سيارتنا من بيروت مارة بقرى فاتنة إلى أن بلغنا بيت مري ، وهي من أجمل مصايف المتن ، وتعلو سطح البحر بمقدار ٧٥٠ متراً ، وتبعد عن بيروت بمقدار ١٧ كيلو متراً . وقد اشتهرت بيت مري بحسن موقعها ، وطيب مناخها ، وروعة المناظر التي تكتنفها ، وهي تعتبر من مصايف الفينيقيين القديمة فكانوا يذهبون إليها عند ما يشتد الحر في بيروت لقربها منها . ويرى المرء من بيت مري البحر المنبسط تحت قدميها بأمواجه الزرقاء الزاخرة ، تعلو وتهبط وهي في حيرة من أمرها ، ثم لا تلبث أن تعود إلى مستقرها ، وهي تنغني بنغماتها السحرية التي كان

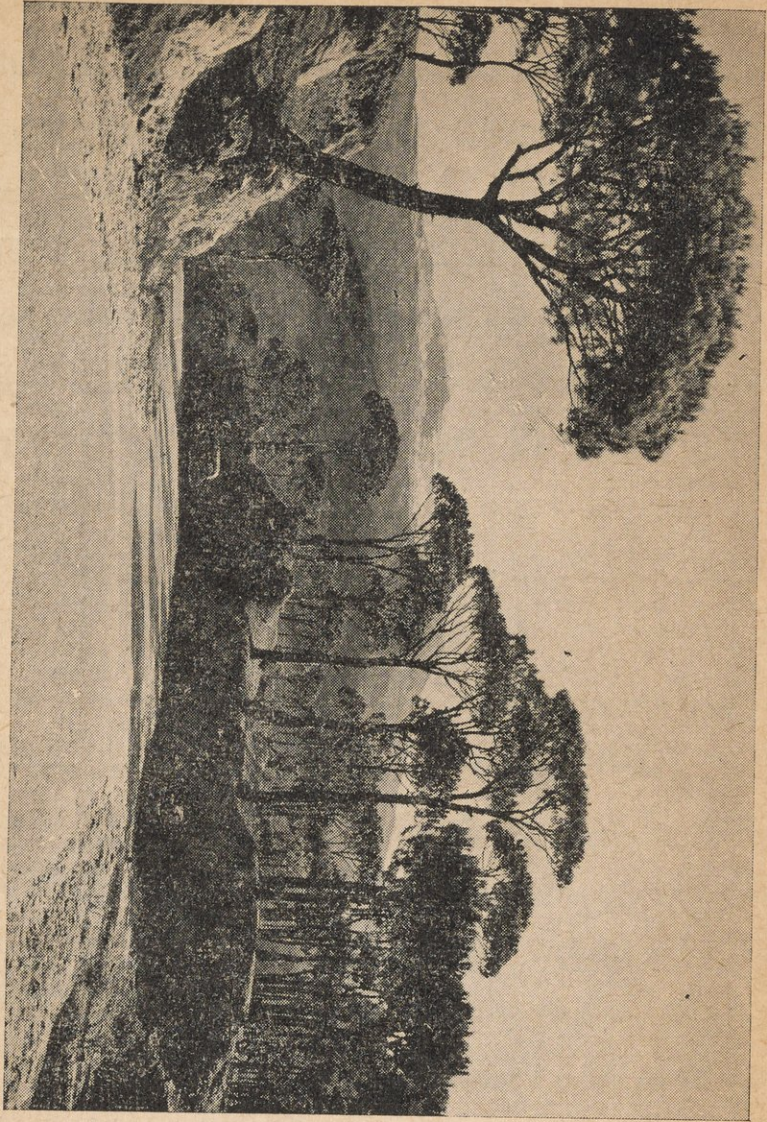
يطرب لها أولئك الفينيقيون ، الذين عشقوا البحار ، كما أقاموا لهم فيها معبداً
لإلههم بعل مرقد ، كانوا يحجون إليه في المواسم والأعياد ، ويقوم اليوم
على أنقاضه في الجهة الغربية منه دير القلعة لرهبان الموارنة .

زرنا هذا الدير ، فإذا هو يطل على نهري العجماني والمثن ، تحيط
به غابات السنديان الشاسعة ، وينتصب فوقه جبلا صنين والكنيسة ، وهما
يناطحان السحاب في علوهما .

وقد قيل لنا إن في مباني هذا الدير ، كثيراً من الحجارة المقتلعة من
الهيكل الفينيقي القديم ، تحمل بعضها كتابات فينيقية ، وقد لفت نظرنا
الدكتور خليل إلى صخور صلبة شديدة الشبه بالمرمر المجزع بجانب الهيكل القديم ،
هي بلا شك ثروة للبنان إذا ثبت وجود مثل هذه الصخور على نطاق واسع فيه
شوارع بيت مري نظيفة واسعة ومضاءة بالكهرباء ، وفيها كثير من
الفنادق والملاهي التي ترغب المصطافين في الذهاب إليها والإقامة فيها .

برمانا

بين جمال الطبيعة الذي كان يحف بنا ، وجلال المناظر التي كانت
تراءى لنا ، وصلنا إلى برمانا ، وتقع على قمة جبل يشرف على البحر ،
يدهشك ما يحيط به من المناظر ، التي خلعت عليها الطبيعة سحرها وجمالها .
فهناك غابات الصنوبر الشاسعة ، وهي من أروع متنزهاتها ، يتردد إليها
عشاق الطبيعة ، فيلتمسون فيها الهدوء والسكينة ، وسط عبيرها الذكي ،



أشجار الصنوبر قد اصطفت على جاني الطريق المؤدية إلى
برمانا وبيت مري مصيف فينيقيا القديم

الذى تنشره فى الجو فتخف أجسامهم وينحط عنهم ثقل الحياة .
وبرمانا لفظة فينيقية معناها بيت كرمان ، وهو إله كان الفينيقيون
يعبدونه ، وقد بنوا له هيكلًا فى تلك البقاع ضاعت اليوم معالمه ودرست
آثاره .

وبرمانا عذبة المياه ، جيدة المناخ ، وأشهر ينابيعها عين أبو خليل ،
وهو نبع معدنى ماؤه عذب عليل ، وبرودته طبيعية كسائر ينابيع لبنان .
ولا تقل برمانا فى تنسيق شوارعها ، ونظافتها ، وجمال منازلها ، وفخامة
فنادقها ، وتعدد ملاهيها عن بقية قرى الاصطياف الأخرى .

بعبدات

ليس سحر قرى المتن مقصوراً على قرية دون أخرى ، أو صورة طبيعية
يغرى جمالها النظر إليها فى بقاع كلها وحى وإلهام وشعور بالجمال ، وإنما
يجذب الغريب إليها طابعها الخاص الذى تتميز به وتحمله على الشعور
بهذا الجمال أراد أم لم يرد ، تلك هى صورة مصغرة طافت بمخيلتنا ونحن
نواصل صعودنا فى طريق املس وهدفنا بعبدات ، وتبعد عن بيروت
بمقدار ٢٣ كيلو متراً ، وتعلو سطح البحر بمقدار ٨٥٠ متراً تحيط بها
غابات من جميع نواحيها . هواؤها نقي ، وجوها لطيف ، وماؤها عذب بارد ،
وشوارعها واسعة نظيفة مضاعة بالكهرباء ، ومفروشة بالأسفلت ، وبيوتها
جميلة الهندسة وقد رأينا فى أحد شوارعها الرئيسية تمثالاً للمغفور له نعيم

اللبكي الذي كان أول رئيس لمجلس النواب اللبناني ، كما شاهدنا قاعدة جميلة لتمثال شاقنا أن نعرف أمرها وبقاءها على تلك الحال ، فعلمنا أنها قاعدة لتمثال المرحوم أميل لحود وزير مالية لبنان الأسبق ، أقامها له أهل بلده وهو على قيد الحياة اعترافاً منهم بفضله على قريتهم ، بنيت القاعدة وهي ماتزال في انتظار وضع التمثال عليها .

ويقع في أسفل بعبدات نبع العرعار ، فمرنا به فإذا هو من أشهر ينابيعها ، ماء بارد عذب غزير ، يسير في قنوات تروى الحدائق والبساتين التي تمتد تحته على مدى النظر .

وفصل بعبدات عن شقيقاتها قرى المتن الأخرى المعلقة فوق الجبال ، مثل العربانية والشبانية وصلما وقرنايل وبزبدین ورأس المتن المتربعة على رأس الجبل ، في المتن الأعلى وجميعها قرى فاتنة طيبة المناخ تزيناها غابات الصنوبر الشاسعة التي يكثر وجودها في المتن — نهر المتن الذي يؤلف مع نهر العجماني ، نهر بيروت وقد أقيم فوقه جسر حجري . تركنا سيارتنا بجوار مقهى قريب منه ، تديره سيدة أسرنا ظرفها ولطفها وحسن مقابلتها لنا وسرنا على أقدامنا ، وغايتنا قرية شيخنا المغترب ، الذي قابلناه في مطار بيروت الدولي ، وتقع وسط غابة صنوبر ، تطل على النهر ، وكان حسن أثناء الطريق يطربنا بصوته العذب ، وبينما نحن نتنقل في طريقنا نمتع النظر بجمال الطبيعة التي تحف بنا من كل جانب ، ونسمع إلى همس النسيم العليل الذي كان يوسوس بين أفنان الأشجار ، بلغنا كرمًا من العنب بعيد المدى ، كان أول من رأينا فيه شخصاً يلبس قبعة من القش ،

وعلى كتفه بندقية صيد ، يتسلق الأشجار بخفة ، ويصعد في الجلول برشاقة ، وفي يده سلة كبيرة كان يضع فيها ما يجمعه من كرمه ، بحيث ما كاد يسمع أصوات الغناء حتى تنبه لنا ، وأخذ يحدق النظر بنا ، ثم ما لبث أن أسرع نحونا ، فعرفنا لأول وهلة ، أما نحن فلم نعرفه ، عرفناه عند أول عهدنا برؤيته في مطار بيروت الدولي ، شيخاً هزيل الجسم ، أصفر الوجه ، مخي الظهر ، يكاد لا يقوى على إخراج الكلمة من فيه ، أما في هذه المرة فرأينا فيه شيخاً جليلاً الهيئته ، مورد الحدين معتدل القامة ، ممتلئاً صحة وعافية ، فعجبنا من رؤيته على هذه الصورة ولكنه قال :

— لا تدهشوا انظروا ما فعل بي هواء لبنان وطيبة مناخه ، وعذوبة مائه ، ففي هذه العناصر الثلاثة إكسير الحياة الذي يبحث عنه العلماء ، فقد كسبت في مدى زمن قليل من موفور الصحة والعافية ، ما أضعته في الاغتراب في ربع قرن من الزمان .
قالت سلوى : عجباً أفي هذه المدة البسيطة التي قضيتها في لبنان ، ردت إليك العافية ؟

— أجاب الشيخ ، لا تعجبي يا ابنتي فإني من تربة هذه الأرض أخذت ، وبماؤها جيلت ، وبهوائها العليل تنشقت ، فكل شربة ماء من نبع الضيعة تساوى دار الغربة بأجمعها ، وكل نسمة هواء تهمس في أغصان شجر الصنوبر والسنديان والصفصاف ، تساوى مال العالم أجمع ، فانظروا إلى كيف كنت وكيف صرت .

سار شيخنا وسرنا وراءه ، حتى اقتربنا من بيت قديم نبتت الأعشاب
حول جدرانها فقال :

— هذا هو البيت الذى رهنته لأسافر إلى أمريكا ، وتلك هى
السنديانة التى كنت أجلس تحتها أعلم أطفال القرية قبل سفري بعض
النهار ، وكنت أصلح الأحذية القديمة فى البعض الآخر ، تلك هى
تذكارات تشوقنى إلى قريتى ، وتكرهنى بالغربة التى أفنيت فيها زهرة
شبابى ، وإنى اليوم سعيد بمعيشتى وقد استعدت الأراضى التى رهنتها
لأفلاحها وأزرعها وأتعهدا بنفسى .

وقد بالغ شيخنا فى إكرامنا ، فأعد لنا غذاء لبنانياً فاخراً شهياً .
وجلسنا بعد الأكل نتجاذب أطراف الحديث مع نفر من شيوخ تلك
القرية ، وكانوا قد عرفوا بأمرنا ، فأتوا للسلام علينا ، تلك هى عادات
القوم فى القرى اللبنانية ، وقد أجمع جميع الذين حادثناهم ، على أن الهجرة
داء عضال ، قد استشرى فى لبنان ، ولا بد له من دواء ، يقيه شر هذا
المرض الوبيل ، فالقرى اللبنانية اليوم تكاد تكون مقفرة إلا من الشيوخ
والنساء والأطفال ، لأن الشباب لا تطيب له الإقامة فيها ، بل يرغب فى
السفر إلى الأقطار الإفريقية أو الأمريكية أو إلى بعض الأقطار العربية
مثل الكويت والبلاد العربية السعودية حيث يجرى الذهب الأسود ، لزعمهم
أن مجال الثراء واسع فيها ، وما درى أولئك المساكين ، أن القلة مع الصحة
فى ربوع لبنان ، خير من الغنى مع المرض فى الغربة .

قالت سلوى : تجولنا فى كثير من قرى لبنان ، من شماله إلى جنوبه ،

ومن شرقه إلى غربه ، فلاحظنا والأسف يملأ أفئدتنا ، أن المثل القائل الذى سمعناه من بعض شيوخكم ، وهو « هنيئاً لمن له مرقد عنزة فى جبل لبنان » لا أثر له اليوم .

أجاب العم أبو طنوس : صدقت ، ولكن لا بد أن يعود ذلك اليوم عند ما يعود المغتربون إلى لبنان فنعود نسمع فيه قول هذا المثل .
قضينا بقية يومنا . ونحن نتجول فى غابات الصنوبر الكثيفة التى تكثر فى جهة المتن ، وكروم العنب الشاسعة التى تحيط بقرية شيخنا ، حتى إذا أمست الدنيا ، قضينا السهرة فى داخل خيمة ، نصبها شيخنا فى كرمه من أغصان الأشجار ، فكنا نسمع أغانى العتابا المنبعثة من كل مكان من كروم العنب .

ولما أصبحنا ، ودعنا وعدنا أدراجنا إلى مطار بيروت الدولى ، عن طريق بجنس ، حيث يوجد مصح المصدورين على رابية عالية تحيط بها غابات الصنوبر الكثيف الأغصان ، فبلغناه قبيل الساعة الثامنة صباحاً ، فاتخذنا لنا مجلساً فى مقصفه ، وأخذنا نتحدث مع العم أبى طنوس والسائق حسن فى انتظار المناداة على أسماء المسافرين ، حتى إذا حان الوقت أو كاد ، ودعنا العم أبى طنوس وشكرنا له جميل رعايته لنا ، واهتمامه بأمرنا ، وما زودنا به من معلومات شائقة ، وقصص طريفة ، دونها فى مذكراتنا وطلبنا منه أن يزورنا فى مصر لنرد له بعض الحميل الذى طوق به عنوقنا ، فوعدنا بذلك قريباً ، ثم وجهنا الشكر للسائق حسن على لطفه وظرفه معنا ، وقدمنا له هدية قبلها شاكرآ بعد إلحاح شديد من الأنسة سلوى .

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة عند ما دخلنا المطار ، فصعدنا إلى الطائرة ، واتخذنا فيها أماكننا ، ولما أعلنت الساعة دقائقها النصف بعد الثامنة ، دارت محركاتها ، وعلا أزيزها ، وتحركت ، فتحرك معها قلب حسن ، وكان واقفاً من وراء الحاجز الخارجى ينظر إلينا فى تفكير عميق ، وكأنى به يستعيد فى تلك اللحظة ذكريات هذه الرحلة القصيرة ، وما كانت تتحفه به الآنسة سلوى وهى إلى جواره فى السيارة من حديث شائق عذب .

ولما درجت الطائرة على أرض المطار ، وأخذت تصعد فى الجو رويداً كان حسن يلوح لنا بمنديله الأبيض ويقول :

— مع السلامة ، وإلى اللقاء فى السنة القادمة فى لبنان إن شاء الله .
وبقى حسن هكذا فى ذهول من فرقتنا ، حتى غابت الطائرة عن الأنظار ، فغاب عنا بالجسم ولم يغيب عن ذاكرتنا ظرفه ولطفه وحسن معاملته لنا ، وهى الصفات التى يتصف بها جميع سائقى السيارات فى لبنان .
لم نشعر بالخوف فى هذه المرة ، والطائرة تطوى بنا الجو معلقة فى الفضاء ، لأننا ألفنا السفر بهذه الطريقة ، حتى أدركنا مطار القاهرة الدولى ونحن على أحسن حال وأهنأ بال .

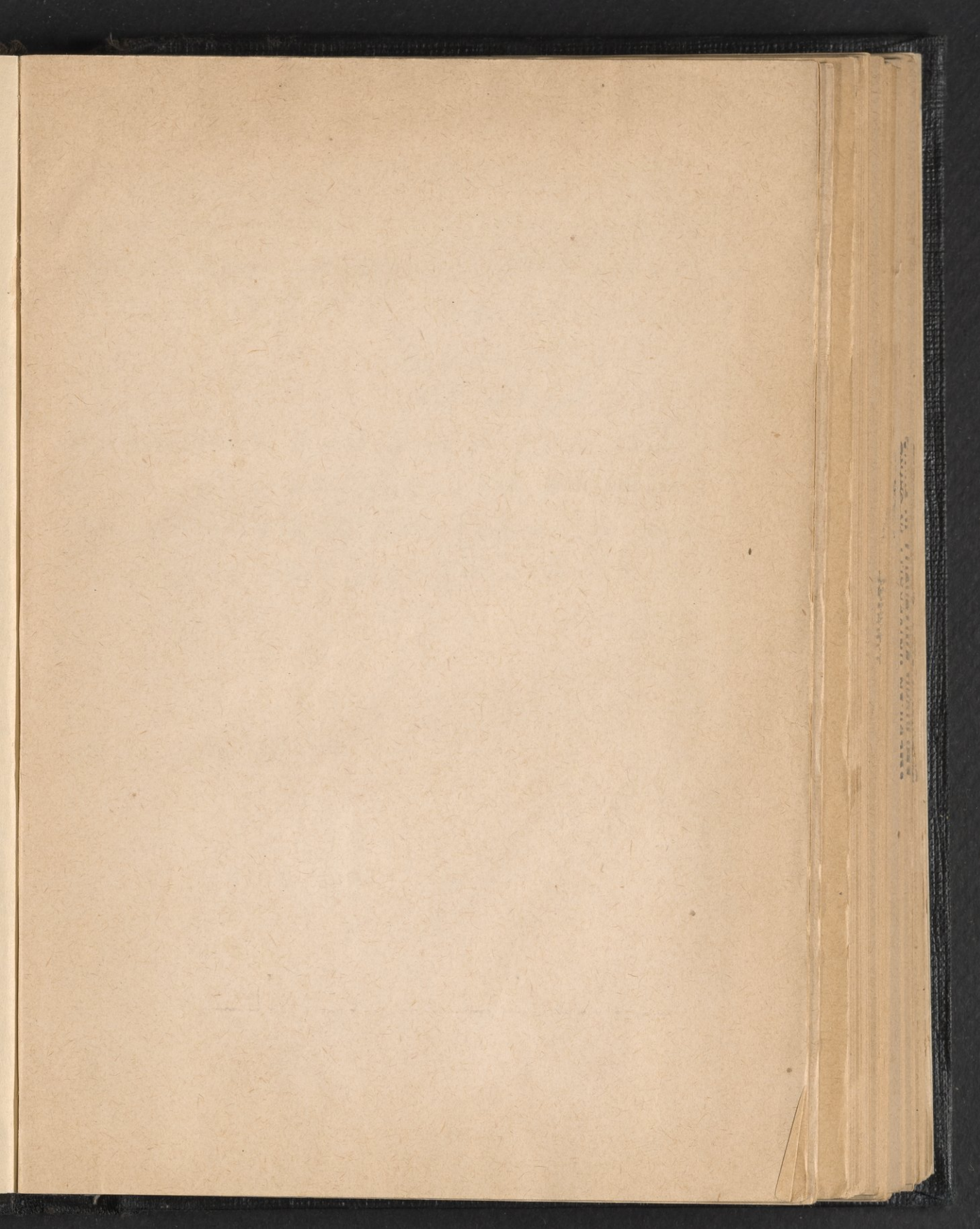
* * *

والآن ، وقد طفت معى أيها القارئ الكريم بالفكر فى ربوع لبنان الجميلة ، أرجو أن يسعدك الحظ ، وتذهب بالرحلة إليه ، لتشهد الجمال الذى سطرته يد الطبيعة على كل بقعة فيه ، وقد وصفته لك

وأنا جالس أمام مكتبي بالقاهرة ، وفكرى يذرع أرض لبنان ، مرتع
السحر وموطن الجمال ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ،
وأنا أنشد ترنيمة الجمال قائلاً :

ما أعظم الطبيعة في لبنان ! !
ما أجل أسرار الجمال هناك ! !

إن صوره تتزاحم أمام الإنسان ، وتظهر في كل خطوة يخطوها في ذلك
الجبل ذات المناظر الفتانة ، ما يختفى منها مشاهد عن الأبصار ، إلا لتظهر
مشاهد أخرى أبهج وأروع ، تنطق كلها بآيات الفنان الأعظم ، الذى
اختار لها هذا الكتاب الخالد الذى سمي « لبنان » فهنيئاً لمن له مرقد عنزة
في جبل لبنان .



AUC - LIBRARY



DATE

DS
80.2
Y3
1955

JUN 1973



1 0 0 0 0 1 2 5 0 9 9

